IBRAHIM AL-KONI

رواية
NOVEL



إبراهيم الكوني

# قابيلُ.. أينَ أخوكَ هَابيلُ؟











# قابيلُ .. أينَ أخوكَ هابيلُ ؟



قابيلُ ..
أيْنَ أخُوكَ هَابيلُ
؟؟

**قابيل .. أين أخوك هابيل ؟ / رواية عربيّة**
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
**الطبعة الأولى ، 2007**




**المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
**المركز الرئيسي :**
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
**التوزيع في الأردن :**
**دار الفارس للنشر والتوزيع**
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®

لوحة الغلاف : **لفنّاني ما قبل التاريخ / الصحراء الليبيّة**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**


ISBN 978-9953-36-170-3

**إلى خليفة التلّيسي:**

**عابدٌ في محراب معبودةٍ اسمها طرابلس!**

«وكلّم قايين هابيل أخاه. وحدث إذْ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الربّ لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي. فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملتَ الأرضَ لا تعود تعطيك قوّتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض. فقال قايين للربّ ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنّك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كلّ من وجدني يقتلني. فقال له الربّ لذلك كلّ من قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه. وجعل الربّ لقايين علامةً لكي لا يقتله كلّ من وجده».

**التكوين (4:8،16)**

# القسم الأوّل

# 1

تسلّل سيدي حسين خارج سور القلعة بعد أن دفع للعسس عشرين محبوباً. في الخارج تحرّر من لباسه في أحد أركان البنيان ثم انطلق عبر الزقاق المؤدّي إلى قنصلية الإنجليز ملفوفاً في البرنس حتّى أن حارس القنصلية أنكره بجفاء عندما أدرك باب القنصلية. توسّله وهو يلهث من فرط الإعياء:

- أنا سيدي حسين يا عمّ محمود. لا بدّ أن أتحدّث إلى القنصل في الحال!

تفحّصه العمّ محمود وهو يتمتم بارتياب:

- سيدي حسين!

- أجل. سيدي حسين..

هَمَّ بأن يضيف: «يا ور حسن بك»، ولكنه استدرك في اللحظة الأخيرة ليستبدل العبارة بعبارة أخرى:

- سيدي حسين بتوري ابن شقيق السفير حاج عبد الرحمٰن. هل نسيتني؟!

ولكن الحارس أَبى إلاّ أن يدعوه كما دعاه دائماً استجابةً لناموس الخليقة الذي يفضّل أن يسمّي الرجال بسلطانهم لا بأسماء آبائهم:

ـ سيدي حسين ياور حسن بك؟

فتح له الباب على مصراعيه فاندفع إلى الداخل. هناك استوقفه أحد الخدم بجسده ويديه معاً. ولكنه ما لبث أن حيّاه بانحناءة إكبار ما أن تبيّنه، ثم لاحقه بنداء عالٍ:

ـ سيدي حسين ياور البك!

في الخارج علت هرجة. من جهة الميناء انطلقت أوّل قذيفة من فوهة مدفع. تمتم سيدي حسين كالأبله:

ـ الجنازة!

في تلك اللحظة وجد نفسه في مواجهة المستر توللي قنصل الإنجليز لدى البلاط الطرابلسي وصديق العائلة القديم. استشعر رجفة لأوّل مرّة. غمغم كأنه يخاطب نفسه:

ـ ظننت أن داركم هي المكان الوحيد الآمن!

تقدّم منه القنصل خطوات. أخذه من يده. مضى به إلى دار فسيحة مفروشة بالسجّاد، تتناثر في زواياها الأرائك. أجلسه على أريكة وأومأ للخدم لكي يحضروا للضيف القهوة والمرطبات. قال القنصل:

ـ لأمثال سيدي حسين كل مكان في هذه الدنيا أرض أمان!

ولكن المستجير ما لبث أن اعترض:

ـ إلاّ في مملكة سيدي يوسف!

حاوره المستر تولّلي بلهجة كأنها استخفاف:

- هل انقلبت المملكة الطرابلسية مملكةً لسيدي يوسف بين يوم وليلة؟

أجاب سيدي حسين:

- المملكة الطرابلسية صارت مملكة سيدي يوسف منذ تولّى أمرها ملك يحتقرها!

استقرّ القنصل قبالة ضيفه على أريكة. تلهّى بيديه لحظات. قال:

- يقال أن احتقار الممالك منكر لا يمرّ بدون قصاص!

ارتجّ الطريد يمنةً ويسرةً. أغمض عينيه حتّى فزّ منهما الدّمع. بعد لحظة كان يبكي كالطفل. طأطأ المستر تولّلي إكباراً لنكبته في حين غمغم الطريد وهو يتجرّع دموعه:

- لو رأيت البك غارقاً في مستنقع الدّم لأيقنت أن كل ما تناقلته الأجيال عن عدالة الله مجرّد كذب في كذب!

- لا ينبغي أن نفقد إيماننا بعدالة الربّ لمجرّد أن جريمة قد حدثت!

انكبّ المستجير فوق ركبتيه مطوّقاً وجهه بكلتا يديه. قال:

- ما حدث ليس جريمة. ما حدث هو المنكر وليس مجرّد جريمة. لو رأى سعادة القنصل جسد البك الممزق بإحدى عشر طلقة غدّارة، المطعون بعشرات الطعنات من أنصال السيوف، المحتضر بين يدي أمّ لا تملك لنجدته حيلة، لما قال أبداً أن ما حدث مجرّد جريمة!

تطلّع إليه المستر تولّلي بغموض. قال بعد لحظة:

- في تاريخ مملكتنا من المكائد المشابهة أمثلة أكثر مما قد تتخيّل!

عادت مدافع سفن المرفأ تطلق القذائف، فوق حصون القلعة أيضاً انطلقت القذائف من فوهات المدافع. تمتم سيدي حسين مرّة أخرى:

- الجنازة!

نهض القنصل. تقدّم من النافذة. تطلّع إلى الشارع في الأسفل. كان الموكب قد تبدّى من الركن في نهاية الشارع المؤدّي إلى سور القلعة. جنازة بائسة لم يسر في ركابها سوى بضعة أنفار. ولكن سطوح المنازل، كما لاحظ القنصل، كانت مزحومة بأهل الفضول. غمغم القنصل:

- كأنّ حسن بك لم يكن للباشا ابناً بكراً!

ردّد سيدي حسين:

- بلى! لقد عاش حسن بك غريباً في هذه الديار. ولهذا السبب كان عليه أن يدفع الثمن!

هَبَّ بعدها واقفاً فتبدّى مضحكاً بألبسته الداخلية التي يعلوها برنسه الأنيق. وقف في اللحظة التي أقبل فيها أحد الخدم حاملاً طبق القهوة والمرطبات.

قال:

- يجب أن أذهب!

حدجه القنصل بدهشة. تساءل:

- هل أتيت لتذهب؟

طأطأ قبل أن يجيب:

- هناك أشياء لا نملك الحقّ في أن نتخلّى عنها حتّى لو دفعنا مقابلها الحياة ثمناً!

استفهم المستر تولّلي بنظرة فأضاف وهو يهمّ بالانصراف:

- الواجب!

استوقفه القنصل:

- ولكن أعوان سيدي يوسف بالمرصاد!

أجاب دون أن يلتفت:

- قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا!

حاججه القنصل وهو يسعى خلفه:

- تحتكم إلى آيات الكتاب وتنسى الآية الأخرى التي تنهى المؤمنين بألاّ يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة؟

توقّف سيدي حسين. استدار فوجد نفسه مع المستر تولّلي وجهاً لوجه. بدأ يرتعد من جديد. ولكنه جاهد ليقول:

- لم أبكِ بين يديك منذ قليل إلاّ لأني تذكرت عاري! تذكرت فراري! ما كان يجب أن أترك جثمان البك خوفاً من الموت! لقد خلعت ثيابي وتنكرت كأني امرأة لأصل إلى هنا. وعليّ الآن أن أكفّر

عن فعلتي بحمل نعش صديقي على منكبيّ هذين لأستودعه بيته الأخير. وباستطاعة رجال سيدي يوسف أن يكملوا عملهم بغرس سيوف كيدهم في نحري لأنام إلى جوار البك بضمير نقيّ!

استدار خارجاً. ولكنه توقّف عندما بلغ الباب ليقول:

ـ سوف أتباهى في كل الأحوال بأن المستر تولّلي أجارني من دون الناس جميعاً. أجارني في يومٍ ينكر فيه الابن أباه، والأب ابنه. سأتباهى بذلك حيّاً أو ميّتاً!

في الخارج تلقّفه الشارع المؤدّي إلى جامع الباشا، فيما كانت مدافع السفن الراسية في المرفأ تطلق قذائف الوداع كل دقيقة.

هَرجل طوال الطريق. ولم يلتقط أنفاسه إلاّ عندما أدرك الموكب عند أعتاب المسجد الذي ابتناه السلف أحمد الأكبر ليكون ضريحاً أبديّاً لجلالته ولسلالته من بعده.

## 2

في بستان الباشا، بضاحية المنشية، أمر سيدي يوسف بإحضار سيدات الطرب من كل الأجناس: طرابلسيات ويهوديات، وزنجيات وحتّى التركيات. ويقول الرواة أن بساتين المنشية لم تشهد في تاريخها كلّه احتفالاً يمكن أن يضارع في ترفه الاحتفال الذي أقامه سيدي يوسف في تلك الليلة ابتهاجاً بفلاحه في القضاء على «الورم المميت» كما كان يلقّب شقيقه البك سرّاً طوال صراعهما الطويل.

لم يبخل سيدي يوسف في تلك الليلة التاريخية على أعوانه

بالهدايا، ولا بأنواع الخمور المعتّقة التي استولى عليها من أقبية أكابر المنشية، ولا بذخائر البارود الذي استمرّ يمزّق سكون تلك الحقول منذ الغروب ولم يتوقّف حتّى مطلع الفجر.

قيل أيضاً أنه لم يبخل على رجاله بالغواني اللائي استجلبهنّ من ديارهن بالقوّة ليستكمل مراسم ذلك الزفاف الذي لم يكن ليكون سوى زفاف روحه إلى ممالك الشيطان كما راق لأحد خبثاء المملكة أن يعبّر.

أمّا «غانم»، ذلك الزنجي الفظيع الذي كان له في مكيدته المنكرة يداً يمنى، فقد كافأه بوعدٍ قطعه على نفسه أمام جموع فرسانه يقضي بتزويجه من إحدى حسان المملكة التي تجري في عروقها دماء سلالات الأناضول جزاءً له على شجاعته، وانتقاماً من بقايا الجالية التركية التي انحازت حسب تقديره إلى جانب البك سنوات صراعه مع هذا العدوّ.

في ذروة هذه القيامة من عزف المزامير، وغناء المطربات، وطلقات الرصاص، وهرج المنتشين، انطلقت ولولات النائحات في ربوع البستان المجاور لبستان الباشا. وعندما استفهم سيدي يوسف عن هذا النشاز أخبره أحد الرجال قائلاً أن امرأة الكاهية (الذي لقي مصرعه على يد سيدي يوسف بعد مصرع البك بلحظات) هي التي استدعت النّدابات للنواح على روح رجلها المرحوم، فما كان منه إلاّ أن امتطى جواده في الحال وانطلق إلى البستان المجاور. هناك اعترضه الخدم فشجّ رؤوسهم بضبّة سيفه. ثم عَبَرَ إلى الداخل ليهدّد المرأة الشقيّة بخنقها في الحال إن لم تكفّ عن النحيب وتُخْرِس النساء عن النواح؛

وإذا لم يرُق لها الاستماع إلى طبول الفرح فما عليها إلاّ أن تذهب إلى القلعة لتروي هناك ظمأها إلى أصوات النّوح. ثمّ عاد على عقبيه في اللحظة التي أقبل فيها أحد الفرسان ليخبره بأن للآعويشة أنجبت للبك بعد مصرعه ذلك الوريث الذي حرمته منه الأقدار أثناء حياته، فاكتأب قليلاً؛ ولكنه ما لبث أن تزعزع بضحكة منكرة قبل أن يقول:

- الحمد لله أن الوريث لم يأتِ إلاّ بعد فوات الأوان!

3

في صباح اليوم التالي كان الشيخ الفطيسي يتربّع في مواجهة سيدي يوسف على النّطع ويحشو يديه حتى المرفقين في جوف خروف محشوّ بالأرز (تخلّف من مأدبة البارحة) ليتناول إفطاره فتسيل الدهون على يديه لتغمر ساعديه وأطراف ثيابه. كان سيدي يوسف يجلس على أريكة في مواجهته، ويراقب كفاحه النّهم بسيماء لا تخلو من اشمئزاز.

تبادلا مراراً نظرات ذات معنى، ولكنهما لم يبتسما ولم ينبسا أيضاً حتّى انتهى الفطيسي من إفطاره، فقال سيدي يوسف:

- ها نحن ننتهي من جهادنا الأصغر لنبدأ جهاداً أكبر!

حدجه الفطيسي بنظرة ثعلبان قبل أن يقول:

- قبل أن نشرع في الجهاد الذي تقول أنه الأكبر يجب إنجاز بعض الصغائر الضرورية لاستكمال جهادنا الأصغر!

استفهم سيدي يوسف بنظرة، ولكن الفطيسي لم يستجب لاستفهامه. تلهّى بمسح يديه الملوّثتين بالدهون. تبسّم لنفسه بخبث. قال:

ـ لإعلاء راية النصر لا بدّ من التنكيل بصاحب الهزيمة!

عمّ المكان صمت. تبادل الرجلان نظرة طويلة. قال سيدي يوسف:

ـ لقد نكّلنا أكثر مما ينبغي أن ننكّل!

هزّ الفطيسي رأسه استنكاراً، في حين أوضح سيدي يوسف:

ـ أنت لا تعلم ماذا كلّفني التنكيل بجثّة البك!

قال الفطيسي:

ـ التنكيل الذي أعنيه ليس التنكيل بجثث الأموات، ولكنه التنكيل بأجرام الأحياء!

استنكر سيدي يوسف:

ـ التنكيل بأجرام الأحياء؟!

ـ بلى! البك هلك، ولكن ذريّة البك ما زالت على قيد الحياة!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا بد من إماتة الضمير إلى النهاية إذا شئنا أن ننهي عملنا كما يجب!

ـ لا أفهم.

سكت الفطيسي لحظة. رنا إلى الخارج عبر الباب دون أن يبصر الحقول المغمورة بنور الصبح. قال:

ـ ألا يقال أننا يجب أن نتيقّن من إصابة العدوّ فيما إذا احتكمنا إلى السلاح، كما يجب أن نتيقّن من إصابته إصابة مميتة أيضاً إذا أصبناه؟

ـ هذا ما يقال.

ـ أنت أصبت العدوّ، ولكن إصابتك لن تكون قاتلة ما لم تزح من طريقك ذيوله!

تعجّب سيدي يوسف:

ـ هل تريدني أن أقتل سيدي أحمد أيضاً؟

جعجع الفطيسي بضحكة غريبة. قال بعد أن اعتدل في جلسته:

ـ مهلاً! مهلاً! أنت تصرّ أن تقفز إلى أبعد في حين كان يجب أن تتذكّر أننا لم ننتهِ بعد من جهادنا الأصغر ما لم تعمل على قطع حبل الذريّة!

ـ حبل الذريّة؟

ـ ألم تسمع بأن للاّعويشة أنجبت للبك وريثاً؟

ضحك سيدي يوسف. قال:

ـ ما نفع وريث لإنسانٍ ليس بوسعه أن يورث؟

ـ ها أنت تخطىء كأنّك تجهل أن من سمّم حياة أبيك في سلطانه على المملكة هم أعمامه!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ ذريّة البك يجب أن تختفي من الدنيا حتى لو كانت بناتاً!

ابتسم سيدي يوسف باستخفاف. قال:

ـ انتظرت أن توصيني بما هو أهمّ من ذريّة البك!

ـ وهل هناك أهمّ من ذريّة البك؟

سدّد إليه سيدي يوسف نظرة. سأل:

- كأنّي بك تتغابى! كأنك تتجنّب أن تقول أنه سيدي أحمد!

صاح الفطيسي بخيبة أمل:

- ها أنت تريد أن تسبق الأحداث! ألاَ يجب أن ننتهي من جهادنا الأصغر أوّلاً ثم نأتي لسيرة الجهاد الأكبر؟

زفر سيدي يوسف بإعياء. قال:

- هل تريدني أن أخنق طفلاً في المهد؟

ضحك الفطيسي باستهزاء واضح هذه المرّة. قال:

- لقد أجهزتَ على شقيقك الأكبر في أحضان أمّه وأمّك، ثم تعجز في كتم أنفاس كتلة لحم لا سيماء لها ولا إسم؟

تساءل سيدي يوسف:

- لقد ذكرتني. ما اسم هذا المخلوق؟ هل أطلقوا عليه اسماً؟

- ولماذا تريد أن تعرف اسمه؟ لا بد أن يطلقوا عليه اسم البك كما تقضي الأعراف. ألا يستفزّك أن تعرف أن اسمه «حسن» لكي تعمل على تحريره من وزر الحياة الدنيا وهو ما يزال ملفوفاً في قماط المهد؟

سكت سيدي يوسف. انتصب فجأة. قطع في المكان خطوات. سأل:

- هل أطلقوا عليه اسم «حسن» حقّاً؟

حدجه الفطيسي بنظرة، ولكنه لم يجب. قال سيدي يوسف:

- سوف آمر بتجريد أفراد أسرته من الألقاب. سوف أعمل على

تجريدهم من ثياب الأمراء. سوف أطردهم من القصر أيضاً، ولكن أن ألوّث يديّ بدم رضيع عمل قبيح مثير للاشمئزاز!

علّق الشيخ ببرود:

ـ إذا لم تلوّث يديك بدم الرضيع اليوم لوّث الرضيع يديه بدمك غداً!

تسكّع سيدي يوسف في فضاء الدار. قال:

ـ أنت تبالغ كثيراً!

ـ سِيَر الأوّلين لا تتحدّث إلاّ عن الملوك الذين هلكوا بأيدي الصغار لا لشيء إلاّ لأنهم وجدوا حرجاً في القضاء عليهم في المهد!

هيمن سكون. قال سيدي يوسف:

ـ بالأمس بعث لي الباشا بمسبحته رمز أمانٍ للذهاب إلى القلعة!

خطا خطوة، خطوتين، ثم توقّف. لم يلتفت نحو الشيخ عندما سأل:

ـ بما تشير؟

هيمن سكون جديد. أضاف سيدي يوسف إلى السؤال سؤالاً آخر:

ـ هل تظنّ أنهم في وضع يسمح لهم بنصب الفخوخ؟

أجاب الفطيسي:

ـ حتّى لو كانوا في وضع لا يسمح لهم بتدبير المكيدة، لا يجب أن تذهب!

ـ ولكن التلويح بالمسبحة شأن عظيم كما قيل لي!

ـ بلى! بالمسبحة لوّح لك بالتنازل عن العرش، ولكن حول العرش ما زال يحوم وريث آخر!

اكتأب سيدي يوسف في وقفته قليلاً، تمتم:

ـ سيدي أحمد لم يكن يوماً عقبة!

ولكنه سمع تحذيراً من فم الدّاهية:

ـ لا نهلك عادةً عندما ننتظر الخطر. نهلك عندما نأمن أنفسنا من الخطر، فاحترس!

## 4

يوم عاد سيدي أحمد من رحلته إلى مصراته ودخل على للاّحسنية لم تصدّق هذه المرأة عينيها.

ارتمت عند أقدام الرجل لتطوّق ساقيه بذراعيها وهي تستسلم لنوبة نحيب. فقد أُشيع في القصر أنه قُتل غيلةً في الطريق. ثم كذّب المكذّبون هذه الشائعة واستبدلوها بشائعة أخرى تقول أنه في طريقه إلى المدينة ولكنه يعاني أعراض مرض غريب إذا لم يكن الطاعون فلن يكون غير جرعة سمّ دسّها له جواسيس سيدي يوسف في وجبة الطعام خفيةً. وعندما دخل الجناح ليتبدّى أمام حميمته شاحباً شحوب الأموات أيقنت بوقوع بليّة فاندفعت إليه وهي تنتحب. وكان يمكن أن تمضي إلى أبعد فترفع عقيرتها بالمناحة لو لم يوشوش في أذنها في الوقت المناسب بعبارة غامضة كانت لوساوسها بلسماً. قالت وهي ما تزال تخوض في دموعها:

ـ لقد قيل لنا أن يد الكيد امتدّت إليك أيضاً، وعندما بلغتَ مشارف المدينة أخبروا بأنّك مسموم ولا أمل في نجاتك يُرجى!

انهار سيدي أحمد على الأريكة، فسقطت المرأة على ركبتيها تحت قدميه لتطوّق ركبتيه. قال القرين:

ـ أنا مسموم بالفعل، ولكني لست مسموماً بجرعة السمّ. أنتم أيضاً مسمومون. المدينة أيضاً مسمومة. المملكة كلّها مسمومة بما حدث!

زفر أنفاساً كالفحيح ثم أضاف:

ـ هل تتخيّلين أن الأب طردني شرّ طردة عندما مثلت بين يديه منذ قليل!

شيّعت نحوه عينين نجلاوين شوّههما الدمع وأحزان الفجائع لتقول:

ـ وماذا انتظرت أن يفعل؟ لم يفعل يوسف ما فعل إلاّ بمباركة منه!

ـ هل يقول الناس ذلك حقّاً؟

ـ إذا لم تفرّ بنا من دنيا هذه العصابة فلن تكون الضحية التالية إلاّ نحن!

استغرب القرين:

ـ نفرّ؟!

ـ بالطبع نفرّ! نفرّ إلى تونس أو إلى مالطا أو إلى أيّ مكان إذا كنتَ تريدنا أن نحيا!

تطلّع إليها بعينين ملآنتين تعباً ودهشةً ويأساً وربّما جنوناً. قالت:

- لقد قلتَ أنه طردك بدل أن يحتضنك ليواسيك في فقيده وفقيدك. ألا ترى في هذا تأكيداً على سوء النيّة؟

استلقى إلى الوراء على الأريكة. أغمض عينيه. قال:

- لقد استهجن أن أدخل عليه بسلاح في يومٍ لم يكن ابنه البكر ليلقي مصرعه في حضن أمّه لو لم يكن أعزلاً!

- إنه يريد أن يجرّدكم جميعاً من أسلحتكم لكي يقدمكم خراف قرابين لسكّين محبوبه يوسف!

ترنّح سيدي أحمد:

- لا أصدّق! ما حدث وما يحدث في هذه القلعة كلّه لا يصدّق!

توسلّته المرأة:

- يجب أن تصدّق. إذا لم تصدّق هلكتَ وهلكنا كلّنا معك!

تشبّثت بركبتيه بكلتا يديها. توسّلت:

- فلنهاجر! تنازل لهم عن كل شيء وأنجُ. هل يهون عليك أن ترى أطفالك ينحرون قبل أن تنحر؟

أسكتها بإشارة من يده. قال بعد لحظة:

- هل تتخيّلين أنه أصدر أمراً إلى شيوخ المنشية بحراسة سيدي يوسف خوفاً عليه من بطش الأهالي؟

- ولماذا لا يأمر شيوخ المنشية بحماية سيدي يوسف إذا كان نفسه لا يرى نفسه إلاّ في سيدي يوسف؟

ذهل سيدي أحمد. رفع رأسه عن مسند الأريكة ليتساءل:

ـ ماذا تقولين؟

ولكن الحسناء التي تجري في عروقها دماء سلالات الأناضول لم تزد على أن قالت:

ـ الباشا وسيدي يوسف شيطان واحد!

ثم أضافت بلهجة لم تخلُ من معنى:

ـ ألم يبلغك نبأ المسبحة؟

ـ المسبحة؟

ـ لقد أرسل له الباشا مسبحته بعد فعلته المنكرة!

سكت القرين. تساءل:

ـ ما معنى هذا؟

نظرت المرأة في عينيه بسلطان كاهنة. قالت بيقين:

ـ هو يدّعي أنها مجرّد علامة أمان، ولكن الدهاة لم يفتهم الإيماء!

ـ الإيماء؟

ـ أجل. المسبحة تلويح بالتنازل للقاتل عن العرش!

أطلق القرين ضحكة استخفاف. قال بلهجة سخرية:

ـ الشرفاء يُطعنون غدراً، والقتلة ينالون العروش مكافأةً!

ـ هذا ناموس الأجيال منذ خُلقت الدنيا. العرش من نصيب القتلة دائماً!

ترنّح القرين في جلسته. ردّد لحن شجنٍ قبل أن يقول:

- بلى، بلى. قابيل ينحر هابيل بسبب الغيرة، ثم يكافئه الربّ بختمٍ على الجبين لئلاّ يقتله كل منٍ وجده!

حدجته المرأة قبل أن تستفهم:

- عن أيّ ختم تتحدّث؟

كان سيدي أحمد يرتجف عندما أجاب:

- العلامة! ألم يجعل ربّ العالمين علامةً لقابيل لكي لا يقتصّ منه كل من وجده جزاء فعلته في هابيل؟

استولت عليه الحمّى في اللحظة التالية. أضاف وهو يرتعد:

- يروق لإستير أن تتحدّث عن محاباة الربّ فتقول أن الربّ بارك عمل قابيل عندما وهبه العلامة!

استعجبت المرأة:

- الربّ بارك عمل قابيل؟

ثم أضافت وهي تكفكف آخر دموعها:

- إذا كان الربّ قد وضع ختم أوّل أمانٍ على جبين أوّل مجرم فكيف نلوم أهل السلطان إذا تشبّهوا به؟

- كأنّ الغفران لا يكفي فيوهب غنيمةً إلى جانب الغفران!

في تلك اللحظة اندفعت إلى الداخل فطّومة (جارية للاّ حلّومة) وهي ترتجف. قالت أن سيدي يوسف أمر بتجريد ذريّة الفقيد من ألقابهم وممتلكاتهم وحتّى من حُلل الأمراء ليستبدلها بألبسة الرعيّة. ثمّ

انهارت على الأرض، عند قدمي سيدي أحمد، لتنقل له رسالة للاّ حلّومة التي تستحلفه بحليب الأمّ أن يتدخّل!

استمع سيدي أحمد غائباً قبل أن ترفّ على شفتيه بسمة استخفاف. هتف بعدها بلامبالاة:

ـ من أين لمثلي أن يشفع لمن غلبه الله على أمره إذا كان الله هو الذي ختم على جبين القاتل علامة لكي تصير له بين الناس شفيعاً بدل أن يختم على جبينه بعلامة تصير للناس على خطيئته دليلاً كَيْ يقتله كلّ مَنْ وَجَدَه؟

## 5

في اليوم التالي ذهب للمثول بين يدي الأب.

وجده مكوّماً في عرشه كجوالٍ منفوش من القشّ. يفتح عيناً مرّة ليغمضها ثم يفتح عينه الأخرى كأنه الثعلب. وقف قبالته لحظات قبل أن يبادره بسؤال:

ـ البلبلة تعمّ المدينة يا مولاي، والفوضى تستولي على كل البلاد، والجميع ينتظر منك الخلاص!

أفاق من غيبوبته ليفتح كلتا عينيه فتبدّتا حمراوين، جاحظتين، مغمورتين بالنعاس الأبديّ. تعجّب:

ـ الخلاص؟

تردّد الابن. أوضح:

ـ القرار. الكلّ ينتظر قرارك.

ـ عن أيّ قرار تحدّثني؟

حدجه قبل أن يجيب:

ـ قرار البكوية. أنت تعلم أن البك وارته الأيدي تراب المثوى الأخير منذ أيام. وبرغم ذلك لم يسمع الناس الأبواق التي تزفّ لهم بشرى تنصيب البك البديل كما جرى العُرف.

تبادلا نظرة طويلة. أومأ له أن يقترب فتقدّم نحو العرش خطوتين. ترجرج بدن الباشا في عرشه. مال نحو الأمام. همهم مغمض العينين:

ـ ماذا يرى سيدي يوسف؟

فتح عينيه لحظة ثم عاد فأغمضهما في الحال. همد في مقعده كأنه نام. انتظمت أنفاسه. استرخى جسده. مال برأسه على منكبه الأيمن. أطلق بمنخريه صوتاً كالشخير، فاستشعر سيدي أحمد يأساً مميتاً. ردّد بذهول:

ـ ماذا يرى سيدي يوسف..

ثم أضاف:

ـ صدقت. ما كان يجب أن أمثل بين يديك في هذا الشأن. كان يجب أن أمثل بين يدي سيدي يوسف!

ويبدو أن لهجة الاستخفاف استفزّت الباشا فاستيقظ من غفوته ليتوعّد:

ـ احترس!

ولكن سيدي أحمد فقد صوابه. صاح:

- ولماذا عليّ أن أحترس؟ هل أخطىء إذا قلت أنّك تريد أن تنصّبه علينا ملكاً؟ لماذا لا تضع حدّاً لهذه المهزلة بالتنازل له عن العرش؟

انتظر أن يهبّ الباشا في وجهه، ولكن الباشا ابتسم بمكر قبل أن يقول:

- لو كنتُ أريد أن أنصّبه على العرش لفعلت.

- ماذا تريد إذاً؟

أجاب الباشا مغمض العينين:

- مَنْ منّا يعرف ماذا يريد؟

استسلم في مقعده لحظات، ثم أضاف بغموض:

- سأهبك هذه المملكة بدل التنازل عنها لسيدي يوسف لو أخبرتني عن إنسان واحد في هذه الدنيا عرف جيّداً ماذا يريد. ها - ها...

ترجرج بدنه المهيب بضحكة قصيرة، في حين قال سيدي أحمد:

- في الماضي ظنّناه يوسف في حين ظنّناك يعقوب، ولم يخطر ببالنا يوماً أن تصنع منه بطلاً مكافأةً له على جريمته البشعة!

- صنعتُ منه بطلاً؟

- أنت ظننتَ أنّك صنعتَ منه بطلاً، ولا تدري يا أبي أنّك صنعتَ منه قابيلاً!

- صنعتُ منه قابيلاً؟

- بلى، بلى. أنت صنعت من سيدي يوسف قابيل آدم، بل صنعتَ منه، بغفرانك، قابيل الربّ بعد أن كان قابيل ابن آدم!

تابعه الباشا بلا مبالاة. تابعه بعينين جاحظتين، حمراوين، متعبتين من فرط السّهر والسُّكر. رفّت على شفتيه ظلال بسمة خفيّة. قال:

- أنت لا تدري أنّك تقرأ على رأسي صحيفة براءة في وقتٍ ظننتَ فيه أنّك تقرأ على رأسي صحيفة اتّهام!

تضاحك، أوضح:

- إذا كان سيدي يوسف مجرّد قابيل آدم قبل ارتكابه للجرم، فتاج على رأسي أن يجعل منه غفراني قابيل الربّ!

تململ في عرشه. قال:

- هذه معجزة الغفران التي يجدر بنا أن نتعلّمها من ربّ السماوات والأرض!

- هذه أسفار «إستر». لا يروق لك إلاّ أن تقرأ على أسماعنا مزامير هذه النبيّة المزوّرة!

توعّده الأب بسبّابة قبيحة بَتر طولها السمنة:

- إيّاك أن تسبّ «إستير» في حضرتي!

- لم يكن بيني وبين إستير عداوة، ولكن أحزنني دائماً أن يقول الناس أنها هي من يقود زمام هذه المملكة من وراء حجاب!

قال الباشا وهو يرنو إلى البحر الذي يتبدّى من النافذة:

ـ كل الممالك تُقاد من وراء حجاب!

أغمض عينيه بعدها. استرخى في عرشه. انتظمت أنفاسه حتّى ظنّ سيدي أحمد أنه نام. لحظتها قال مغمض العينين:

ـ الناس لا يرون في «إستير» إلاّ ملّتها، ثم بدانة بدنها، ولا يدرون أبداً أن هذا البدن المخيف، وهذه العلامة الكاذبة المسمّاة في رطانات الأمم ملّة، ليسا سوى السّتر الذي يخفي كنزاً لو عرفوه لأكبروه أضعاف ما أكبرته.

تساءل الابن بلهجة استهزاء:

ـ ستر يخفي كنزاً؟

ـ بلى. ستر يخفي حكمة!

ـ حكمة؟

ـ تستنكر عندما أقول حكمة، لأن الحكمة عنقاء مغرب. لأنّ الحكمة الغريب في هذه الدنيا الذي يدخل بيوتنا فلا يجدنا. عداوة الناس لإستير هي عداوة الناس للحكمة!

زفر بإعياء، ولكنه ما لبث أن أضاف:

ـ ولو سمعتَ إستير تتحدّث عن سيرة قابيل لما تجاسرتَ على رميها بحجر!

تساءل سيدي أحمد ساخراً:

ـ وماذا يمكن أن تقوله سيّدة الحكمة إستير عن قابيل أيضاً؟

ـ إستير تقول أن قابيل لم يصبح قدّيساً لولا جريمة قتل الأخ!

تطلّع إلى الأب بدهشة، فأضاف الباشا:

ـ لا تحسب هذا تجديفاً وانتظرني قليلاً. فبانتمائنا إلى آدم ما نحن سوى سجيّة. هذه السجيّة التي يروق للبعض أن يسمّيها براءة. ولا ندري ماذا نفعل بهذه البراءة إلى أن يأتي اليوم الذي نقرّر فيه أن نسلك طريقنا الذي اخترناه لأنفسنا فلا يكون أمامنا إلاّ أن نلتقم فاكهة من شجرة الزقّوم، أو فلنقل بكلمة أخرى نرتكب جريمة. يومها تنجلي الغيوب فنبصر. نبصر الرّب في القصاص. بلى، بلى. نحن لا نستطيع أن نبصر الربّ إلاّ في الخطيئة. إلاّ في قصاصه الناتج عن الجريمة. وفضيلة القصاص في أنّنا لا نحبّ الربّ إن لم نره. وتحرّرنا من العماء هو بداية ميلادنا لأننا بمحبّة الله نحيا لا بمخافته كما تعلّمنا. والله لا بدّ أن يهبنا الغفران مقابل هذه المحبّة. بهذا الغفران لا ننال النجاة فحسب، ولكننا نفوز بالقداسة!

ـ لو صدق ما تدّعيه إستير فإن الأمر كلّه لا يعدو أن يكون صفقة في صفقة!

ـ بلى. الأمر كلّه صفقة. الحياة برمّتها صفقة بين لغز اسمه الروح وطينة اسمها الجسد!

تمشّى سيدي أحمد في البلاط خطوات. قال فجأة:

ـ أنت تريد أن تجد مبرّراً لسيدي يوسف. هذه أحجية لتبرئة سيدي يوسف. لو آمنّا بما قلت منذ قليل فإن جريمة سيدي يوسف

جعلت منه قدّيساً. أنت تريد أن تقنعنا بأن سيدي يوسف عرف ربّه وتنسى أن القداسة رهينة التوبة. أجل، أجل. قابيل لم يفز بالعلامة إلاّ بالندم، فلا تحاول يا أبي أن تخدعني!

سكت الباشا. فتح عيناً وأغمض عيناً. قال:

ـ لست في حاجة لأن أخدع أحداً. لقد شككتَ في مواهب إستير فحدّثتك بما تقوله إستير!

ـ ليس المهمّ يا مولاي ما تقوله إستير. المهمّ هو ما تقوله أنت.

ـ ها أنا أقول ما تقوله إستير.

سكت الابن. قطع في المكان خطوات. توقّف. قال:

ـ ما أعلمه أن أسفار إستير تتحدّث عن باطل الأباطيل!

ـ صدقتْ أسفار إستير. كل شيء في هذه الدنيا باطل أباطيل!

حدّق الابن في عين الأب، ولكن الباشا أغمض عينيه سريعاً.

قال سيدي أحمد:

ـ الآن أستطيع أن أفهم سرّ الخراب الذي يحيق بهذه المملكة الشقية منذ توليتم أمرها.

قال الباشا مغمض العينين:

ـ سرّ خراب المملكة ناموس الممالك.

ـ ناموس الممالك؟

ـ لقد قلت لكم دائماً أن الأخلاف لا بدّ أن يهدموا ما ابتناه الأسلاف. الأحفاد دائماً آفة لممالك بناها الأجداد!

لوّح سيدي أحمد بيده في الهواء علامة يأس، أو إعياء، أو سخرية. قال:

- لا أريدك الآن إلاّ أن تحسم أمر قابيلك. إذا قررتَ أن تهبه البكوية فافعل. ولكني أرجو منك أن تمهلني للخروج من البلاد أوّلاً!

تابعه الباشا بعينين نصف مغمضتين. قال:

- ولماذا عليك أن تخرج من البلاد؟

توقّف سيدي أحمد. حدّق في عين أبيه. قال:

- لأني لا أريد أن أكون الضحية الثانية!

سكت، ثم أضاف فجأة:

- لقد أرسلتَ له بمسبحتك، ولكنه خذلك ولم يأتِ!

انتظر الباشا أن يفصح، ولكنه سكت. تساءل الباشا:

- ماذا تريد أن تقول؟

- أردت أن أقول أنه قدّم الدليل على سوء النوايا، ولكنّك غفرت له هذه الخطيئة أيضاً.

سكت الباشا. أضاف الابن:

- إذا كان يرفض أن يثق بك حتّى أنت الذي غفرت له كل خطاياه، بل وكافأته عليها، فكيف تريدني أن أثق به أنا؟

لم ينبس الباشا. استرخى في جوف عرشه المهيب. بدأت أنفاسه تنتظم. صدره يعلو ويهبط في إيقاع رتيب.

وقف الابن يتفرّج لحظات. قال أخيراً:

ـ سوف أذهب إلى سيدي يوسف بنفسي!

لم يجب الأب فأضاف الابن:

ـ سوف أذهب لأتنازل له عن البكوية، لأن لا أحد يستطيع أن يضمن لي أنّك لن تسبقني فتتنازل له عن العرش!

خطا نحو الخارج. ولكنه قبل أن يدرك الباب سمع الباشا يعاند ضحكةً خبيثة.

## 6

قال الشيخ الفطيسي:

ـ تسلّح بالغموض!

ثم أضاف لئلاّ يفوّت على الرفيق فرصة الاستفهام:

ـ تقدّم بإحدى رجليك خطوة إلى الأمام، ثم تأخّر برجلك الأخرى خطوة إلى الوراء. لا تصرّح بقبول، ولا تعلن لهم رفضاً. قِسْ جيّداً. تخنّس ما استطعت إلى التخنّس سبيلاً. ولكن احترس أن ينتزعوا منك تصريحاً، أو يفوزوا منك بمستمسك!

قال سيدي يوسف:

ـ لم أرَ يوماً لمثل هذه المناورات ضرورة!

ـ أنت تنسى أنّك تقود حرباً. وشعار الحرب الدّهاء الذي تسميه أنت مناورة!

لوّح سيدي يوسف بيده في الهواء. ولكن الشيخ استبقه:

ـ لولا ما تسمّيه أنت مناورة لما أفلحتَ في التخلّص من البك!

كانا يتجوّلان في بستان الباشا بضاحية المنشية حيث استقرّ المقام بسيدي يوسف بعد جريمة قتل الأخ، حيث انضمّ إلى رحاب القصر (المشيّد في قلب البستان) الشيخ الفطيسي في اليوم التالي لنجاح المكيدة التي حبك فصولها قبلها بوقت طويل.

قال سيدي يوسف:

ـ وافقتُ على لقاء سيدي أحمد في الغد. فماذا يا ترى يجب أن أقول فيما إذا قدّم لي البكوية على طبق من ذهب؟

توقّف الفطيسي عن السعي. التفت إلى سيدي يوسف. قال:

ـ وكيف تقبل البكوية من يدي سيدي أحمد إذا كنتَ قد رفضتَ ما هو أعظم من البكوية منذ أيام؟

استفهم سيدي يوسف بإيماءة فأوضح الفطيسي:

ـ ألم ترفض الذهاب إلى الباشا لتجلس على العرش يوم بعث لك بالمسبحة؟

طأطأ سيدي يوسف. خطا في حشائش البستان المغمورة بالمياه. قال:

ـ أعترف لك بأني ما زلت في شكّ ممّا فعلت!

ـ إيّاك أن تشك في أمر. كما لا يجب أن تندم على أمر فات.

ـ لم أعتد الاستخفاء يوماً. اعتدت أن أمضي إلى الغاية في طريق مستقيم.

ـ الطريق المستقيم يقود إلى الموت، ولكنه لا يقود إلى السلطان أبداً.

ـ لا أعرف لماذا لا أذهب من فوري لأجلس على العرش!

ضحك الشيخ. قال:

ـ الأعسر من نيل العرش هو إقناع الناس بأنّك أهل للعرش!

سكت سيدي يوسف. قال بعد قليل:

ـ يقال أن هانيبال لم يتسبّب في هزيمة قرطاجة لو لم يفوّت على نفسه فرصة احتلال روما بعد أن هزم جيوشها في أعظم المعارك!

ـ ومعاوية لم يكن ليستطيع أن يؤسس أكبر إمبراطورية إسلامية لو لم يمهّد لسلطانه بحربه ضدّ عليّ!

مالت الشمس نحو المغيب. من الشمال هبّت أنسام البحر. أرض الحقول نفثت أبخرة النهار الحارّة فعبقت الأجواء برائحة الأعشاب والبلل والطّين وأخلاط الزهور.

قال الشيخ:

ـ معاوية أم هانيبال: هذا أمر سيأتي أوانه. ولكن قبل ذلك يجب أن ترتدي اللحاف!

استهجن سيدي يوسف:

ـ أرتدي اللحاف؟

ـ أجل. يجب أن تتنكّر كما تنكرتَ دائماً!

أطلق ضحكة. ضحك حتى استلقى إلى الوراء. أضاف:

ـ لا أنسى اليوم الذي تنكرتَ فيه في بيت السفير عبد الرحمن!

ضحك سيدي يوسف أيضاً. قال:

ـ ولكن التنكّر يومها كاد ينتهي إلى فضيحة، وربّما إلى مذبحة لو لم انسحب في الوقت المناسب برفقة للآزنوبيا معشوقة البك!

ـ ولكن أريدك الآن أن تعترف: هل كانت تلك الحسناء على علم بحقيقتك؟

ابتسم سيدي يوسف. قال:

ـ يكفي أن أقول أن تلك المرأة لم تكن أجمل حسناء فقط، ولكنها أكبر داهية في المملكة أيضاً.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أنها إذا لم تكن على علم بالأمر قبل خروجها فقد صارت على علم بالأمر بعد خروجها!

عاد الشيخ يجلجل بالضحك. قال:

ـ فهمت. لقد قضيتَ ليلتك في مخدعها!

ـ ولكنها كتمت السرّ!

ـ هل تعني سرّ التنكّر أم سرّ المخدع؟

ـ كلاهما!

ضحك سيدي يوسف أيضاً. ولكنه ابتلع ضحكته فجأة ليقول:

ـ ولكن لأيّ سبب تريدني أن أرتدي ذلك اللحاف اللعين من جديد؟

حدجه الفطيسي بنظرة ماكرة. قال:

ـ هل نسيت ابن الأفعى الذي ينتظرك في القلعة؟

أطلق سيدي يوسف أنيناً. قال بصوت الوجع:

- أما زلت تريدني أن أسحق قطعة اللحم تلك؟

هتف الشيخ:

- ماذا تقول وصيّة الوصايا: إلزم السبيل مهما تلوّى. قم بأداء الواجب مهما استعسر!

## 7

يوم التقى الشقيقان بعد مفاوضات عسيرة استمرّت أيّاماً قال سيدي يوسف:

- أجبني على سؤال واحد.

تساءل سيدي أحمد:

- ألا وهو؟

- أيّ السلطانين أعظم شأناً: البكوية أم العرش؟

أجاب سيدي أحمد بسيماء فضحت حرجاً:

- العرش أعظم شأناً بالطبع!

- هل تظنّ أن إنساناً رفض قبول العرش يمكن أن يتنازل ليقبل البكوية؟

طأطأ سيدي أحمد:

- كلاّ بالطبع.

- لماذا جئت تعرض عليّ البكوية إذاً؟

أجاب سيدي أحمد بعد تردّد:

ـ فعلت ذلك حقناً للدماء!

ـ أيّة دماء؟

ـ دماء الأشقّاء!

ـ يسعدني أن أسمع منك الحرص على حقن دماء الأشقّاء، ولكن لا يجب أن تنسى أنني لست الإنسان الذي يقبل الهبات!

ـ الهبات؟

ـ ألم تحدّثني عن رغبتك في إعطائي البكوية على سبيل الهبة منذ قليل؟

سكت سيدي أحمد. قال:

ـ ظننت أن ذلك سيرضيك.

ـ ولماذا قررت أن ترضيني بمنصب مهيب هو من حقّك وليس من حقّي؟

سكت سيدي أحمد. قال سيدي يوسف:

ـ سأعفيك من الجواب، لأني قررت أن أجيب نيابة عنك. أنت فعلت ذلك ظنّاً منك أنّي أزحت البك من طريقي طمعاً في البكوية.

شيّع سيدي أحمد رأسه فالتقت نظراتهما. طأطأ سيدي أحمد مرة أخرى فتكلّم سيدي يوسف:

ـ أستطيع أن أقسم لك الآن بأني لم أفعل ما فعلت طمعاً في البكوية.

سكت. أضاف:

ـ أنت تتساءل الآن لماذا فعلت ما فعلت فاسمح لي أن أعفيك

من هذا السؤال أيضاً. بلى. لقد فعلت ما فعلت لأن ثمَّة أشياء في هذه الدنيا لا يغفرها الرجال لأنفسهم!

سكت. حدّق في عيني شقيقه. أضاف:

ـ الإهانة!

حدجه سيدي أحمد خلسةً، ولكنه لم ينبس، فتكلّم سيدي يوسف:

ـ أنت لن تعرف معنى ذلك لأنك لم تذق طعم الانتقام يوماً!

تقدّم نحوه خطوة. في مقلتيه لمع بريق مجهول. قال بصوت بحيح:

ـ الانتقام هو الحياة!

في تلك اللحظة لعن سيدي أحمد أباه لأول مرة في حياته كلّها لأنه دفعه لاستجداء موافقة سيدي يوسف لنيل قفطان البكوية. وها هو يتنازل له عنها طوعاً فيرفض سيدي يوسف هبته إمعاناً في إذلاله. استشعر الذلّ إلى حدّ أعجزه عن الكلام. تمتم أخيراً:

ـ ماذا تريد؟

انتصب بينهما صمت. كان سيدي يوسف يبتسم بخبث مزهوّاً بانتصاره. أجاب في نهاية المطاف:

ـ لا أريد إلاّ أن أراك تهنأ بالبكوية!

وقفا متواجهين لحظة أخرى. استدار سيدي أحمد لينصرف. ولكن سيدي يوسف استوقفه بعبارة ذات معنى:

ـ أم أنّك نسيت أننا كنّا حلفاء في عهد حسن بك؟

# 8

فكّر أن يستخدم «ميزلتوب»، ولكنّه تذكّر ضلوعها في الفضيحة التي قذفت بها على شطوط جزيرة مالطا، فأقلع. تسلّل إلى جراب قديم مدسوس في صندوق مهمل في زاوية إحدى ديار قصر البستان. استخرج من الجراب صرّة مريبة. ذهب إلى المرآة. فتح الصرّة وتناول منها عوداً ومسحوقاً كئيباً. غمر العود في المسحوق. رسم بالعود الملوّث بالمسحوق على وجهه رسوماً. رسم بعناية. رسم على الذقن أوّلاً. ثم على الجبين، فتبدّت الخطوط وشماً حقيقيّاً لا يختلف عن الوشم الذي يراه أهل الحاضرة على وجوه نساء البدو. عاد على عقبيه. تناول من الجراب مكحلة حقيقية. رسم بالكحل رموش عينيه. ثم حاجبيه. تفقّد وجهه في المرآة مليّاً. ابتسم. عاد إلى الصندوق في الركن. تناول من الصندوق فستاناً فضفاضاً ولحافاً داكن اللّون. ارتدى الفستان ثم تفحّص نفسه في المرآة مليّاً. ارتدى فوق الفستان اللحاف أيضاً. عاد على عقبيه. استخرج من الصندوق كيساً منسوجاً من قماش غريب اللّون. استخرج من الكيس خِماراً أسود اللون معفّراً بالغبار. نفض عنه الغبار ثم تحسّسه بأنفه. خيّل له أن عبير للاّ زنوبيا ما زال ينبعث منه. آهٍ، للاّ زنوبيا، ثم آهٍ! المرحوم حسن بك لا يدري أنّك أحد أسباب مصرعه ولن يكتب له بعد اليوم أن يدري برغم أنّك كنتِ بلا شكّ فضيلته الوحيدة. علاقته بكِ كانت بطولته الوحيدة. الرجال مخلوقات بلهاء يذهبون ليتخذوا لأنفسهم عشيقات ليُحسدوا عليهنّ إلى

حدّ يلقون فيه حتوفهم دون أن يدروا السبب. يتخذون تدابير تقيهم شرّ رجال معشوقاتهم وينسون أن الحسّاد أخطر على حياتهم من أزواجهنّ. ينسون أن الرجال الحقيقيين لا يحسدون رجالاً كما يحسدونهم على امتلاك قلب حسناء. أو فلنقل مخدع حسناء. ها ـ ها ـ ها.. مخدع الحسناء تعبير أفضل. ولهذا السبب كثيراً ما يتعرّضون للطعنات في ظلمات أحد الشوارع دون أن يعرفوا سرّ العدوان. أو يُقرعون على أرجلهم بالفلقة بيد من هو أقوى منهم سلطاناً. أو يُزجّ بهم في غياهب السجون دون أن يعلموا التهمة. أو يطردوا إلى المنافي بين يوم وليلة. تتنزّل على رؤوسهم الغبيّة كل هذه البلايا دون أن يلتفتوا إلى المرأة التي عادةً ما تشيح عنهم بوجهها لتلقي بقوامها الخرافي في مخدع العدوّ، أو فلنقل الغريم الخفيّ. أو تتجاهل مصيرهم فلا تعود تذكرهم في أحسن الأحوال.

هذا هو حال الرجال مع المعشوقات الحسان في مختلف الأزمان. وهكذا كان حالها مع المرحوم حسن أيضاً.

لقد لمّح لشقيقه بسلطان هذه المرأة على قلوب أكابر المملكة فانتهره حسن بك بخشونة. ما زالت العبارة التي انتهره بها تطنّ في أذنيه: «استحِ أيها الولد!». لم يدرِ يومها أن هذه الجنيّة يمكن أن تكون معشوقة البك أيضاً كما كانت عشيقة فرسان كثيرين كما أخبره أهل الفضول فيما بعد. ولكن الإهانة استقرّت في قلبه كطعنة سكّين. ولم يكن ليستشعر مرارة الإهانة لو لم يرجمه البك بعبارته بحضور جمع من

نساء المملكة. لم تكن تلك أوّل إهانة تلقّاها من البك كما لم تكن آخر إهانة. ولكنها كانت إحدى الإهانات التي لم ينسها له على كل حال.

وها هو خمار تلك الليلة التي خرج فيها من حفلة الحاج عبد الرحمن يفوح بعطور ملكة جمال طرابلس الخرافية. خرج برفقتها في تلك الليلة لينجو من الفضيحة بعدما شاع أمر وجوده بين نساء الحريم متنكّراً في ثياب إحداهنّ، ليجد نفسه في ملكوت النعيم بعد ساعة ـ ها ـ ها ـ ها..

تلك الليلة أثلجت صدره قليلاً برغم أنها لم تفلح في مداواة جرحه إلى النهاية. ربّما لأنه قد صمّم قبلها بوقت طويل أن يداوي جرحه بالوسيلة الوحيدة الأحسن: بالدّم!

والآن بعد أن اكتمل القناع لم يبقَ إلاّ الدخول في جوف الهودج والانطلاق إلى القلعة للدخول على الأرملة. فليفسح اليوم العسس الطريق، وليشرّعوا أمام الهودج البوّابة، لأن صديقة للأعويشة البدوية أقبلت من سهول «الجفارة» حاملةً في عبّها بشارة!

**9**

في اليوم التالي كان سيدي يوسف يجالس شيخه الفطيسي في بستان المنشية ليضحك ملء شدقيه قائلاً:

ـ أعطيتها تعويذة! لم يكلفني الأمر سوى تميمة صغيرة محشورة في صرّة حقيرة. ها ـ ها..

كان الشيخ الفطيسي يتطلّع إليه ويبتسم. قال:

ـ ولكنّها تميمة كانت كافية لتجعل الوليد يلفظ أنفاسه في الحال!

ثم مال نحو جليسه ليسأل بلؤم:

ـ من أين لك بهذا الطلسم يا شقيّ؟

ـ عُقار مستحضر من عشبة بريّة اشتريتها من أحد لصوص سهل الجفارة. ألا ترى أنها أنبل مفعولاً من استخدام اليدين؟

تجهّم الشيخ. قال:

ـ استخدام العُقار بدل اليدين ليس بالأمر الذي يفرحني!

توقّف سيدي يوسف عن هَرَجه. تساءل:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن هذا لن يعني إلاّ فشلك في قتل الوسوسة التي تسمّونها ضميراً!

سكت. أضاف:

ـ من أراد أن ينال سلطاناً على الناس لا يجب عليه أن يشمئزّ من مدّ يده ليخنق طفلاً!

سكت سيدي يوسف لحظة. قال بخيبة أمل:

ـ أليست العِبْرة بالنتيجة يا شيخنا؟

ـ في حالٍ نطلبُ فيه السلطان العبرة بالوسيلة قبل أن تكون بالنتيجة. إذا لم يتألّق في يدك نصل القوّة في طريقك لنيل السلطان فلن تفلح في إخضاع أحد! أمْ أنك نسيت الآية القائلة: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة»؟

ـ ولكن الخوض في دماء الأطفال عمل لا يُحتمل!

احتجّ الشيخ:

ـ عمل لا يُحتمل؟ وهل الهزيمة عمل يُحتمل؟

ـ لا أعرف لماذا يجب علينا أن نستخدم الأيدي إذا كان بالإمكان استبدالها بالدّهاء!؟

ـ لا يتوجّب أن نستخدم الأيدي إرواء للظمأ إلى الدماء، ولكن لذرّ الرماد في عيون قومٍ يرونه للمهابة شرطاً!

هبّ سيدي يوسف واقفاً. قال بلهجة من قرّر أن يضع حدّاً للجدل:

ـ انتهينا من هذه العقبة. فلنقلب الآن صفحة الكتاب!

ولكن الشيخ حاجج بعناد طفولي:

ـ كلاّ، كلاّ. لا يجب أن نقلب صفحة الكتاب. أنت اليوم لست يوسف الإنسان. أنت منذ اليوم يوسف السلطان. انظر كم من القبائل تلتفّ حولك. بإشارة منك يستطيع هؤلاء الرجال أن يدكّوا القلعة دكّاً لينتهبوا لك العرش انتهاباً لاهبةً، أو فلنقل حسنةً، كما شاء لك العجوز المشلول القابع في القصر!

## 10

عقب الانتهاء من مراسم تنصيبه بكّاً على المملكة بأيام اختلى سيدي أحمد بقرينته في المساء ليسرّ لها بندمه على قبول المنصب. تمدّد على الأريكة بإعياء ليتمتم:

ـ أيام كأنها دهر!

دلّكت له قدميه صامتةً. أضاف:

ـ أعترف لكِ اليوم بأني أخطأت!

لم تنبس. همس:

ـ إذا مسّك في هذا المعتقل يوماً سوء، أو مسّ أطفالك، فأنا المذنب!

سكت لحظات قبل أن يضيف:

ـ أنا منذ اليوم دمية!

مضت في تدليك قدميه. مضت تتكلّم بيديها. تجيب بأناملها. تستنطق أعضاءها بدل لسانها لتقول له حُبّاً. قال:

ـ هل تتصوّرين أن الباشا أمرني اليوم أن أخرج لاستقباله عند الأسوار؟

ساد صمت. ولكن راحتي كفّيها لم تصمتا. راحة الكفّ تكلمت نيابةً عنها. مضى القرين:

ـ لم يحدث أن تنازل المرحوم لاستقبال حتّى أمير إمبراطورية مراكش خارج الأسوار!

في الخارج عوى ريح الشمال. بعد قليل صفعت قطرات المطر زجاج النافذة. أنصت لوسوسة الطبيعة لحظات ليكتشف أنه اغترب. فمنذ متى لم يسمع وشوشة الريح في أغصان الحقول؟ منذ متى لم تسقط فوق رأسه قطرة مطر؟ منذ متى لم يشيّع رأسه إلى أعلى ليرنو إلى

الشمس؟ منذ متى لم يتسكع في العراء وحيداً؟ منذ متى لم يتطلّع حتى إلى البحر الذي يجثم تحت قدميه؟

كان البلل ينزّ من مقلتيه حارّاً كالجمر ليتسلّل إلى أسفل ليجري على وجنتيه بطيئاً حارقاً كلسانٍ من نار.

قال:

ـ العجوز لا يريد إذلالي وحدي على ما يبدو، ولكنه يصرّ أن يزجّ بالقصر كلّه في الوحل. لقد أمر للاّ حلّومة أن تستقبل قابيل هذا الزمان هاشّة باشّةً في البيت نفسه الذي زهق فيه روح ابنها هابيل!

ساد صمت. ولكن هسيس الريح في الخارج تكلم بلحن الأبدية التي لا تبالي. في دبيب اليدين على الجسد عبّر قلب المرأة عن العشق الخالد، برغم أن مقلة العين كانت تطفح أيضاً ببللٍ موجع.

قال القرين:

ـ لقد سألتيني عن هويّة ذلك الشيخ الفظيع الذي يقال أنه وراء كل الفظائع التي اقترفها سيدي يوسف في حقّ المملكة، واعترف لكِ بأني لم أصدق في البداية ما سمعت لو لم يجمع على حقيقته كلّ الأئمّة!

أنصت لمعزوفة الأمّ الكبرى على زجاج النافذة لحظات.

أضاف:

ـ قيل أنه مخلوق مريب تلقّاه «قابيل» هديةً من أمير «فزان». وهو سليل رجل طرده الفرنجة من بلاد الأندلس منذ قرون ليشترك في غزو

الصحراء مع شراذم الغزاة الذين اقتحموها في تلك الآونة طمعاً في كنوز الذهب. ولم يهنأ لهم بال حتى استوطنوا ليؤسسوا في رحابها المدينة المعروفة اليوم باسم «مرزك» بعد أن اتخذوها عاصمة لملكهم. فكان «شلم» الملقّب بـ«لون اللّعنة» سلفاً لهذا الفطيسي الذي نشر الخراب في تلك الأنحاء هو وسلالته من بعده، وها هو يفيض بشروره على الشمال في شخص خلفه هذا لينال على يديه نصيبه من الشرور أيضاً!

في الخارج عاد الريح يعوي بعنف. على زجاج النافذة تمادت قطرات المطر. من مآقي المرأة المنكّبة على بدن حميمها فزّ البلل أيضاً.

قال القرين:

ـ يقال أن أخلاف هذه الملّة قرّروا أن يستولوا على السلطان في السواحل بعد أن كانوا بطانةً لحكّام الجنوب ليحكموا تلك البلاد من وراء حجاب طوال قرون!

في الخارج اشتدّت غضبة الطبيعة: علا في البنيان عواء الريح. ضجّت النوافذ بصفعات المطر. قعقع الرعد لأوّل مرّة.

## 11

قام الباشا باستدعاء سيدي يوسف للعودة إلى القلعة. ولكن سيدي يوسف رفض العرض. لم يكتف بالرفض ولكنه قام في مقابل ذلك باستدعاء عائلته من القلعة لتقيم معه في قصر الباشا بالمنشية. ثم تفرّغ بعدها لاستقطاب قبائل الدواخل. طاف سهل الجفارة ومسلاّته

وجبل نفوسة قبل أن يعود في أحد الأيام ليجد بالبستان قنصل البندقية في انتظاره.

كان رجلاً قصير القامة، يميل إلى البدانة، مستدير الوجه، بعينين زرقاوين، وأنف ضئيل. على جبينه تنسدل خُصيلات من شعرٍ أشقر فتبدو سحنته (ربما بسبب هذه الشعيرات) طفولية.

اختلى به في البستان في نهارٍ سطعت فيه الشمس بعد احتجاب دام يومين. تبادلا عبارات الترحيب. ولكن عبارات الترحيب استنفذت فسكتا يتطلّع كل منهما نحو الآخر بحرج. فسيدي يوسف تجنّب قناصل الدول الأجنبية دائماً. ربّما بسبب شكوك غير مبرّرة، لأنه اعتبرهم حلفاء لخصمه المرحوم دائماً. وذهبت به الظنون مرّة إلى حدّ عبّر فيه لقنصل فرنسا عن استيائه بسبب شائعة تقول أن هذا القنصل حذّر الباشا من شهوة سيدي يوسف لسفك الدماء التي لا بدّ أن تقود يوماً إلى كارثة إذا لم يتخذ الباشا تدبيراً. ولكن القنصل ابتسم بغموض يومها وأحجم عن التعليق ممّا ضاعف من شكوكه إزاء أفراد هذه الملّة الذين لم يرَ فيهم سوى حفنة جواسيس. فماذا في جعبة هذا البندقي يا ترى؟

لم يدم الصمت المزموم طويلاً. فقد تكلّم القنصل في اللحظة التي همّ فيها سيدي يوسف بالاستفسار عن بُغيته.

تكلّم فسمع في صوته نبرة أنثى:

ـ الحقّ أني أخشى أن تسيء بي الظنون فيما لو أخبرتك بأني جئتك مستجيراً!

حدجه سيدي يوسف بدهشة. تساءل:

- هل قلتَ أنّك جئتني مستجيراً؟

- بلى!

- كيف تريدني أن أفهم هذه العبارة؟

طأطأ القنصل. لاحظ سيدي يوسف على وجنتبه سحابة شحوب. قال القنصل:

- أعرف أن هذا سوف يدهشك، لأن الناس اعتادت أن تستجير بالقناصل. أمّا أن يذهب القناصل للاستجارة بأهل السلطان في دولة يمثلون فيها بلادهم، فهذا هو الجديد!

أنصت سيدي يوسف باهتمام. تمتم بعد لحظات غياب:

- هذا جديد حقّاً!

أضاف القنصل:

- الحقّ أني أريدك أن تجيبني على سؤال قبل أن أحاول فكّ طلسم هذه الأحجية!

أومأ سيدي يوسف بعمامته فتكلّم القنصل:

- لو لجأ لسعادة الأمير إنسان مطارد، ثم عجز الأمير عن إجارته لسببٍ مّا، أفلا يلجأ به الأمير إلى حرم الإنسان الذي لا يأتيه الباطل لا من أمامه ولا من خلفه؟

استمع سيدي يوسف بسيماء لم تخلُ من دهشة. ثم تساءل:

- الحقّ أني لم أفهم.

ـ لو افترضنا أن هذا حدث أثناء نزاع سعادتكم مع سعادة شقيقكم الفقيد الذي نعلم أنه يملك على الناس سلطاناً بحكم منصبه كبك في هذه المملكة: ألن يحتكم جنابكم الكريم وقتها إلى حرم سعادة الباشا لينصفكم ويجير المستجير بكم!

ابتسم سيدي يوسف. هلّل أخيراً:

ـ فهمت، فهمت. الحقّ أن ما افترض سعادتكم حدوثه منذ قليل كان قد حدث يوماً بالفعل!

ـ يسعدني أن أسمع هذا!

ـ ولكن اسمحوا لي أيضاً بسؤال.

ـ بكل سرور!

ـ ماذا سيكون موقفي فيما لو اكتشفت أن الإنسان الذي استجار بي إنما هو مخلوق لم يفرّ إلاّ من وجه الباشا نفسه الذي عليّ أن ألتجىء إلى حرمه لأشفع له؟

سكت القنصل. شيّع رأسه إلى أعلى. رنا إلى الحقول المغمورة بأشعة الشمس. عاد فطأطأ قبل أن يجيب:

ـ في ناموس الإنسان الذي آمن بالإجارة كواجب ربوبيّ هذا لن يغيّر من الأمر شيئاً. بل اسمحوا لي، يا سعادة الأمير، أن أقول أن الاستجارة لن تكون أصيلة ما لم تكن فداء!

استغرب سيدي يوسف:

ـ فداء؟!

ـ بلى. فداء! ألم يُجرِ شاعركم السموأل ذريّة امرىء القيس ورفض أن يتخلّى عنها لعدوّه حتى بعد أن نحر ابنته (أو ابنه لا أذكر) أمام عينيه وهو يشاهد هذا القربان من عليائه في الحصن؟

كان سيدي يوسف يتطلّع إلى القنصل ويبتسم. قال أخيراً:

ـ يسعدني أن أسمع أخبار قدماء العرب من شفتي ابن النصارى!

ـ الواجب يقتضي أن نعرف تاريخ الأمّة التي نمثّل أوطاننا في ربوعها!

ـ هل تحفظ أشعار العرب أيضاً؟

لم يجب القنصل على السؤال. كان يفرّك يديه غائباً، كأنه يعاند فكرة أو يدبّر أمراً. قال:

ـ لو لم يقم السموأل بتلك البطولة لما ضرب به القدماء المثل في الوفاء، ولما سار بسيرته الزمان حتى تكلم بتضحيته الحكماء في بلدان النصارى!

عاد السكون يهيمن على المكان. في أحراش البرتقال زقزقت العصافير. في أعالي أشجار النخيل انطلق هديل الحمام.

قال سيدي يوسف:

ـ حسناً! أشكر سعادة القنصل على البلاغ. وأريد أن أنقل لسعادته بأني قرأت الرسالة!

شيّع إليه القنصل رأسه. نظر في عينيه لأوّل مرّة. تبادلا نظرة طويلة، غامضة، قبل أن تتبدّى في عيني سيدي يوسف بسمة ماكرة. تمتم بصوت مكتوم كأنه يدلي بسرّ:

ـ فطّومة جارية للاّ الكبيرة، أليس كذلك؟

أومأ القنصل برأسه إيجاباً. قال سيدي يوسف:

ـ لا أنكر أني أمرت رجالي بخنقها جزاء وقاحتها، ولكن أمري بخنقها لن يكون أعزّ عندي من شفاعة قنصل البندقية لدى المملكة الطرابلسية!

هبّ واقفاً. خاطب القنصل قائلاً:

ـ لا أهب سعادتكم دمها فحسب، ولكني لا أملك إلاّ أن أعبّر لكم عن امتناني لأنكم أنتم من أجارني اليوم لا أنا من أجاركم!

## 12

في إحدى الأماسي علا هرج في جناح للاّ عائشة. كان سيدي محمّد قد عاد للتوّ من غزوة إلى أحضان معشوقته للاّ زنوبيا، أو هذا على الأقلّ ما أكّده لها جواسيسها الكثيرين، فما كان منها إلاّ أن رجمته بمروحة كانت في يدها قبل أن تهجم عليه كلبوءة وهي تقول:

ـ أراك ما زلتَ سادراً في تمريغ أنف بنت الباشا في التراب أيّها العلج الصقلّي الكريه!

حاول سيدي محمّد أن يتّقي جنون امرأته بكلتا يديه، فاضطرّت للاّ عائشة أن تستخدم أظافرها للنّيل منه. مزّقت ساعديه بالأظافر وجاهدت للوصول إلى خدّيه، ولكن العلج الصقلّي (كما يروق لها أن تنعته كلّما شبّ بينهما خلاف) عرف كيف يجير وجنتيه النصرانيتين من ثورات قرينته الجنونية هذه المرّة أيضاً. ولكن المرأة لم تهدأ. رجمته

بمبخرة ومرآة وبسيف مدسوس في غمده وجدته في طريقها معلّقاً على الجدار.

استطاع القرين أن يتّقي كل هذه القذائف بساعديه القويين دون أن يصيبه خدش، برغم الجراح الموجعة التي سبّبها له سبابها الظالم كما في كل مرّة!

وقفت في الركن وهي تلهث بعد أن أعيتها الوسيلة في النيْل منه في الجسد فقرّرت أن تحتكم إلى سهام اللسان لتنال فيه الروح كعادتها. قالت:

ـ لا أعرف كيف لم أستطع ترويضك كما استطاعت للاّ زكية أن تروّض علجها النابوليتاني!

لحظتها قرّر سيدي محمّد أن يترافع عن نفسه:

ـ كيف هان عليك أن تعقدي المقارنات بيني وبين ذلك الصعلوك الذي التقطه الباشا من شوارع نابولي عندما كان يحترف التسوّل قبل أن يصنع منه رجلاً؟ ألاَ ترين أن هذا يحطّ من قدركِ أنتِ لا من قدْري أنا؟

بحثت عن أداة أخرى تسكته بها. وعندما لم تجد ما ترجمه به غير قطع الأثاث صرخت في وجهه:

ـ اخرس يا مجرم! علج للاّ زكية لم يأكل لحماً بشريّاً كما فعلت أنت يوماً، كما لم يبقر بطن امرأة ليستخرج من بطنها جنيناً كما يروق لك أن تتباهى أعوام القرصنة!

شدّ الرجل شعر رأسه. صرخ كأنه ينوي أن يطلب النجدة:

ـ آه يا يسوع ما أغباني! ويلٌ للرجل إذْ يستسلم لامرأته ليحدّثها في المخدع عن خطاياه!

ثم وهو يلتفت نحوها مهدّداً:

ـ لماذا تعيّرينني بما مضى وانقضى في كلّ سوء تفاهم بيننا؟ لماذا لا أعيّرك بقيامك بافتضاض بكارتك بقطعة الجزر عندما لم تجدي رجلاً في القصر يمكنه أن يستبدل قطعة الجزر تلك بالعضلة التي خلقها الربّ للقيام بهذا العمل؟

هجمت عليه في حملة جديدة. هوت عليه بكلتا يديها. بذراعيها. بأظافرها، ولكن العلج الصقلّي اعترض هجومها بساعدين حديديين، فلم تجد حيلة تنفّس بها عن سُعارها سوى العودة لاستخدام عضلة أخرى لا تقّل فعالية عن العضلة الأخرى التي حرمتها منها الأقدار وهي اللسان:

ـ سأنزع لسانك إذا تجاسرتَ مرّة أخرى، وتذكّر أن التحرّر من البكارة بقضبان الجزر ليس عاراً في هذه القلعة منذ سَنَّ أرباب هذه البلاد الناموس الذي يحرّم على بنات الملوك الزواج من أبناء البلد!

قهقه سيدي محمّد. صاح:

ـ هذا من حظّنا نحن رجال الملل النصرانية. أنتم لا تدرون أنّنا لا نجيء إلى هذه البلاد لنعتنق الإسلام إلاّ للفوز ببنات الباشوات في المخدع! ها ـ ها..

صرخت المرأة في وجهه:

ـ اللعنة على أوّل باشا سنّ هذا الناموس الأبله! ولو لم يفعل هذا الخنثي ما فعل لفازت نساء القصر برجالٍ إذا دخلوا مخادع النساء في المساء هيهات أن يعرفن النوم حتى مطلع الفجر!

زفرت أنفاس الغضبة. أضافت:

ـ أن تبقى الأميرات عوانس إلى الأبد أفضل ألف مرّة من الاستسلام لأشباه الرجال الذين لا يحسنون في دنياهم شيئاً غير القرصنة!

ـ ها ـ ها..

ـ كم أحسد للاّ فاطمة على تبتّلها منذ فقدت رجلها!

ـ ها ـ ها.. انتظري، انتظري! فسوف آتي لها قريباً بفارسٍ من ملل ما وراء البحار!

ـ تريد أن تقول أنّك ستأتي لها بقرصان على شاكلتك من وراء البحار!

ـ ها ـ ها.. ذلك أفضل من الذبول ببطء في ظلمات هذه القلعة!

ظلّ صدر للاّ عائشة الثريّ يعلو ويهبط طوال المباراة. ولكن استخدام اللسان هَوَّن عليها المحنة قليلاً. قالت:

ـ الآن أريدك أن تخبرني لماذا تصرّ أن تمرّغ أنفي في التراب؟

تطلّع إليها القرين. ويبدو أنه اطمأنّ، لأنّه ما لبث أن جلس على الأريكة المجاورة وشرع يتفقّد يديه. قالت:

ـ لم أعد أحتمل شماتة النساء في هذه البلاد!

حدجها خلسة. قال بخبث:

ـ لرجال تلك النسوة أيضاً عشيقات!

ولكن المرأة أضافت بوجع:

ـ في آخر عشاء التقيتها فيه سخرت منّي هي أيضاً بنظرتها!

قال ببرود:

ـ اسخري منها أيضاً!

استدرك ليضيف:

ـ أعني أن النساء في الشرق يروق لهنّ أن يفخرن بكثرة عشيقات أزواجهنّ!

حدجته باستنكار. قالت:

ـ من أين لك بهذا الهراء؟

ـ لقد سمعت هذا قبل أن تطأ قدمي أرض هذه الديار.

تمتمت:

ـ أساطير!

ثم أضافت بلهجة مفاجئة:

ـ إذا لم تهجر مخدع هذه الغانية فسوف أرفع أمرى إلى الباشا!

قال سيدي محمّد ببرود:

ـ للاّ زنوبيا ليست غانية!

أضاف بعد لحظة:

ـ للاّ زنوبيا أجمل امرأة في المملكة!

ـ لو لم تكن غانية لما استبدلت الرجال كما تستبدل فساتينها! أم أنّك تنكر أنها استقبلتك في مخدعها قبل أن يجفّ التراب على قبر عشيقها البك؟

ـ أنتنّ تحسدنها على جمالها، ثمّ على ثرائها!

ـ استغرب كيف لا يحرّك ذلك التّيس سليمان البوني ساكناً وهو بهذا القذْر من الثراء!

ـ ولماذا على سيدي البوني أن يحرّك ساكناً إذا كانت هي سبب هذا الثراء؟

ـ سأشكوك إلى الباشا!

تطلّع نحوها فوجد وجهها وقد تقنّع بالبرود. قال:

ـ يروق للباشا أن يرى رجاله يتخذون العشيقات نيابةً عنه!

ـ نيابةً عنه؟

ـ بلى. الباشا لا يعشق النساء، ولكن يسعده أن يرى أعوانه يتخذون عشيقات!

التفتت نحوه بدهشة. انتهرته:

ـ ما هذا الهُراء؟

ولكنه قال جادّاً:

ـ أنتنّ لم تعرفن الباشا كأنّ هذا الرجل لم يكن لكنّ أباً يوماً!

انتصب بينهما الصمت. دام الصمت لحظات. قالت المرأة:

ـ صدقت. نحن لم نعرف الباشا يوماً!

## 13

بعد أيام كان سيدي محمّد يجلس في مكتبه بالقلعة عندما أدخل عليه العسس أسيراً!

كان رجلاً بديناً، في العقد الرابع أو الخامس من العمر، بأنف روماني، وملامح تمتزج فيها سيماء الترف الذي يميّز أكابر المدينة بسيماء أهل اللاّهوت سواء أكانوا من الملّة الوثنية التي تحترف في الصحاري العرافة أم قساوسة في أديرة النصارى.

كان الأسير شاحباً أيضاً، مقيّد اليدين بالحديد. وقد أومأ سيدي محمّد للحرس أن يفكّ قيده قبل أن يومىء له بالجلوس قبالته على الأريكة. رحّب به أخيراً قائلاً:

ـ أهلاً بالعزيز جيوفانيّ!

ولكن الأسير اكتأب قبل أن يحتجّ:

ـ أنا سليمان. سليمان البوني. إيّاك أن تناديني بجيوفاني مرة أخرى!

أطلق سيدي محمد ضحكة. ثم مضى في استفزازه:

ـ أنت جيوفاني! أنت جيوفاني بورديللو! أعرف أنّك لا تكره أن أدعوك باسم جيوفاني إلاّ لعلمك بأني سوف ألحقه بلقب بورديللو! ها ـ ها.. أنا أدْرَى الناس بك يا بورديللو! ألم نكن رفقاء؟

ـ لم نكن رفقاء فحسب، ولكن كنّا أصدقاء أيضاً إن لم أخطىء! وها أنت تكافئني على هذه الصداقة بزجّي في السجن، ولم تكتفِ بهذا ولكنك لم تتردّد في أن تأمر رجالك كي يقرعوا قدميّ بالفلقة!

أطلق سيدي محمد ضحكة عالية. سخر قائلاً:

ـ فعلت ذلك جزاء قيامك في أحد الأيام بإنقاذي من أيدي المالطيين عندما زجّوا بي في غياهب سجونهم الرديئة. أوه يا عزيزي جيوفاني أنت لا تتخيّل مدى فظاعة سجون هؤلاء الأوباش!

ـ يسعدني أنك لم تنسَ إحساني برغم أنّك لم تتردّد في إنكار هذا الإحسان دوماً!

ـ لا بدّ أن أفعل ذلك يا عزيزي جيوفاني. إذا لم أنكر إحسان صديقي فلن أبرهن لنفسي بأنّي إنسان!

ابتسم البوني بسمة استهزاء. قال:

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول بهذا. ما أعرفه أنّك غريب الأطوار!

ـ الإنسان إنسان بنكران الإحسان يا عزيزي جيوفاني. هل هذه أحجية؟

ـ صدقت. هذه لم تعد أحجية منذ برهنتَ عليها.

ـ لقد برهنتُ عليها عامداً، أنت تعلم. ولكن ليس عليك أن تنكر أيضاً بأني كثيراً ما اعترفت لك بذلك الإحسان!

هزّ السجين رأسه نفياً. قال:

ـ الحقّ أني لا أذكر لك اعترافاً بإحسان!

ـ ها أنت تنكر الإحسان أيضاً! ها أنت تنضمّ لقافلة أصحاب الإنكار أيها العزيز جيوفاني. لو كنتَ وفيّاً حقّاً لاعترفت بأني أحسنت لك مرّتين.

ـ مرّتين؟

ـ أجل، أجل. مرتين اثنتين. مرّة بتسهيلاتي التجارية التي صارت فيما بعد ركناً من أركان ثرائك، أمّا المرّة الأخرى..

سكت سيدي محمّد لحظة. حدج جليسه بغموض. أضاف:

ـ أجد حرجاً في تذكيرك بالمرّة الثانية، أَفَلا أعتنني؟

رفع إليه السجين رأسه فتبدّى أنفه المعقوف قانياً في حمرته.

رمق رفيقه القديم بنظرة عميقة قبل أن يقول:

ـ الحقّ أنّي لا أذكر لك مرّة أخرى.

ـ أرأيت؟ أنت أيضاً عضو في محفل نكران الإحسان! هذه شهادة بأنّك إنسان. يسعدني حقّاً ألاّ تخيّب ظنّي أيها العزيز جيوفاني!

ـ آمل أن تكفّ عن ترديد اسم جيوفاني هذا!

ـ ها ـ ها.. لقد قلت جيوفاني ولكن لم ألحقه بلقب بورديللو الكريه! لا أعرف كيف يمكن لإنسان في الدنيا أن يحمل لقب بورديللو!

حشرج البوني:

ـ لا تمعن في إذلالي أكثر مما فعلت!

ـ وهل إذلال أن أقول أني أسديت لك معروفاً يوم أنقذتُ شرفك؟!

ـ أنقذتَ شرفي؟

ـ بلى. أنقذتُ شرفك لأني حِلْتُ دون تنقّل امرأتك بين أحضان الرجال!

قال البوني بلهجة استخفاف:

ـ هل هذا إحسانك الثاني الذي تتحدّث عنه؟

ـ بالطبع هذا إحساني الثاني. ألا تدري أنها كانت ستتحوّل مومساً حقيقية فيما لو تركتُ لها الحبل على الغارب؟

ابتسم الجليس بحزن، فأضاف سيدي محمّد:

ـ وبدل أن تشكرني على هذا الإحسان ذهبتَ تشكوني إلى الباشا مرّة، وعندما أخفق المسعى لجأت للدسيسة!

ـ الدسيسة؟

ـ بلى. الدسيسة. ألم تبعث برسولٍ إلى للاّ عائشة لتحريضها ضدّي؟

رفع البوني رأسه إلى صديقه القديم، ولكنه طأطأ باستحياء. لحظتها تبدّت الغضون تحت جفنيه أخاديداً عميقة فاستشعر سيدي محمّد نحوه شفقة. قال البوني بنبرة كأنها اللامبالاة:

ـ للاّ عائشة ليست في حاجة لرسول لتعرف حقيقة علاقة تجري على كل لسان!

ـ قد تجري العلاقة على كلّ لسان، ولكن الطرف المخدوع دائماً هو آخر من يعلم!

ـ ظننت أن هذا قد يصْدُق على الزوج المخدوع لا الزوجة المخدوعة!

ـ ما يصدق على الزوج في هذه الحال يصدق على الزوجة أيضاً.

تبسّم البوني باستخفاف. أضاف:

ـ أنت تجهل أن للمرأة في هذا المجال جاسوس لا يخطىء!

ـ جاسوس لا يخطىء؟

ـ بلى. الحدس!

هبّ سيدي محمد من مقعده واقفاً. توعّد:

ـ هل تريد أن تقنعني بأن للاّ عائشة عرفت علاقتي بللاّ زنوبيا بطريق الحدس؟!

ـ أنا على يقين. المرأة عن المرأة لا تُخفى!

ثم أضاف سريعاً:

ـ وحتّى لو افترضنا أني سرّبتُ لها رسالة فإن من حقّي أن أفعل، لأني لا أفعل ذلك انتقاماً منك، ولكن إنقاذاً لشرفي!

تهكّم سيدي محمّد:

ـ إنقاذاً لشرفك؟ تحاول أن تنتزعها من منقذها ثم تقول أنّك فعلت ما فعلت إنقاذاً لشرفك؟

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول بهذا.

ـ أنت لا تستطيع أن تتصوّر إلى أيّ درك تستطيع امرأة مستهترة أن تنحطّ فيما لو لم يعترض سبيلها الرجل الأقوى إرادة!

ـ هل ينقذها، في رأيك، صاحب الإرادة الذي تتحدّث عنه إذا كان هذا الرجل لا يعيدها إلى رجلها بقوّة الإرادة، ولكنه يجرّها إلى مخدعه؟

تضاحك سيدي محمّد وهو يذرع البلاط ذهاباً وإيّاباً. قال:

ـ ألا يعدّ مخدع الرجل الواحد صوناً لها في مقابل مخادع عشرة رجال؟

ـ للاّ زنوبيا لم تتنقّل بين مخادع عشرة رجال!

ـ أقسم لك أنها كانت على وشك أن تفعل لو لم أهرع إلى نجدتها! أم أنك تجهل أن استهتارها كاد يحقّق لها رقماً لا يقلّ كثيراً عن هذا الرقم؟

بعدها هيمن بين الخصمين صمت. كان سيدي محمّد يتمشّى ذهاباً وإياباً عاقداً يديه وراء ظهره، فيما كان سجينه يجلس على الأريكة واجماً. قال في نهاية المطاف:

ـ في جعبتي عرض لك!

تساءل السجّان بفضول:

ـ عرض؟

ـ بلى. في معجم التجارة نسمّي ذلك عرضاً.

سكت لحظة. أضاف فجأة:

ـ لقد قررت أن أتنازل لك عنها نهائيّاً!

ساد صمت. توقّف السجّان عن الحركة. تساءل بعد لحظة:

ـ كيف تريدني أن أفهم هذا العرض؟

ـ أريدك أن تفهمه كما يجب أن يُفهم.

ـ هل تعني أنك ستطلّقها؟

هزّ السجين رأسه بالإيجاب. رمقه السجّان بفضول أشدّ.

كان السجين يبتسم بغموض، في حين تبدّت في سيماء السجّان بلبلة. قال:

ـ تتنازل لي عن للاّ زنوبيا بتطليقها؟ كلاّ، كلاّ. هذه حيلة منك يا جيوفاني! هذا خبث منك أيها الثعلب! أعرف أنّك تقدّمت بمثل هذا العرض للمرحوم حسن بك يوماً، ولكنه رفض عرضك. أنا الآن أرفض أيضاً هذا العرض. لن أرفضه فحسب، ولكني سأضطرّ لقرع رجليك القذرتين بصنوف الفلقة عقاباً لك على هذا العرض!

احتجّ السجين:

ـ وهل يُعاقب الإنسان على حسن نواياه؟

ـ حُسن نواياك؟ هل تسمّي حسن نوايا أن تتنازل لي عن امرأة سيئة السمعة بتطليقها؟ ألا تعلم أن العشيقة إذا طُلّقت لن تعود تصلح لا زوجةً ولا عشيقة، بل تهمة شنيعة وعار في جبين العشيق؟ هل تريد أن تخدعني يا جيوفاني الملقّب باسم بورديلّلو؟

سكت السجّان. تكلّم السجين بعد لحظة:

ـ الحقّ أنّي لا أعرف ماذا تريد منّي أن أفعل. ألا يكفيني أن أسمع كل يوم همس الخليقة وهي تلوك سيرة امرأتي الخائنة؟ ألا يكفي أن أنال على عملها قصاصاً بدل أن أنال الجزاء؟ هل تصير في رقبتي لعنة لا أجرؤ حتّى التخلّص منها؟

ـ المرأة السّوء دائماً لعنة. أم أنّك نسيت تعاليم كتابك المقدّس يا جيوفاني؟

جيوفاني لم يجب. تشبّث بالصمت زمناً قبل أن يتكلّم بلهجة يأس:

ـ ماذا تريد أخيراً؟

جلس سيدي محمّد عى مقعده. واجه سجينه بسيماء صمّاء. قال:

ـ جاء دوري الآن لتقديم العرض. وإذا شئت أن نتكلّم بلغة التجّار فلنقل أنها صفقة. يروق لي دائماً أن أستعير من معجمكم هذه اللفظة الرائعة، سيّما بعد أن اكتشفت في الأعوام الأخيرة أن كل ما نفعله في هذه الحياة ما هو إلاّ صفقة!

أطلق ضحكة قصيرة. أضاف:

ـ سأعفو عنك بشرط ألاّ تفكّر يوماً في تطليقها!

انكبّ البوني غائباً، فأضاف السجّان:

ـ ليس هذا فحسب، ولكن عليك أن تعدني بأنّك ستبتلع، بموجب بنود هذه الصفقة، لسانك لتكفّ عن الشكوى إلى الأبد!

لم يجب البوني فأضاف سيدي محمّد:

ـ أنت تعلم أني أستطيع أن أدبّر لك المفاجأة التي ستفقدك رأسك، فاحترس!

طأطأ سيدي البوني. استنزل على وجهه قناع الكهنوت الذي اعتاد أن يتحصّن به كلما أبرم صفقة، في حين قرع السجّان الجرس لاستدعاء الحرس. قال:

ـ الآن ستعود إلى القبو يا جيوفاني لتحسن التفكير في الصفقة. آمل أن تكون الفلقة لك عوناً موفّقاً!

خرج الحرس بالسجين ومكث سيدي محمّد في مكتبه وحيداً. أغمض عينيه ليسترخي فتراءت له للاّ زنوبيا عاريةً. يا ربّي ما أجمل هذه المرأة! ما أعظم قدرتها على ابتداع فنون الغرام! البوني لا يستحق السجن فقط، أو قرع قدميه بالفلقة عقاباً له على فوزه بهذه المرأة، ولكنه يستحقّ قطع الرأس وتعليقه على باب زنّاتة قصاصاً له على استيلائه على هذا الكنز. لقد حَسَد يوماً حسن بك على اختطافها منه فمكث في الفراش صريع المرض. لقد فكّر مراراً في حيلة للتخلّص من البك. ويوم تولّى سيدي يوسف الأمر نيابةً عنه هلّل كما لم يهلّل أحد. والحقّ أنه توقّع أن يفعل سيدي يوسف ذلك لأنه الوحيد الذي عرف أن هذه الجنيّة استطاعت أن تسرق قلب سيدي يوسف أيضاً. آه، زنوبيا، زنوبيا. ما أنتِ إلاّ الفردوس الذي أخرجنا، نحن سلالة آدم، من الفردوس! أنتِ الفردوس الذي تبدو إلى جانبه بنات الملوك جحيماً! بلى، بلى. بنات الباشا سعالي حقيقية إذا قورنت بحسن ربّة الحُسْن زنوبيا!

أيقظه من رحلته صخب مفاجىء. هرج عنيف في الممرّ. وقبل أن تمتد يده لتقرع الجرس اقتحم المكتب أحد الأعوان. في عينيه رأى فزعاً. فزّ واقفاً فتكلّم الرجل:

ـ فرّ سيدي البوني!

هتف في وجهه:

ـ ماذا تقول؟

أجاب صاحب العون:

ـ قتل الحارس وهرب إلى المنشيّة!

تعجّب سيدي محمّد:

ـ هرب إلى المنشية؟

تردّد الضابط لحظة قبل أن يجيب:

ـ التحق بفريق سيدي يوسف يا سيّدي!

## 14

خرج البِك لمقابلة سيدي يوسف في المنشيّة في كوكبة من فرسان الحرس. ولكن سيدي يوسف اعترضه عند أطراف الضاحية بجيش حقيقيّ سدّ كل الطرق المؤدية إلى الحقول. انتظر بفرسانه دقائق قبل أن يبرز من صفوف ذلك الجيش فارس ملثّم هرجل بفرسه بحذر حتى توقّف على بُعْد خطوات. ترجّل عن الدّابّة وتقدّم من البك ليقول:

ـ سيدي يوسف يشترط دخولك وحيداً!

تعجّب البك:

ـ وهل نحن في حالة حرب حتى يضع سيدي يوسف الشروط لدخولي واحة المنشية؟

لم يجب الرسول فأضاف البك:

ـ قل له أنه ليس مضطرّاً لحشد الجيوش في وجهي لأني لم أقبل عليه مصحوباً إلاّ بحرسي!

ولكن الرجل المعمّم بذلك الوشاح الأسود تبدّى في ذلك الصباح شبحاً، بل غراباً من غربان البَيْن، فلم يجب. قال البك:

ـ قل له أني جئت لإبلاغه رسالة!

لم ينبس غراب البين برغم أنه اقترب خطوة. أوضح البك:

ـ جئت لأسرّ له بأمر يتعلق بالعائلة.

تكلّم الرسول:

ـ أستطيع أن أتولّى إبلاغه بالأمر، فأنا هنا رسوله!

ـ لقد قلت أنه أمرٌ يتعلّق بالعائلة.

ـ عائلة سيدي يوسف إلى جواره في البستان!

ـ في القلعة ترك أمّه. ترك أخواته. ترك أباه. أم أنه يرى أن هؤلاء لم يعودوا له عائلة؟

اقترب الرسول خطوة أخرى. مدّ يده وكشف عن وجهه.

قال بصوت مريب:

ـ لقد قلت لك أني رسوله!

هتف البك:

ـ أنت!

ـ بلى. هذا أنا، سليمان البوني!

قال البك بخيبة:

ـ آخر من توقعت أن ألقاه هنا هو أنت!

ـ هذه خطيئة أهل السلطان!

ـ عن أيّ خطيئة تتحدّث؟

أعاد البوني طرف اللثام ليستر وجهه. قال:

ـ الناس إذا نالوا على الناس سلطاناً لا يتوقّعون إلاّ ما يريدون أن يتوقّعوا!

تأمّله البك مليّاً. قال:

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول.

ـ أردت أن أقول أن العماء عنوان المُلك!

ـ ولكنّي لم أنل المُلْك الذي يعميني بعد يا سيدي البوني!

ـ لقد ظننت أنّنا أصدقاء يوماً، ولكنّك خذلتني ما أن فتحت لك الأقدار السبيل إلى البكوية!

ـ لست أنا من خذلك، ولكن خيارك هو الذي خذلك!

تعجّب البوني:

ـ خياري؟

أجاب البك ببرود:

ـ امرأتك!

ثم أضاف بلهجة أخرى:

ـ لقد أخذتَ بالحُسن كأيّ أبله من بلهاء هذه الدنيا فجئت بصاحبة الحُسْن إلى مخدعك لتدفع الثمن!

ـ هل تريد أن تقنعني بأن كل من يذهب ليقترن بصاحبة حُسْن هو أبله؟!

ـ بالطبع أبله! ألم تعلم بعد أن الحسناء مثلها مثل السلطان الذي تتحدّث عنه، لأن كلاهما خطر في خطر!

ـ إذا كان السلطان أيضاً خطر فلماذا اخترته؟

ابتسم البك بازدراء. قال:

ـ لست أنا من اختار هذا الخطر، ولكن الأقدار هي التي اختارته لي!

ضحك سيدي البوني لأوّل مرّة. صاح:

ـ أنا أيضاً أستطيع أن أقول أن الأقدار هي التي اختارت لي هذا الخطر، لا أنا من اختاره!

سكت البك فتكلّم البوني:

ـ لقد توسّلتك كثيراً، ولكنّك لم تفعل شيئاً.

ـ لم أفعل شيئاً لأني الوحيد الذي لم يكن بوسعه أن يفعل في تلك القلعة شيئاً!

زفر البوني أنفاس الاستياء وهمّ بأن يقفز على صهوة جواده، ولكن البك استوقفه:

ـ أنت تعلم أن سيدي محمّد جلف! بل أنت أعلم منّي بكل مساوئه، ولكنك تعلم أيضاً مدى تمسّك الباشا بأمثاله!

توقّف البوني ليلتفت. قال:

ـ لقد وعدتني آخر مرة أن تستنجد بأستير، ولكنّك لم تفعل!

ـ لم أستنجد بأستير ليقيني بأنها لن تفعل شيئاً. هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر جواباً. أضاف:

ـ لأن عقيدة إستير الاستمتاع بسرد الفضائح في مجلس الباشا إلى حدّ أنها تتعمّد اختلاق هذه الفضائح عندما تفتقد الفضائح. وإلاّ كيف تستطيع أن تسلّي الباشا؟

رمقه البوني بنظرة غامضة قبل أن يقفز إلى مطيّته. استوقفه البك مرّة أخرى:

ـ أنت لا تدري برغم كل هذا أنّي أحسنت إليك!

استفهم البوني بنظرة فأوضح البك:

ـ لقد منعتُ نفسي من التسلّل إلى مخدع امرأتك!

تساءل البوني وهو يتشبّث بزمام الفرس:

ـ وهل تسمّي ذلك إحساناً؟

تكلّم البك بحماس مفاجىء:

ـ بلى. ذلك كان منّي إحساناً. أنت لا تعرف كم كلّفني ذلك!

تبادلا نظرة طويلة. قال البوني:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريدك أن تقنع سيدي يوسف باللّقاء!

تردّد البوني فأضاف البك برجاء:

ـ إفعل ذلك حقناً للدّماء!

لاحت في عيني البوني سيماء اللّين لأوّل مرّة. قال:

ـ حسناً. سأفعل كل ما بوسعي لإقناع سيدي يوسف لا إكباراً لك، ولكن بموجب صفقة!

ردّد البك:

ـ صفقة؟

ـ إقناع سيدي يوسف مقابل إبلاغ سيدي محمّد وصيّتي!

ابتسم البك. قال البوني:

ـ قل له أن مريد النساء ليس عليه أن يهنأ بالاً، لأن مخدع الحسناء يحرسه التنّين!

استعجب البك:

ـ مخدع الحسناء يحرسه التنّين!

ولكن سيدي البوني لم يجب. لكز فرسه وانطلق.

## 15

أقبل عليه سيدي يوسف في صفّين من جيشين مدجّجين بمختلف الأسلحة محاطاً ببطانة من الأعوان. جاء ممتطياً صهوة جواد أبلق. على يمينه سار الشيخ الفطيسي راجلاً، على يساره مشى البوني راجلاً أيضاً.

فوق الحقول سطعت شمس الضّحى في سماء عارية من السحاب. في الفضاء سكن الهواء أيضاً.

ترجّل البك عن جواده، ولكن سيدي يوسف لم يترجّل. تساءل البك بعد وجومٍ لم يدم طويلاً:

ـ هل تستطيع أن تفسّر لي ما معنى هذا؟

انحنى سيدي يوسف على جواده إلى الأمام قبل أن يجيب:

ـ هذه ترجمة لوصيّة سمعتها من شفتيك يوماً تقول: «لا تثق بأحد!».

تبادلا نظرة طويلة. قال البك:

ـ ظننتُ أنّنا اتّفقنا!

ـ الحذر لا يضير اتّفاقاً!

ـ لم أرتدِ حلّة البكوية هذه إلا بموافقتك!

ـ موافقتي على فوزك بالبكوية دليل على حسن نواياي، لا نواياك!

غزا وجنتي البك شحوب. طاف وجوه الرجال كأنه يبحث عن نجدة. تساءل بلهجة استنكار:

ـ هل تشكّك في نواياي؟

أجاب سيدي يوسف ببرود:

ـ الحذر لا يضير!

ـ ماذا فعلتُ حتّى تشكّ في أمري؟

ـ لقد قلتُ لك أن تدابيري ليست موجّهة ضدّ أحد!

شدّ البك على لجام جواده فانتفضت الدّابة برأسها إلى أعلى. زعزعت انتفاضتها بدن البك فارتجّ. هرع أحد العسس فتناول من يده الزمام. استنكر البك:

ـ تحشد في وجهي جيشاً كأنّنا في حالة حرب ثم تتشدّق قائلاً أن تدابيرك ليست موجّهة ضدّ أحد؟

ابتسم سيدي يوسف بغموض فأضاف البك:

ـ لقد أوضحتُ لك بأنّي لا أنوي أن أرتدي حلّة البكوية إذا كان

ذلك سيكون سبباً في إراقة الدّم. وهو ما يعني أنّي تنازلتُ لك عنها طائعاً، فما الدّاعي لحشد الجيوش في وجهي اليوم؟

ـ أنت تنسى أنّي إنسان مطارد!

حدج شقيقه بخبث قبل أن يضيف:

ـ أم أنّك لست أنت الذي يروق له أن يطلق عليّ في بعض المجالس لقب «قابيل»؟

لعن البك في سرّه المرأة، بل وكل مِلل النساء، لأنه تذكّر أن هذا اللقب لم يجرِ على لسانه خارج المخدع!

كوّر قبضته مرّة أخرى. أجاب:

ـ أنت مطارد بالفعل، ولكنّك تعلم أنّك لستَ مطارداً منّي، أو من الباشا!

ـ ها أنت تعترف بأني مطارد، ولكنّك تنكر أني مطارد منك أو من الأب. فمن يطاردني إذاً؟

ـ لا أدري. ربّما من الأهالي!

استنكر سيدي يوسف:

ـ من الأهالي؟

ثم أضاف بنبرة استخفاف:

ـ تقول هذا وأنت تعلم أن الأهالي لن يطاردوني ما لم تطاردني أنت أو الباشا؟

ـ حسناً. أنت تعلم أيضاً أنّنا لسنا لك بأعداء!

سكت سيدي يوسف لحظة. التفت إلى الشيخ الفطيسي. سأل:

- إذا كان أهل البلاد لا يطاردون سيدي يوسف. وإذا كان أصحاب الصولجان في هذه المملكة لا يطاردون سيدي يوسف أيضاً. من يطارد سيدي يوسف إذاً؟

مسّد الشيخ الفطيسي لحيته المفلفلة براحة يده. رنا إلى الفراغ المغمور بالضياء برغم أنه لم يبصر في النور إلاّ سواد الظلمات كعادته. أجاب:

- من يستطيع أن يطارد قابيل غير ربّه؟

ابتسم سيدي يوسف. سأل:

- هل لفضيلة الشيخ أن يوضح لنا معنى الأحجية؟

حدّق الشيخ في الفراغ باحثاً في الستور عن النبوءة قبل أن يقول:

- قابيل مطارد من قِبل الأشباح التي تسكنه!

هتف سيدي يوسف:

- هل سمع بك المملكة الطرابلسية الجواب؟ قابيل مطارد من قبائل الأشباح التي تسكنه. ها - ها.. ليس لك أن تخشى قابيل لأن حرابه موجّهة ضدّ الأشباح!

ازدادت سيماء الشحوب في وجه البك. غمغم بغلّ:

- أنت تسخر منّي!

لحظتها اعتدل سيدي يوسف في سرجه. قال:

- أنا لا أسخر منك، ولكني أريدك أن تخبرني: ماذا تريد؟

سكت البك. خطا إلى الأمام فاستوقفه سيدي يوسف بإشارة من يده. نفّس عن كربته بزفرة أنفاس. قال:

ـ أريدك أن تدفع بعبدك المسمّى «غانم» إلى حَرَم المرابط!

ساد السكون لحظة. أضاف البك:

ـ الناس يرون جرمه أكبر من جرمك بعد أن تجاسر واقتحم جناح الحريم!

عاد السكون يهيمن. ولكن سيدي يوسف جلجل بضحكة خرقت السكون. قال:

ـ هل تقول أن جرم «غانم» أكبر من جرمي لأنه اقتحم جناح الحريم؟

ـ بلى. أهل المدينة يقولون أنهم لا يستطيعون أن يأمنوا حريمهم بعد فعلة «غانمك» هذا!

ـ هل أفهم من هذا أن أهل المدينة يغفرون لـ«غانمي» إجهازه على البك، ولكنهم لا يستطيعون أن يغفروا له اقتحامه لجناح الحريم؟

ـ أكابر المدينة وشيوخها يتطيّرون من انتهاك الحرمات ويرون في هذا العمل سابقة خطيرة تنذر بالنحوس. أمّا قتال الأشقّاء فهو، في رأيهم، ناموس الخليقة منذ قام قابيل وشجّ رأس أخيه هابيل!

كان سيدي يوسف يتطلّع إلى شقيقه بذهول. تساءل:

ـ هل أفهم من هذا أنّهم يقلّدونني شهادة غفران مقابل التخلّي عن أكثر عبيدي وفاءً؟

ـ إذا اعتصم بضريح المرابط فلن يمسّه سوء. أنت تعلم!

سكت سيدي يوسف. سكت البك أيضاً. تبادلا نظرة غامضة.

قال سيدي يوسف:

ـ قل لأشياخ المدينة أني أشكرهم على حسن ظنّهم بـ«قابيل»، ولكن عليهم أن يتحلّوا بالصّبر قليلاً؛ لأني لا أنوي أن أزجّ بـ«غانمي» إلى المحراب قبل أن أضع في فراشه إحدى بناتهم!

رمقه البك بدهشة. قال سيدي يوسف:

ـ غانم لا ينوي أن يدفن نفسه في ضريح المرابط قبل أن يقوم ببطولة أخرى تكمن في تحسين النسل. فهو قد ملّ ارتداء هذه القشرة السوداء ولا يريد أن ترثها عنه ذريّته من بعده. ولهذا فقد قررت أن أزوّجه علجية، فإن تعذّر ذلك فلا بأس بتركيّة، أو حتّى بطرابلسية. ها ـ ها.. الحقّ أن الطرابلسيات يحققن الغرض أيضاً. ها ـ ها.. لون بنات الأكابر يناسب ذرية هذا البطل تماماً! ها ـ ها.. قل لهم أن يعدّوا لساعدي الأيمن هذا أجمل حسانهم، فأنا آتٍ قريباً!

شيّع رأسه نحو السماء وجلجل بضحكة جنونيّة.

## 16

قالت «زهرة» تخاطب الباشا:

ـ بعد الغيبوبة لا يجب على مولانا أن يفرط في الشراب!

علّق الباشا:

ـ لا شفاء من الغيبوبة إلاّ بالغيبوبة!

تدخّلت «إستير»:

ـ ليست سكتة القلب (أو شقيقتها سكتة الدماغ) وحدها الغيبوبة، وليست جرعة الراح وحدها الغيبوبة، ولكن دنيانا كلّها ما هي إلاّ غيبوبة في غيبوبة!

كان مجلس المساء قد الْتَأَمَ حول مائدة العشاء مبكّراً. راق للباشا أن يتجرّع أقداحاً قبيل إلتآم الجلسة فراح يرقب «إستير» وهي تخوض في صنوف المأكولات مبتسماً. وكلّما تطوّعت «زهرة» بإغوائه بقطعة لحم مغرية أو بحبّة فاكهة شهيّة للنظر تطلّع إليها بحزن ليقول: «لقد أكلت نصيبي مبكّراً، ولم يبقَ لي فيما تبقّى من العمر إلاّ الصوم!».

ولكن ما أن يبصر على وجه إحداهنّ ظلاّ لكآبة حتى يستدرك بدعابة: «إستير ستأكل نيابةً عنّي!»، فتحتجّ إستير: «أنت تعلم أن حِمْلي هذا لم ينتفخ بسبب شهوتي إلى الطعوم!». تضحك «زهرة»، ولكن الباشا لا يضحك. الباشا يبتسم بحزن ليسرح بعيداً. يردّد كأنه يخاطب نفسه: «الامتناع عن اللحوم أحد أحكام الغيبوبة!». يسود في المجلس وجوم. يختلس الباشا جرعة من قدحه فتنهره زهرة: «الامتناع عن المشروب حكم آخر من أحكام الغيبوبة!». يتضاحك الجميع. يضيف الباشا: «أحكام الغيبوبة أحكام خفيّة حقّاً. وزن بدن إستير أضعاف وزن بدني، ولكن الغيبوبة تختارني أنا لتصرعني في حين تتسامح مع هذه الجنيّة!». تستجيب المرأتان بضحكة. يتساءل الباشا غائباً: «لماذا خلق الله العلل؟». تجيب إستير: «لكي يهوّن علينا قَدَر الموت!». يتأمّل

الباشا لحظة. يتخلّى عن التأمّل ليختار الدعابة. يخاطب زهرة: «اسمعي وصايا الملّة يا زهرة!». ترشف زهرة جرعة من كأسها. تلتجىء إلى ناموس ملّتها أيضاً: «في قبيلتي يقال أن الله خلق للإنسان المرض لكي يزهد في الدنيا ولا يرى في الموت بعبعاً. ولكن المرض لم يشفِ الإنسان من داء حبّ الحياة الدنيا فابتدع الشيخوخة!». يعمّ الوجوم. تعترض إستير: «لا أظنّ الشيخوخة بعبعاً يفوق المرض بأساً!». تحتجّ زهرة: «تقولين هذا لأنك لم تجرّبي الشيخوخة!». يتدخّل الباشا: «نستطيع أن نقول أن العلّة شيخوخة وقتيّة. أمّا الشيخوخة فهي العلّة الأبدية!». تهلّل زهرة: «أرأيتِ؟ أيّ الأمرين أهون: شيخوخة وقتيّة، أم العلّة الأبدية؟». ولكن «إستير» لا تستسلم: «تقولين هذا لأنك لم تجرّبي ما تسمينه الشيخوخة الوقتية. إسألي الباشا إن كنت لا تصدّقين!». يبتسم الباشا. يقول: «الشيخوخة الوقتية ميتة صغرى!». تصفّق إستير ابتهاجاً بكسب الجولة. ولكن الباشا لا يلبث أن يضيف: «لا يجب أن تلومي زهرة يا إستير، لأنها لم تجرّب الشيخوخة الوقتيّة!». تتوقّف إستير عن معاندة طعام المائدة. تهتف بلهجة من اكتشف كنزاً: «حقّاً أن أمّة الزنج لا تعرف الأمراض. لم أرَ في حياتي امرأة زنجية طريحة فراش!». يضحك الباشا. تضحك إستير من قلبها كعادتها كلّما أفلحت في جلب السعادة إلى قلب الباشا. تضيف إستير: «لماذا لا تمرضين يا زهرة؟!». تستهجن زهرة: «لا أحسبك على يقين من

وجود تمائم سحرية!». تدفع إستير بحجّتها: «ولِمَ لا؟ لم تعرف الدنيا سحراً لم يأتِ من ديار ملّتكم!». يتدخّل الباشا: «هذه نعمة المولى على ملّة زهرة. إنها أمّة لا يمرض أهلها إلاّ يوم يموتون تعويضاً لهم على معاناتهم بسبب لونهم!». يضحك الباشا قبل أن يضيف: «ليست أمّتك وحدها شعب الله المختار يا إستير. أمّة الزنج أيضاً شعب الله المختار!». تضرب إستير كفاً بكف. تهتف مرّة أخرى: «إنّهم قوم محصّنون من الأوبئة أيضاً يا مولاي. لم أعرف زنجيّاً واحداً مات بالطاعون في غزوته الأخيرة!». يبتسم الباشا. يهلّل: «صدقتِ! لم يمت لي عبد واحد من ملّة زهرة!». تضيف إستير: «ليس هذا فحسب يا مولانا. ولكنّي لم أعرف سليلاً من سلالات الزنوج لدغته عقرب أو حيّة!». صاحت زهرة: «هذا من فعل التمائم وليس من فعل الربّ. للسعات العقارب أو لدغات الأفاعي توجد التمائم!». يصفّق الباشا بيديه. تسكت المرأتان عن الهرج. يصيح الباشا منتشياً: «اكتشاف آخر أخطر من كل الاكتشافات: شيوخ الزنوج لا يعانون من أوزار ما أسميناه منذ قليل العلّة الأبدية. بلى، بلى. شيوخ الزنوج لا يشيخون، ولكنهم يسقطون فجأة ليموتوا دفعة واحدة! لقد ورث أبي عن جدّي أحمد الأكبر عبداً عاش ما يزيد على المائة والعشرين عاماً دون أن يعرف المرض يوماً. هجع يوماً لنكتشف أنه قد لفظ أنفاسه في الليل!».

تتحاجج المرأتان. تنتهي إستير إلى القول بأن هذا الاكتشاف

يجب أن يوضع بعين الاعتبار إذا شاءت الإنسانية أن تكتشف سرّ الخلود!

هكذا اعتاد هذا الثالوث أن يحتال على الوجع الخبيث الناتج عن الإحساس بالزمان في بعض الأمسيات منذ سنوات.

الليلة أيضاً حاول الثلاثة أن يستغفلوا الغول ويختلسوا أُنساً في غفلة منه، ولكن هيهات. فالحديث عن غيبوبة الأبدان أفضى إلى الحديث عن غيبوبة الدنيا. والحديث عن غيبوبة الدنيا أفضى إلى الحديث عن غيبوبة أخرى أطلق عليها الباشا في تلك الليلة اسم: «غيبوبة الذريّة». وعندما استفهمت إستير عن سليقة هذه الغيبوبة اغتمّ الباشا لحظات قبل أن يوضح:

ـ كان أبي على حقّ عندما كفر بخرافة الأبناء!

احتجّت إستير:

ـ لو لم يؤمن بجدوى الأبناء لما أنجب الأبناء!

ـ أنجب أبي الأبناء لأنه ككل الناس لم يدرك بهتان الأبناء إلاّ بعد أن أنجبهم!

تدخّلت زهرة:

ـ لو لم ننجب الأبناء لانقطع الإنسان على هذه الأرض.

لوّح الباشا بيده في الهواء قائلاً:

ـ لا تخشي أبداً انقطاع السلالة على هذه الأرض، لأن ثمّة أناس بلهاء في هذه الدنيا سوف ينجبون الأبناء نيابةً عنّا شئنا أم أبينا، لأنهم لن يجدوا ما يفعلونه إن لم يفعلوا ذلك!

ساد صمت. قالت إستير:

ـ نعم. لم يخلق الله بعض الناس إلاّ ليموّلوا دنيانا هذه بالأبناء. في حين خلق فئة أخرى لتكون للخالق خليفةً بدل الأبناء!

عقّبت زهرة بعد أن تناولت جرعة من كأسها:

ـ صدق مولانا. لولا الأبناء لما عرفتَ يوماً غيبوبة!

سألت إستير:

ـ هل تزعزع عهدهما مرّة أخرى؟

الباشا: ومتى كان بينهما عهد حتّى يتزعزع؟

زهرة: الناس يقولون أن السلام في هذه البلاد لن يعمّ ما ظلّ الباشا يعطي سيدي يوسف في السرّ ما يخلعه على البك أحمد في الظّاهر!

الباشا: الحقّ أني لا أفهم ما يمكن أن يعنيه الأوباش بكلامهم هذا!

إستير: سيدي أحمد بك بقفطان البكوية ليس إلاّ، أمّا سيدي يوسف فهو البك الحقيقي برغم أن الباشا لم يتوّجهُ بحلّة البكوية. أليس هذا ما أرادت أن تقوله زهرة؟

زهرة: لست أنا من يقول.

إستير: إذا فعل الباشا ذلك فلن يكون السبب في حبّه لسيدي يوسف على حساب سيدي أحمد، ولكنه لا بدّ أن يفعل ذلك دفاعاً عن النفس!

زهرة: ما معنى أن يفعل الباشا ذلك دفاعاً عن النفس؟!

إستير: نوايا البك لا تُخفَى على أحد!

تبادلت زهرة مع الباشا نظرة، ولكن الباشا لم يستجب لاستفهامها. أضافت إستير:

ـ إذا لم يُلجَم البك بسيدي يوسف فلن نضمن أن نجالس الباشا غداً!

تعجّبت زهرة:

ـ هل تريدين أن تقولي أن البك ينوي الاستيلاء على العرش؟

تبادلت إستير مع الباشا نظرة. تناولت كأسها. قالت:

ـ تستطيعين أن توجّهي هذا السؤال إلى مولانا!

التفتت زهرة نحو الباشا. ولكن الباشا دفن بصره في كأسه ولاذ بالصمت. أسبل جفنيه. قال:

ـ لا أعرف لماذا عليّ أن أنكر حبّي لهذا الشقيّ!

تنهّد عميقاً قبل أن يضيف:

ـ يوم نالتني الغيبوبة كان الوحيد الذي حاول أن ينتحر حزناً على مصابي!

تخابثت زهرة:

ـ يقال أنه لم يقم بتلك المحاولة إلاّ حزناً على مصابه هو!

الباشا: مصابه هو؟

زهرة: يقول الناس أنه حاول الانتحار ذرّاً للرماد في العيون.

الباشا: ما معنى أن يحاول الانتحار ذرّاً للرماد في العيون؟

زهرة: ليظهر أمام الخلق بمظهر المهدّد من قبل شقيقه المرحوم حسن بك فيما إذا لو حدث لمولانا سوء لا سمح الله.

الباشا: هراء!

إستير: زهرة لا تخفي تعاطفها مع أشقّاء سيدي يوسف.

زهرة: لست أنا من يتعاطف مع أشقّاء سيدي يوسف، ولكن أهل البلاد هم من يفعل ذلك.

إستير: يفعل ذلك الغوغاء لا أهل البلاد.

الباشا: ماذا فعل الله بـ «ميزلتوب»؟

تطلّعت المرأة إلى الباشا، ولكن الباشا أشاح بوجهه بعيداً. أجابت:

ـ مولانا يدري أن سيدي يوسف تخلّى عنها بعد عودتها من مالطا.

ساد صمت. قالت زهرة:

ـ الحبّ لا يشتعل إلاّ في البُعْد.

علّق الباشا:

ـ الحبّ يتأجّج ببليّتين: فراق أو عَقَبة.

تعجّبت إستير:

ـ هل قال مولانا «عقبة»؟

ـ إذا شئتِ أن يلتحم العاشق بمعشوقته حاولي أن تمنعي قرانهما!

قالت إستير بخيبة أمل:

ـ هذا ما لم يخطر ببالي أن أفعله!

ـ وها هو العاشق يفرّ ليرتمي في أحضان معشوقة أخرى!

عادت زهرة تتخابث:

ـ يقال أن الطاغية «زنوبيا» استسلمت له!

ضحك الباشا:

ـ أوْلَى بكِ أن تقولي في هذه الحال أن يوسف هو الذي استسلم للطاغية، لا الطاغية هي التي استسلمت له!

ـ لا أعرف لماذا لا يكتفي الرجال بامرأة واحدة!

ـ من حقّ الرجل ألاّ يكتفي بامرأة واحدة، ولكن ليس من حقّ المرأة ألاّ تكتفي برجل واحد.

ـ يروق لإستير أن تقول العكس!

ـ وما هي حجّة إستير في ذلك؟

ابتسمت إستير. تناولت من كأسها جرعتين متتاليتين. قالت:

ـ لأن شهوة المرأة تعادل تسعة أضعاف شهوة الرجل!

ضحك الباشا. ضحكت زهرة. تساءل الباشا:

ـ هل ورد هذا في أسفار العهد أيضاً؟

علّقت زهرة:

ـ من يسمعكِ تقولين هذا، ثم يرى بدنك هذا، لا بدّ أن يجزم بأنّك لا تذهبين لتنامي في المخدع إلاّ وأنتِ تتأبّطين ثلاثة فحول على الأقل!

ضحك ثلاثتهم في آنٍ معاً. قال الباشا وهو يقلّب كأسه بين يديه:

ـ الحبّ! ما هو الحبّ حقّاً؟ إنه ذلك اللغز الذي يحيا بالتخلّي، ولكنه يهلك بالامتلاك!

تأمّلت إستير:

ـ هذا يروق لي.

تساءلت زهرة:

ـ كم امرأة فازت بحبّ مولانا يا ترى؟

حدجها الباشا خلسةً. أشاح بوجهه. قال:

ـ يسعدني أن أكون الرجل الوحيد في هذه القلعة الذي يستطيع أن يتباهى بأنه لم يحبّ سوى امرأة واحدة!

استنكرت إستير:

ـ امرأة واحدة؟

هتفت زهرة:

ـ إيّاك أن تقول أنها «للاّ حلّومة»؟

ضحك الباشا:

ـ ولماذا لا أقول أنها للاّ حلّومة؟

أجابت زهرة:

ـ لأنّك قلت منذ قليل أن الحبّ يموت بالامتلاك!

قال الباشا:

ـ أجل. ذلك حبّ قتله الامتلاك، ولو لم يُقتل لما استطعتُ أن أجد من يرثه!

تساءلت المرأتان بصوت واحد:

ـ ومَنْ تلك المحظوظة التي استطاعت أن ترثه؟

تطلّع الباشا في البداية إلى زهرة، ثم إلى إستير. قال:

ـ لم ترثه امرأة واحدة، بل امرأتان!

هتفت زهرة:

ـ إيّاك يا مولانا أن تقول أن هاتين المرأتين هما: إستير وزهرة!

سكت الباشا. قال بلهجة مكر:

ـ ومن في هذه الدنيا يستطيع أن يمتلك قلب الباشا غير إستير وزهرة؟

ضحكت المرأتان طويلاً. تساءلت زهرة:

ـ لماذا يتهمك رجال المملكة بكراهة النساء يا مولانا؟

أكتأب الباشا. رشف من كأسه جرعة. قال:

ـ أنا لا أكره النساء. أنا أكره الخواء!

تطلّعت إليه المرأتان بفضول، فأضاف:

ـ المرأة الحسناء دائماً زهرة بلا رائحة!

استفزّته زهرة:

ـ ألن تستسلم لطاغية المملكة فيما لو قررتْ أن تدكّ قلاع قلب مولانا؟

ـ تقصدين للاّ زنوبيا؟

افتعل الباشا ضحكة. أجاب:

ـ لم أرَ في هذه الدمية سوى غانية!

تدخّلت إستير:

ـ ولكنّها دلّلت أخيراً كم هي دمية خطرة هذه الغانية!

ـ الحسناء دائماً دمية خطرة!

ـ بسببها فَقَدَتْ القلعة رجلاً خطيراً.

سكت الباشا. قال:

ـ لا تفقد القلعة رجالاً انضمّوا إلى معسكر يوسف!

رمقته إستير بنظرة ذات معنى. قالت:

ـ أحمد بك يرى غير هذا.

تمتم الباشا:

ـ لأحمد بك دينه ولي ديني!

## 17

قام سيدي يوسف بزيارة مفاجئة للقلعة. ثمّ خرج من هناك ليعلن رغبته في عقد عهد مع شقيقه. ولكن أحداً لم يصدّقه لأن الكلّ تعوّد على بلبلته وغرابة أطواره. أمّا سيدي يوسف فذهب للقيام بزيارة البك ليقسم له بصدق نواياه. ولم تمضِ أيام قليلة بعد هذا الإعلان حتّى فوجئت المدينة بالموكب المهيب الذي خرج من أسوار القلعة متجهاً صوب المنشية حيث ينتصب ضريح الوليّ الكبير. اخترق الموكب

شوارع المدينة يتقدّمه أكابر المملكة وأعيان المدينة وأعوان الباشا وقادة الجيش ورئيس البحرية والوزراء وحتى الكاهية الكبير الجديد، ولم يتخلّف عن هذا الركب سوى الباشا نفسه.

في داخل الحَرَم تواجه الشقيقان. تناولا من أيدي الأعوان سكينين ووعائين. قام كلّ منهما بجرّ السكين على راحة يده ليفزّ الدّم من راحة كلّ منهما. تركا الدّم ينزف من يديهما في الوعائين ووقفا صامتين. ينظر كلّ منهما في وجه الآخر. في مقلتي سيدي يوسف ضبط البك بسمة غامضة. بسمة ساخرة ممزوجة بإيماءٍ خفيّ. بإيماءٍ خبيث. يقيناً أن الإيماء في تلك المقلة كان يومها إيماء استهزاء مضافاً إليه نصيب من خبث. هذا ما تهيّأ له يومها، ولم يُكتب له أن ينسى هذا الإيماء في تلك اللحظة الجليلة أبداً. بل ما لبث أن تذكّره بعد ذلك اليوم بزمن طويل عندما جرَت الرياح بغير ما تشتهي السفن فتمزّق عن الوجه القناع.

انتهى البك أوّلاً فأومأ لسيدي يوسف الذي قدّم له وعاءه. بدأ البك بمزج الدّم. دلق دمه في دم شقيقه ليتمازجا. كان الدم في وعاء سيدي يوسف شحيحاً. لم يكن شحيحاً فحسب، ولكن لون الدم أيضاً أدهشه. كان كثيباً، بل أقرب إلى السواد في لونه. ولكنه يسطع بشدّة تحت بصيص الضوء. يسطع بألقٍ مريب. وقد لاحظ كيف ترجرج في البداية ثم تكثّف وتخثّر ليتكتّل في قطعة واحدة مريبة سوداء حتى أن يده ارتجّت في اللحظة التي دلق فيها دمه ليغمر كتلة شقيقه. هزّ الوعاء

ليخلط الدّمين. في تلك اللحظة خيّل له أنه سمع ضحكة مكتومة. تطلّع إلى سيدي يوسف فوجد أن ضحكته قد انقشعت ولم يبقَ في عينيه سوى ظلّ الضحكة. فهل هي وسوسة؟ كلاّ، كلاّ. ضحكة لئيمة. ضحكة لم تختلف عن البسمة التي ضبطها في عينيه. ولكنه مضى يهزّ الوعاء الذهبي الصغير في يده. كان مطعّماً بعروق الذهب، تتلألأ حوله فصوص الجوهر في أطواق دائرية ساحرة. نظر في جوفه فأبصر كيف سال الصّلد. كيف استطاع الدّم الذي دلقه من وعائه هو في جوف وعاء سيدي يوسف أن يكتسح الجمود في دم أخيه ويحيله سائلاً جارياً. هل بفعل الحرارة؟ هل بفضل البراءة؟ هل تجلّد دم الشقيق بسبب السويداء؟ أم أنه فعل ذلك بسبب سواد الروح؟ ألا يُقال أن الدّم ما هو إلاّ الروح إذا تجسّدت؟ ألا يقال أيضاً أن الروح ما هي إلاّ الدم إذا تبخّر؟ ألا يكون تجمّد الدم وكآبة اللون عمل من أعمال النفس إذا أَمرت بالسوء؟

انتزعته يد يوسف من غيبته. فقد انتزع من يده الكأس ليرتشف الدّم. ارتشف الدّم بطريقة غريبة. تجرّع من الكأس بشراهة. على شفتيه لاحظ رجفة. انتفاضة. في عينيه رأى شهوة من ضربٍ لم يعرف له هويّةً ولا نعتاً. حول الشفتين صنع الدم سيماء. خضّب الشفتين فرأى كيف أخرج سيدي يوسف لسانه ليلعق الدمّ. تسلّل اللسان من الجوف بلؤم كأنه لسان الحيّة قبل أن يلتهم السائل الذي لوّث الشفتين. بعدها قدّم له الكأس. في تلك اللحظة لمح في مقلته الإيماء مرّة أخرى. ذات

الإيماء الخفيّ. تناول من يده الكأس وتجرّع. ابتلع الجرعة ببطء فاشتمّ الرائحة. رائحة الدم. رائحة دمه الممزوج بدم غريب. دم لن يكون دم الشقيق بأي حالٍ من الأحوال. تنزّل السائل عبر البلعوم كأنه نصل سكّين. سال ببطء شديد فأحسّ البك أنه يبتلع جسداً لزجاً، رجراجاً، موجعاً كأنه بدن حيّة. بل أحسّ أنه يزدرد سُمّاً مجسّداً. تزعزع بغثيان. ترنّح حتّى كاد يسقط. استند إلى الجدار، فيما كانت الضحكة المكتومة تغزو أذنيه كأنها فحيح أفعى!

بعد الانتهاء من مراسم العهد ذهب سيدي يوسف إلى قصر الباشا في المنشية وعاد هو إلى القلعة. لا يعرف كيف وجد نفسه في بيته. ما يعرفه أنه لم ينم ليلتها. ظلّ يتقيّأ الليل كلّه حتى أيقنت للاّ حسنية أن سيدي يوسف دسّ له سمّاً في دمه. أمّا هو فقد طفق يهذي كلّ الليل بعبارة صارت على شفتيه تعويذة: «اليوم اقترفتُ منكراً فشربت من جدول قابيل!».

## 18

دخل على البك في مكتبه «ساعده الأيمن» حاج أحمد. انتظر حتّى فرغ البك من تحرير بعض المسودّات قبل أن يقول:

ـ في المدينة يردّدون بعض الأقاويل!

استفهم البك بإشارة فأوضح حاج أحمد:

ـ يؤكّدون أن شقيقك يريد أن يصنع تاريخاً!

رمقه البك. تساءل:

ـ ما معنى أن يصنع الإنسان تاريخاً؟

حاج أحمد: لا أدري. يقولون أن أولئك الذين ينوون أن يصنعوا تاريخاً أخطر على الأمم من الطاعون!

البك: حقّاً؟

حاج أحمد: هذا ما يقال.

البك: ولكن لماذا؟

حاج أحمد: لأنهم أعداء للسعادة!

البك: أعداء للسعادة؟

حاج أحمد: بلى يا مولاي. والبرهان بين يديك!

البك: أيّ برهان بين يديّ؟

حاج أحمد: ألم يقتل أخاك وأخاه في أحضان أمّه وأمّك ثم ذهب ليذرف الدموع على قبره؟

ألقى البك بقرطاس كان بين يديه. لاحظ حاج أحمد كيف سرت رجفة في أصابعه. كان بدن البك مزموماً عندما تساءل بدهشة:

ـ هل قلت أنه ذهب ليذرف الدموع على قبر المرحوم؟

ـ بلى يا مولاي. لقد رأيته يفعل ذلك بنفسي!

ـ متى؟

ـ منذ يومين.

فزّ البك من مقعده. انتصب واقفاً. في وجهه ارتسمت سيماء غيبة. تمتم:

ـ بالأمس نكَّلَ بأعوان البك أبشع تنكيل، واليوم يذهب ليذرف الدموع على قبره؟

ـ ليس هذا فحسب يا مولاي.

ـ ماذا بعد؟

تردّد حاج أحمد لحظات. أضاف:

ـ سمعته يردّد عبارة غريبة!

ـ عبارة غريبة؟

تلكّأ حاج أحمد لحظات. قال:

ـ قال أن الإنسان بلا عدوّ هو إنسان بلا قيمة!

سدّد البك لمعاونه نظرة صارمة فنكس حاج أحمد رأسه أرضاً. قال:

ـ لقد خاطب شيخه الدّعي بهذه العبارة.

ـ الشيخ الفطيسي؟

أومأ حاج أحمد بهزّة من رأسه. تساءل البك:

ـ هل يتحسّر سيدي يوسف على فقدان المرحوم لأنه افتقد العدوّ؟

تردّد حاج أحمد مرّة أخرى قبل أن يضيف:

ـ ليس هذا فحسب يا مولاي.

ـ ماذا أيضاً؟

ـ أظنّه يتأهّب ليصنع عدوّاً!

ـ ماذا؟

ـ رجل لا يستحي من أن يقول أن الإنسان بلا عدوّ هو الإنسان بلا قيمة لا بدّ أن يختلق عدوّاً يا مولاي!

أطلق البك صوتاً مريباً. تنحّى جانباً. تسكّع في البلاط عاقداً يديه وراء ظهره فتبدّى بقامته القصيرة مثيراً للشفقة. قال بعد قليل:

ـ لو كنت مكان سيدي يوسف يا حاج أحمد: مَنْ ستتخذ عدوّاً كي تجعل لنفسك قيمة؟

أجاب حاج أحمد بلا إبطاء كأنه كان ينتظر من سيّده هذا السؤال:

ـ لن أتخذ لنفسي عدوّاً هيّناً في كل حال إلاّ إذا كنتُ أريد أن أحتقر نفسي بدل إكبار نفسي!

سكت البك. ابتسم. قال:

ـ لقد قلتَ منذ قليل أن الذين يريدون أن يصنعوا التاريخ هم أعداء للسعادة، فما معنى هذا؟

ـ لقد حذّرني أحد الأئمةّ مرة أن أخدم تحت راية رجلٍ يريد أن يصنع المجد؟

توقّف البك عن الخطو. تطلّع إلى معاونه. تساءل:

ـ هل تريد أن تقول أن المجد عمل لا يختلف عن صناعة التاريخ؟

ـ أظنّ أن الفرق بينهما ليس كبيراً يا مولاي!

واصل البك مسيره ذهاباً وإيّاباً. على شفتيه تبدّت بسمة ماكرة. قال:

ـ ألهذا السبب اخترتَ الخدمة تحت رايتي يا حاج أحمد؟

أجاب الرجل بلا إبطاء:

ـ بلى يا مولاي. السعادة تهجع تحت جناح السكينة لا تحت ظلال السيوف يا مولاي!

ـ ألا تخشى أن يتّهمك الناس بالجُبن يا حاج أحمد؟

ـ وهل يُتّهم بالجبن من اختار الجنوح للسلم يا مولاي؟

توقّف البك عن مسيره. سأل دون أن يلتفت:

ـ لن أتردّد أن أهبك ما ملكت يداي، بل وحتّى نصف سعادتي، فيما لو أخبرتني ما معنى هذه الأحجية التي تسمّيها سعادة!

تشبّث حاج أحمد بجبينه بأصابعه. تعلّق بالفراغ ببصره. قال:

ـ السعادة هي ألاّ نطلب السعادة يا مولاي!

وقف البك في مواجهة ساعده الأيمن كما يروق له أن يسمّيه. تساءل:

ـ ألا يقال أن من لا يطلب شيئاً لا ينال شيئاً؟

ـ السعادة عنقاء يا مولاي!

ـ مهلاً، مهلاً. إذا كانت السعادة غنيمة الذين لا يطلبون السعادة ألن يكون هذا دليلاً على امتيازي بالمقارنة مع سيدي يوسف؟

حاج أحمد: سيدي يوسف ليس سعيداً يا مولاي!

البك: هذا ما تقوله أنت. ولكن ما جدوى السعادة إذا كانت لا تحقّق الأمان!

حاج أحمد: السعادة، يا مولاي، كالإيمان جدواه في باطنه لا في مظهره.

البك: ولكني لا أستطيع أن أحيا بباطني إذا كان السيف مسلّط على رقبتي!

حاج أحمد: السيف مسلّط على الرقبة لأنك لا تريد أن تتخلّى عن الدمية يا مولاي!

تطلّع إليه البك بغموض. قال:

ـ تريد أن تقول أن السلطان والسعادة ليسا قرينان، أليس كذلك؟

أومأ الرجل إيجاباً فقال البك:

ـ تريد أن تقول أن العرش كنز لم يُخلق لأمثالي!

تبادلا نظرة طويلة قبل أن يومىء الحاج أحمد بالإيجاب مرّة أخرى. قال البك:

ـ تريد أن أتخلّى لهم عن البكوية كي أهنأ بما تسمّيه سعادة، أليس كذلك؟

أجاب حاج أحمد:

ـ لم أكن لأجرؤ يا مولاي أن أجيبك بالإيجاب لو لم أعلم يقيناً أن العرش لم يُخلق لك!

تطلّع إليه البك باسماً. تساءل:

ـ لماذا؟

ـ لأنك لم تختر سليقتك!

استعجب البك:

ـ لم أختر سليقتي؟

أجاب حاج أحمد بنبرة كاللامبالاة:

ـ العروش يا مولاي خُلقت للقتلة الذين يريدون أن يصنعوا بسيوفهم تاريخاً، ولكنها لم تُخلق لأولئك الذين يروق لهم أن يضربوا الأخماس في الأسداس!

ـ ما معنى ضرب الأخماس في الأسداس؟

أجاب حاج أحمد:

ـ غياب اليقين!

سكت البك. قال حاج أحمد وهو ينحني لينصرف:

ـ في الخارج تقف جارية تحتضن ابن سيدي يوسف!

ـ ابن سيدي يوسف؟

ـ بلى يا مولاي. لقد أرسله أبوه لتحتفظ به رهينة!

حدّق البك في عيني حاج أحمد. ردّد بذهول:

ـ احتفظ بابنه رهينة؟

ثم بغضب:

ـ وما حاجتي لابن يوسف كي أحتفظ به رهينة؟ هل نحن في حالة حرب؟

قال حاج أحمد:

ـ إنّه يطلب ابنتك الصغرى رهينة أيضاً يا مولاي!

ـ يطلب ابنتي الصغرى رهينة؟

ـ يقول أنه يتصرّف كما تقضي الأعراف!

ـ أيّة أعراف؟

غزا الشحوب وجه البك. توتّرت فيه العضلات أيضاً. لاحظ حاج أحمد كيف نفرت أوردة رقبته وهو يتنفّس بعسر ويختنق من فرط الانفعال. قال:

ـ بالأمس سقاني جرعة من مياه جدوله المسموم، ويأتي اليوم ليلقي في وجهي ببصقة أخرى؟

لوّح بيده في الهواء في حين أضاف حاج أحمد:

ـ ليس هذا كل شيء يا مولاي!

صرخ البك:

ـ ماذا في جعبتك أيضاً؟

ـ إنّه يتأهّب للخروج إلى مصراته في حملة التأديب!

شلّ الذهول البك. وقف في مواجهة معاونه كالأبله. مضى زمن قبل أن يستعيد حضوره. كوّر قبضته ولوّح بها في الهواء وهو يقول:

ـ كلاّ وألف كلاّ. لن أسمح له بالخروج إلى مصراته بعدما فعله بها في المرّة السابقة. عليه أن يقتلني أوّلاً كما قتل المرحوم إذا شاء أن يخرج في حملته على مصراته!

قال حاج أحمد:

ـ ولكنه استطاع أن ينتزع من الباشا فرماناً بهذه المهمّة!

صاح البك:

ـ كلاّ، كلاّ. لن أسمح له بالذهاب حتى لو انتزع فرماناً بذلك من سلطان الأستانة. الباشا لا يعلم ما ستترتّب عليه موافقته للقيام بهذه المغامرة. رسالة أهالي مصراتة صريحة بهذا الشأن. ورسالة الزعيم سيف النصر أكثر صراحة حتّى من رسالة أهل مصراته. كلاّ وألف كلاّ. إذهب إليه وبلّغه برفضي القاطع في الحال!

كان البك يلهث عندما أنهار على أريكة بالجوار.

استأذن حاج أحمد بالانصراف. ولكنه توقّف عند الباب ليقول:

ـ أريد أن أذكّر مولاي بشيء!

التفت البك فالتقت مقلتاهما. قال «الساعد الأيمن»:

ـ لا أريد أن ينسى مولاي أن حياتي قربان بين يديه دائماً!

ابتسم البك. ابتسم حاج أحمد أيضاً.

## 19

«آه يا أمّي! هل هذه هي هديّتك الأخيرة التي خبأتيها لابنك البكر؟!».

هذه هي العبارة التي لم تستطع للاّ حلّومة أن تنساها.

فمنذ مصرع فقيدها وهي تقرع أذنيها كأجراس كنيسة النصارى.

بل كثيراً ما سمعتها بوضوح من شفتي الفقيد وهي تغطّ في النوم لتفزّ

مفزوعة. وقد انتظرت أن يزورها في المنام، ولكن الفقيد لم يفعل ذلك ولا مرّة. لم تبخل بالنذور بعد ذلك المشهد الدموي استعطافاً لروحه. كما حرّرت جاريتين من العبودية طمعاً في الفوز بزيارته، ولكنه لم يظهر أبداً. في النهاية قررت أن تلجأ إلى ضريح أحد الأولياء لتستجدي الرؤيا عملاً بوصيّة إحدى العرّافات، ولكن الباشا تدخّل ليمنعها في آخر لحظة.

بعد فشل هذه المحاولة بدأت للاّ حلّومة تذوب. فقدت الشهيّة للطعام، وعزفت عن مجالسة نساء القصر، ورفضت استقبال عقيلات أكابر المدينة، وحبست نفسها في جناحها. ويروي الخدم أنها كانت تستيقظ في الليل لتتسلّل إلى دار التحريم. وهو الاسم الذي أطلقته الجواري على الدار التي شهدت فصول المأساة. تتسلّل إلى الدار وتمكث هناك حتى مطلع الفجر. ولا أحد يعلم ماذا يمكن أن تفعله كل هذا الوقت في مستودع الأشباح ذاك. ولكن إحداهنّ أكّدت أنها رأتها تهيم في الظلمات، تلثم الجدران الملوّثة بدم فقيدها وترطن بلغة مجهولة ليست بعربية ولا بربرية ولا تركية ولا رطانة من رطانات الأروام. وعندما عبّرت لها للاّ زكيّة عن استيائها من عملها هذا استنكرت بشدّة وأقسمت برأس الفقيد أنها لم تلج باب دار التحريم منذ يوم البليّة. وهو أمر أقلق بناتها كثيراً حتّى أن للاّ فاطمة شكّكت في قواها العقلية. في حين انهارت للاّ عائشة باكية قبل أن تقول أن الأمّ انضمّت إلى حزب الخلق الذين يهيمون على وجوههم وهم نيام ليفعلوا ما لا يعون.

استنجدت الأخوات بأبيهنّ، ولكن الباشا اعتصم بجناحه مع «إستير» ولم يحرّك لإنقاذ رفيقة العمر ساكناً. للاّ عويشة وحدها كانت ترقب للاّ الكبرى بوجوم الذين طهّر أرواحهم الألم العظيم حتّى تبدّى سيماء جمالٍ على وجوههم. رأتها للاّ عويشة بعين لم تعد تنتظر من دنياها خيراً فاكتسبت من المجهول عمق الأبدية، لأن هذه هي المرأة الوحيدة من بين الناس جميعاً التي شاركتها الدّاء، شاركتها فجيعتها الأبدية. وكان إنقاذها دَيْن في رقبتها هي وحدها. ولهذا هبّت لنجدتها كما يروي الرواة، وكما أكّد أصحاب الحوليات الأدبية.

هرعت للاّ عويشة لنجدتها بحيلة.

ذهبت لزيارتها في إحدى الليالي. طلبت من جاريتها فطّومة أن تراها على انفراد لأمرٍ هامّ. ولكن فطّومة عادت لتخبرها باعتذار مولاتها. لم تيأس للاّ عويشة. طلبت من الجارية أن تخبرها بأن الأمر يتعلّق بمصرع المرحوم. عادت الجارية لتقودها إلى غرفة الجلوس. انتظرت هناك لحظات قبل أن تدخل للاّ حلّومة متنكّرةً في جرم شبح: هيكل ملفّق من عظام. بشرة شاحبة، ووجه برزت وجنتاه وغابت عيناه في المحجرين. قامة كسر عودها شيخوخة مبكّرة. يدان كأنهما عودان من حطب. شبح حقيقي خرج من جوف القبر!

جلس الهيكل على الأريكة فازداد ضآلة في جوفها. نظرت إلى الفراغ بمقلتين خاويتين كأنهما عينا مخلوق أعمى. لم تنبس أبداً، فرأت الزائرة أن تبدأ:

ـ البارحة رأيت حلماً!

لم تنبس المرأة فأضافت الزائرة:

ـ البارحة زارني المرحوم!

لمع في مقلة الأم وميض كأنه الفضول لأوّل مرّة. مضت للاّ عويشة:

ـ طلب منّي أن أبلّغك رسالة!

تكلّمت المرأة بصوت واهن أَلْيَق ما يكون بوهن بدنها:

ـ رسالة؟

ـ بلى. رسالة تقول أنّك السبب في شقائه في دار الحقّ برغم أنك لم تكوني السبب في شقوته في دار الباطل!

انتفض بدن الأمّ برجّة. لاحظت للاّ عويشة أن شفتيها ارتعشتا أيضاً قبل أن تتمتم:

ـ هل قال ذلك حقّاً؟

ـ بلى، قال أنه معلّق في مشنقة بين السماء والأرض. وروحه لن يُكتب لها أن تنال الخلاص ما لم تغفري له سوء ظنّه بكِ!

هبّت الأمّ واقفة. كانت ترتجف كقشّة عندما هتفت:

ـ هل قال ذلك حقّاً؟

اقتربت من جليستها خطوتين. انحنت فوقها فوقفت للاّ عويشة أيضاً. تشبّثت الأم بيديها. في تلك اللحظة لاحظت للاّ عويشة أن خصلات شعرها التي انحسر عنها اللحاف مسربلة بالشيب. قالت للاّ عويشة:

ـ قال أن الله يغفر الخطايا، ولكنه لا يغفر العقوق!

حدّقت الأمّ في عينيها كأنها لا تصدّق ما تسمع. في المقلتين المطفأتين تألّق الأمل. تمتمت:

ـ ماذا قال أيضاً؟

ـ قال أن سكينته في دار الخلود رهينة بسعادتك أيضاً في دار الفناء. إنه يحترق بنار حزنك عليه!

مضت الأمّ تحدّق في عيني ضيفتها كأنها تبحث فيهما عن حقيقة الرؤيا. كأنها تتوقّع أن ترى فيهما طيف فقيدها. أضافت للاّ عويشة:

ـ أوصاني أن أقول لكِ بأنه لن يدخل رحاب النعيم أبداً إذا لم تنتصري على أحزانك!

تأملتها الأم لحظات قبل أن ترتمي في أحضانها باكية. فما كان من للاّ عويشة إلاّ أن بكت أيضاً. بكت للاّ عويشة بفجيعة في تلك الليلة لأنها صدّقت كذبتها فأيقظت النبوءة مواجعها.

ولكن انتظار للاّ عويشة لم يدم طويلاً لتكتشف أن الفجيعة أيضاً بليّة ليست بلا ثمن، لأن شهراً لم يكد ينصرم لترى كيف بدأت للاّ حلّومة تنتعش لتخرج من ظلمات قبرها.

## 20

قال البك ما أن وقف بين يدي الباشا:

ـ إذا سمحتَ لسيدي يوسف أن يذهب إلى مصراته فلن أضمن ألاّ تندلع الحرب!

رمقه الباشا من عرشه بعين في حين استمرّ يغمض عينه الأخرى.
تمتم باستنكار:
ـ حرب؟ أيّة حرب؟
أضاف بعد محاولة للاستيقاظ من غيبوبته الأبديّة:
ـ وهل عرفت هذه البلاد ساعة سلم واحدة منذ أوجدها الله على هذه الأرض؟
البك: أهل مصراته مصمّمون على أن يرفعوا السيوف في وجوهنا فيما إذا أصرّ سيدي يوسف على الخروج إليهم.
الباشا: لا أعرف كيف يتجاسر الوغد سالم على التمرّد بعد أن التقطتّه بالأمس من الشارع لأنصّبه عاملاً لي على هذه البلدة الشقيّة!
البك: وكيف لا تريده أن يفعل، يا أبي، إذا كان سيدي يوسف قد ذهب في زيارته الماضية إلى تلك الديار ليهجع في مخدعه إلى جوار زوجته؟!
سكت الباشا. ابتسم بلؤم مغمض العينين. تساءل فجأة:
ـ هل فعل سيدي يوسف ذلك حقّاً؟
ـ بالطبع يا مولاي. تلك سيرة ما زالت تجري على كل لسان!
ترجرج الباشا بضحكة مفاجئة. تمتم بتوجيه الشكر لله قبل أن يختتم امتنانه بصوتٍ كالحشرجة المكتومة:
ـ إذا كان سيدي يوسف قد فعل هذا فقد انتقم لي من ناكر الإحسان هذا. هنيئاً لسيدي يوسف الذي لم يملّ يوماً من أن يدلّل أنه ابني!

احتجّ البك:

ـ أنا أدري أن سرّ إيثارك لسيدي يوسف إنما يكمن في مواهبه التي أهّلته دائماً أن يفعل ما تعجز أنت عن فعله يا أبي!

صحّح الباشا:

ـ أو فعل ما لا أريد أنا أن أفعله!

لم يجد البك حرجاً في أن يرمق أباه بكراهة قبل أن يقول:

ـ هذا صحيح. بالأمس عندما نقلتُ له رغبة القصر في طرد مملوكه الكريه «غانم» إلى الحَرَم جزاء فعلته المنكرة لم يستحِ من أن يسخر منّي ليقول أنه لن يفعل ذلك قبل أن يكافئه على جرمه بتزويجه إحدى بنات الأكابر. تخيّل يا أبي ذلك العبد وهو يحتضن إحدى بنات الأكابر!

ابتسم الباشا بمكر مرّة أخرى. في مقلتيه المتعبتين، الحمراوين، تألّق مرح طفولي. قال ببرود:

ـ ولماذا لا يحتضن عبد العبيد ذاك امرأة من سلالات الأكابر؟ لا يجب أن تحسن الظنّ بملّة النساء إلى الحد الذي يجعلك تبخل بهنّ على رجل، أيّ رجل!

استنكر البك:

ـ أيّ رجل؟

ـ بلى. أيّ رجل. المرأة في نهاية المطاف لا تطلب في دنياها إلاّ الرجل حتّى لو كان هذا الرجل عبداً للعبيد وهي سلطانة الحُسْن!

تأمّله البك لحظة. قال غائباً:

ـ سوء ظنّك بملّة النساء يخيفني يا أبي!

طأطأ لحظة. على وجنتيه لاحت سيماء حياء. تمتم وهو يرمق أباه خلسةً:

ـ ماذا لو قرّر هذا المخبول أن يرمي في أحضانه بللاّ فاطمة؟

صرخ الباشا:

ـ إيّاك أن تنعت سيدي يوسف بالخبل في حضرتي مرّة أخرى!

ساد صمت. كان البك يبتسم بخبث عندما قال:

ـ هذا ليس تخميناً يا أبي. ثمّة من ردّد نيّة سيدي يوسف هذه في أحد المحافل!

أغمض الباشا عينيه مرّة أخرى. لاذ بالصمت حتّى ظنّ البك أن الأب عاد إلى رحاب غيبوبته الخالدة، فهمّ بالخروج. ولكن الباشا تكلّم في اللحظة التي همّ فيها بالانطلاق:

ـ ولماذا لا يرمي سيدي يوسف بللاّ فاطمة إلى أحضان مملوكه غانم؟ أليست هي امرأة وهو رجل؟!

تطلّع إليه البك بدهشة فأجابه الباشا بهأهأة مكتومة. أضاف:

ـ قيل لي أنّك أعلنت عن رغبتك في أن ترث جواد أخيك المرحوم، فهل هذا صحيح؟

عاد البك على عقبيه خطوات. استفهم:

ـ ولماذا لا أرث جواد الفقيد؟

ـ لا يجب أن ترثه لأن العُرف جرى بقتل الجواد بعد مصرع سيّده لا أن يُستخدم.

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ هذا سبب أوّل!

انتظر البك أن يمضي، ولكن الباشا أغمض عينيه من جديد في نيّة للعودة لرحاب الغيبوبة، فسأل:

ـ هل هناك سبب ثانٍ؟

تمتم الأب:

ـ بلى. السبب الثاني يكمن في الجَمَال!

ـ الجمال؟

ـ في بياض هذا الجواد فتنة لا أنصحك باقتنائها!

تقدّم البك خطوة. انتظر. قال بلهجة يأس:

ـ أريدك أن تأخذني مأخذ الجِدّ ولو مرّة يا أبي فأنا من لحمك ودمك!

شيّع الباشا جفنيه فتبدّى في مقلتيه المنهكتين إيماء خفيّ. قال:

ـ لا أعرف لماذا تشكّك في أمري بلا حجّة!

ـ لأنّك لا تملّ من أن تسخر منّي بسبب أو بلا سبب.

ـ هذا ما تتخيّله، وأعلم أنّك لا تستطيع اليوم أن تغيّر أنت ما عجزتُ أن أغيّره بنفسي بالأمس.

تململ في عرشه. أضاف:

ـ لم أنصحك بالتخلّي عن الجواد منذ قليل من باب الاستخفاف، ولكنّي فعلت ذلك صادقاً ليقيني بأن الجَمال يجلب النحوس!

ـ الجَمال يجلب النحوس؟

ـ أجل. الجَمال لعنة!

أطلق البك أنيناً. ابتسم ببلاهة وهو يلوّح بكلتا يديه في الفراغ كأنه يريد أن يحتضن الهواء. صاح:

ـ مرحى يا أبي مرحى! ألهذا السبب أخفقتم في إخفاء كراهيتكم للحسان؟

سكت الباشا. حدّق في عين الإبن. في مقلتيه لمح ظلّ استخفاف. غمغم:

ـ ربّما!

في تلك اللحظة اندفع سيدي يوسف إلى الدّاخل. كان يعتمر عمامةً ورديّة اللّون ممهورةً بخطوط حمراء. يرتدي حلّة مطرّزة بخيوط الذهب فوق قفطانٍ شبيه بقفطان البكوية الذي خلعه الباشا على البك أخيراً. خصره مطوّق بحزام جلدي منمنم بفصوص الأحجار الكريمة. من الحزام تدلّى السيف المغمور في غمد موشّى بعروق الذهب أيضاً. حول هذه العروق تناثرت حبيبات من أحجار الماس.

تقدّم من الأب. ركع أمام العرش بخشوع. تناول يد الباشا وقبّلها بإكبار، فيما كان البك يتطلّع بذهول إلى قفطان البكوية، ثمّ إلى السلاح المدسوس في الغمد. تنحّى سيدي يوسف جانباً فتكلّم البك:

ـ لا أعرف بأي حقّ تقتحم هذا الحَرَم مدجّجاً بالسلاح!

ابتسم سيدي يوسف باستخفاف تعمّد ألاّ يخفيه في حين قال الباشا:

ـ ما كان ليفعل ذلك بلا إذن!

لاحظ البك كيف تبادل الأب مع الشقيق نظرة ذات معنى. قال:

ـ لا أعرف لماذا يحقّ لسيدي يوسف ما لا يحقّ حتّى للبك!

قال الباشا:

ـ لا يجب أن تنسى أن سيدي يوسف يحيا في ظلّ الخطر.

تعجّب البك:

ـ أيّ خطر يمكن أن يتهدّد سيدي يوسف في حضرة الباشا؟

تمتم الباشا بلهجة لا مبالاة:

ـ صاحب الخطر لا يأمن أحداً. صاحب الخطر لا يأمن ظلّه!

تطلّع البك إلى قفطان سيدي يوسف مليّاً. قال بلهجة تهكّم:

ـ أرى أن الباشا قد خلع عليه نسخة من قفطان البكوية أيضاً!

ـ القفطان ما هو إلاّ قطعة قماش، ولم يكن علامة للبكوية إلاّ في نظر الدهماء!

ـ سعادة الباشا ينسى أن الرعيّة ما هي إلاّ سواد أعظم من دهماء!

ساد بعدها وجوم مزموم. تبادل الرجال النظرات خفية. قال الباشا:

ـ لم أرسل في طلبكما للجدل في شأن الأثواب أو أنصال الحديد، ولكن للبحث في أمر الحملة على مصراته!

سدّد نظرة إلى البك. سأل:

- أريدك أن تقنع سيدي يوسف بحجّتك!

- إذا لم تقتنع أنت بحجّتي يا أبي، فكيف أقنع بها سيدي يوسف؟!

ابتسم سيدي يوسف بغموض. أضاف البك:

- إذا ركب سيدي يوسف رأسه وأصرّ على نيّته في الخروج إلى مصراته فأعدّوا العدّة للحرب منذ اليوم!

تكلّم سيدي يوسف لأوّل مرّة:

- ملعونة تلك الحرب التي يستطيع أن يشعلها مخنّث مثل المدعو حاج سالم!

التفت البك إلى أخيه. صاح وهو يكتم غَضْبَةً:

- إذا أضحى حاج سالم مخنّثاً بين ليلة وضحاها فالفضل يرجع لك في هذا التخنّث!

- ولماذا يرجع الفضل لي في هذه الرذيلة؟

- ألم تتسلّل إلى فراشه في غفلة منه لتحتضن زوجته؟

حشرجَ الباشا بضحكة مكتومة، في حين احتجّ سيدي يوسف:

- هل قالوا لك أنّي اغتصبتها؟

لوّح البك بيده في الهواء فأضاف سيدي يوسف:

- إذا لم أغتصبها فإنها راغبة، وإذا كانت راغبة فهي لعوب، وإذا كانت لعوباً فهي غانية، وإذا كانت غانية فلها أسبابها كي تصير غانية!

رمقه البك بدهشة. سأل:

- هل تريد أن تقنعني بأنها صارحتك بالأسباب التي جعلت منها غانية أيضاً؟

أجاب سيدي يوسف ببرود:

- بلى. قالت أن سالم الذي تسمّيه أنت رجلاً ما هو إلاّ بغل مخنّث!

تبادلا نظرة. في مقلة سيدي يوسف تألقت سخريّة. في مقلة البك سطع التحدّي. قال البك:

- لا أعرف استهتاراً يفوق استهتار إهانة الرجال في شرفهم، ولكن دعنا من هذا. فأنت تنسى الأحلاف القبليّة. فإلى جانب خطاب أهل مصراتة الذين يرفضون خروجك إليهم تلقيتُ خطاب سيف النصر الذي يحذّر فيه من الإساءة إلى أهل مصراته!

التفت سيدي يوسف إلى الباشا. قال:

- من هو سيف النصر هذا حتّى أسمح له بأن يفصل في شأن من شئون المملكة؟

- ومن أنت حتّى تسمح أو لا تسمح لسيف النصر أو لغير سيف النصر؟

- أنا سيدي يوسف، فاحترس!

كانت بسمة الاستخفاف ترتسم على سيماء سيدي يوسف عندما تطلّع البك إلى الأب. ولكن الأب أسبل جفنيه على عينيه وتخفّى وراء قناعه الخالد.

هتف البك:

- هل تتوعدني بأن تفعل بي ما فعلته بشقيقي الفقيد؟

أجاب سيدي يوسف ببرود دون أن تفارق بسمة السخرية شفتيه:

- من يتوعد لا يفعل، من يريد أن يفعل وحده لا يتوعّد. أنت تعلم.

- أعلم شيئاً واحداً وهو أنّك مخطىء إذا كنت تظنّني غنيمة سهلة كأخي. لأن حولي رجال لا يقلّون وفاءً ولا شجاعة عن رجالك!

تقدّم منه سيدي يوسف خطوة، بل خطوتين، حتى كاد أن يصدمه بصدره. مال عليه ليهمس في أذنه:

- أنت تنسى أنّك الآن أعزل!

أطلق بعدها ضحكة أيقظت الباشا من سباته الخالد فتساءل:

- ماذا يجري هنا؟ آمل أن تكونا قد انتهيتما إلى اتفاق!

كانت سيماء البك شاحبة، برغم أن الخطر لم يفقده صوابه. قال:

- لا أظنّ أننا سنصل إلى اتّفاق إلى الأبد ما ظلّ سيدي يوسف يأتمر بوصايا ذلك العفريت!

سأل الباشا:

- عن أيّ عفريت تتحدّث؟

تدخّل سيدي يوسف:

- الشيخ الفطيسي! إنّه يتهكّم على الشيخ الفطيسي فينعته باسم «العفريت»!

هلّل الباشا:

ـ لقد سمعتُ كثيراً عن كرامات هذا الشيخ وأريدك أن تعرّفني به!

احتجّ البك:

ـ احترس يا أبي من إدخال ذلك المسخ إلى هذا القصر لأنه لم يدخل أرضاً إلاّ حلّ بها الخراب!

رمق الباشا سيدي يوسف قبل أن يوجّه سؤالاً إلى البك:

ـ من أين لك بهذا اليقين؟

ـ سيرته على كل لسان. دسّه أمير فزّان لسيدي يوسف ليثأر من سلالة أحمد الأكبر الذي باع جدّه في سوق العبيد يوماً فما كان من هذا المسخ إلاّ أن دبّر اغتيال حسن بك!

هتف سيدي يوسف:

ـ الحمد لله الذي أجرى على لسانك هذا الاعتراف الذي برّأ ساحتي من دم شقيقي!

أعقب العبارة بضحكة ساخرة في حين ردّد الباشا:

ـ لقد أشعلتما فضولي. ما اسم هذا المخلوق؟

قال سيدي يوسف:

ـ الشيخ الفطيسي يا أبي!

تدخّل البك:

ـ لا تصدّقه يا أبي. اسم سلفه الحقيقي «شلم»، ولقبه «لون اللعنة». وما الفطيسي إلاّ اسم السلف المستعار!

هتف الباشا:

ـ يروق لي هذا! لا بدّ أن أتعرّف إلى صاحب الاسم المستعار!

طاف البك بعينيه بينهما. توجّه بخطابه إلى سيدي يوسف:

ـ قيل لي أنّك وعدته بأن تلقي بللاّ فاطمة إلى مخدعه كما وعدتَ بها مسخك الآخر الذي تدعوه باسم غانم!

جلجل سيدي يوسف بضحكة جوفاء استجاب لها الباشا بضحكة مكتومة. قال سيدي يوسف:

ـ وأيّ عارٍ تجده في قيامي بتدبير عريس مناسب لأخت حلّت بها نكبة؟

البك: وهل تسمّى هذين الشبحين عرسانا؟

سيدي يوسف: وهل ترى في أعلاج بقيّة الأخوات رجالاً يفوقون هذين الشبحين (كما تسمّيهم) بطولةً أو خصالاً؟

البك: الأعلاج في ناموس هذه القلعة أبطال حتّى لو كانوا سفلة أو قتلة ما داموا نصارى ولم ينتموا بالنسب يوماً إلى أمم الرعايا!

سيدي يوسف: ولكن هذين الشبحين لا ينتميان إلى سلالات الرعايا أيضاً لأن المجاهل التي أقبلا منها قارّة ليست مجهولة فحسب، ولكنها مفقودة!

البك: لا أعرف متى ستكفّ عن خلط هزلك بجِدّك يا سيدي يوسف.

سيدي يوسف: هل هزل أن أُدخِل السعادة إلى قلب شقيقتي الذي انكسر؟

البك (باستنكار): السعادة؟

سيدي يوسف: بلى، بلى. السعادة. للاّ فاطمة ستنال السعادة في مخدع أحد هذين العبدين لأن المرأة مخلوق لا يفوز بهذه الأحجية ما لم يكن رجلها عبداً روحاً وجسداً!

ترجرج الباشا بقهقهة شيطانية مغمض العينين، ولكنه ابتلع ضحكته فجأة ليغرق في الصمت. بعد لحظات علا شخيره.

غادر الباشا إلى دنياه فوجد البك نفسه وحيداً في البلاد في مواجهة سيدي يوسف. ولا يعرف لماذا استولى عليه إحساس بالعزلة.

## 21

في طريقه إلى جناحه لعن البك نفسه بأعلى صوت. لعن نفسه لأنّه تمنّى لشقيقه الفقيد شرّاً عندما كان المغدور يحمل لقب البكوية وكان هو يحمل اسم «سيدي» مجرّداً. تمنّى له الموت وذهب ليعقد مع الشقيّ يوسف حلفاً لم يدرك إلاّ اليوم كم كان ذلك الحلف ظالماً. بل أدرك أن ذلك الحلف لم يكن ظالماً فحسب، ولكنه آثم أيضاً. كان ذلك الحلف مكيدة جنى ثمارها سيدي يوسف وكسب هو اللعنة. نال سيدي يوسف بموجبها السلطان وتلحّف هو بقناع السلطان. صار سيدي يوسف روح هذه المملكة وارتضى هو أن يقنع بقدر الدمية. صار سيدي يوسف جلاّداً وانقلب في يده قرباناً؛ فيا له من إبليس! لم يكتفِ بأن يجعل منه أضحوكةً أمام الخلق، ولكنه وجد متعة في التنكيل به بعون أبٍ استمرأ العماء واستسلم للهوى، ولم يعد يأبه لمصير المملكة منذ

اليوم الذي بعث ليوسف بالمسبحة. لم يكتفِ بذلك، ولكنه بعث برسولٍ إلى الأمّ التي أُجهز على وليدها البكر في حضنها ليحذّرها من إظهار الحزن على فقيدها فيما إذا تنازل سيدي يوسف وذهب لزيارتها. توعّدها في يومٍ لم تستفق فيه بعد من مصابها. ألزمها بالضحك في وجه جلاّدها الذي نحر بالأمس ابنها البكر في حضنها! فأيّ أبٍ هو علي باشا القرمانلي؟ وأيّ قرين هو علي باشا القرمانلي؟ بل وأيّ ملك هو عليّ باشا القرمانلي؟

والحقّ أنه هو، أحمد بك، من أصيب بلوثة في العقل وليس علي باشا القرمانلي! هو مَن جُنّ لأنه قَبِلَ الانخراط في هذه الملهاة وهو أعرف الناس بأنها ملهاة. قَبِلَ الانخراط في المهزلة متحجّجاً بالعُرف الذي قضى بأن يتولّى الابن الأكبر منصب البكوية برغم أنه كان أعلم النّاس بنوايا الأب الذي لم يرَ لهذا المنصب بِكاً غير سيدي يوسف في يومٍ من الأيام. لقد رأى سيدي يوسف بِكاً حتّى عندما كان حسن يتولّى أمر البكوية. ولكنه لم يتخيل في يوم من الأيام أن يبلغ الاستهتار بالأب حدّ الاستهانة بالناموس الذي توارثته الأجيال واعتنقته الأمم وقضى بتولّي الأبناء الأبكار أمر الممالك خلفاً لآبائهم. لم يكن ذلك تقليداً، ولكنه في يقينه كان وصيّةً. والوصيّة التي تتوارثها الأجيال لا بدّ أن تنقلب ناموساً، بل ديناً، لأنها لم يكن ليكتب لها أن تحيا طويلاً لو لم تكن منذ البدء وحياً إلهيّاً. لقد هَذْهد في قلبه قناعة بقداسة يستعير فيها دور قابيل فيرفع يده على أخيه لينتزع من بين يديه البكوية كما فعل يوسف.

لم يصدّق أيضاً شكوكه التي انتابته كثيراً حول نوايا الأب الخفيّة. هذه النوايا التي لم تكن سوى مكيدة خفيّة تشجّع سيدي يوسف على التخلص من حسن بك وانتزاع الغنيمة من بين يديه دون أن يخطر ببال كليهما أن يصير هو في طريقهما حجر عثرة. بل لم يكتشفا وجوده في هذه الدنيا أصلاً إلا بعد اقتراف الجريمة. لحظتها اعترض سبيلهما الناموس من جديد لأن مشيئته قضت بأن تنتقل المقاليد إلى الابن الأكبر فيما إذا غاب الابن البكر ليلعنا في سرّهما الناموس للمرّة الألف قبل أن يشرعا في طريقة جديدة للتخلّص من العقبة الجديدة. ذلك أنه لم يعش في هذا القصر إلاّ ظلاّ. عاش في القلعة دون أن يلحظه أحد. عاش دوماً كأنّه أحد الخدم لا ابن الباشا. عاش بين جدران ذلك المعتقل غريباً فاستمرأ غربته. وهو على يقين اليوم بأن غربته لم تكن لتصير له بمثابة طاقية الإخفاء التي تتحدّث عنها الخرافات لو لم يفلح منذ البداية في استمراء غربته. ويبدو أن الأمّ كانت أدرى أهل القصر ببلايا القصر وبمكائد القصر فكانت الإنسان الوحيد الذي عرفه لأنها كانت الإنسان الوحيد الذي أخفاه عن الأنظار. أخفته عن أعين أهل القصر لتحميه من سلطان القصر الذي لا يحمل في عبّه إلاّ الهلاك. وهكذا حبكت الأقدار بينه وبين الأمّ ذلك العهد السرّي الذي لا يعلم بنوده سواهما. عهد صامت لم تدنّسه عضلة الكلم. وكان يمكن أن يستمرّ إلى الأبد ليأتي له بالخلاص لو لم تتدخّل تلك السعلاة المسمّاة «إستير» بإيحاء من مواهبها ككاهنة لا تُخفَى عليها خافية. لأن تلك الجنيّة هي المخلوقة الوحيدة

في المملكة التي تستطيع أن تولي اهتماماً بالظلال بوحيّ من علومها السحرية التي ترى حقائق الأشياء في ظلال الأشياء لا في مظاهر الأشياء. وهو على يقين اليوم بأن محنته لم تكن إلاّ فصلاً من فصول الخطّة الشيطانية التي نسجت خيوطها هذه الجنيّة. فالفتنة التي نسجتها بينه وبين البك بيد سليلتها «ميزلتوب» كانت غايتها دقّ إسفين العداوة بينه وبين شقيقه الأكبر (هذه العداوة التي تدري كما لا يدري أحد بأنها لن تنطفىء إلى الأبد ما دام السبب فيها شرف امرأة) وكان من نتيجتها زحزحته من حَرَم قمقم اغترابه (أو ظلاله) ليقترب من دائرة سيدي يوسف. وهو التقارب الذي انتهى إلى عقد الحلف الآثم بينهما ليصير ألعوبة بلهاء في مهزلة يجهلها ولم تتكشّف له فصولها إلا بعد فوات الأوان. وقد تساءل بعد فوات هذا الأوان عن غاية إستير من حَبْك خيوط هذه المكيدة فلم يجد غير جوابٍ وحيد: الحُكم!

كانت إستير حتّى ذلك الوقت بطانة لصاحب المملكة. كانت شريكاً في حكم البلاد، ولكنها لم تقنع يوماً بهذه الشراكة. ويبدو له اليوم كم كانت على حقّ في أن ترفض قبول الاكتفاء بدور الشريك، لأنه أدرك كما أدركت هي قبله أن السلطان هو الغنيمة الوحيدة التي لا يقبل أحد أن يشرك بها أحداً. إنه ذلك الربّ الذي لا يشرك بنفسه أحداً مثله في ذلك مثل المرأة، ومثله في ذلك مثل الكنز!

ولهذا السبب سَعَت بصبر عظيم يليق بكاهنة للإيقاع بيوسف بدسّ ابنتها ميزلتوب في مخدعه معوّلةً على مواهبها الجسدية والعقلية

معاً، حتّى إذا أفلحت هي في تمهيد الطريق لسيدي يوسف إلى العرش بكنسه هو، أحمد بك، من الطريق استطاعت ميزلتوب أن تتولّى مقاليد حكم المملكة الطرابلسية من خلاله ليقينها الوثني الخالد بأن الملوك ما هم إلاّ بعابع خاوية وأرواحهم التي يأتمرون بها هي الحريم!

وبالطبع لم يكن يهمّ «إستير» أن تهلك في سبيل رؤية ابنتها ملكة على عرش طرابلس، لأنّ أرواح الأمّهات لم تكن لتكون أرواح أمّهات لو لم تكن بالسليقة أرواح ذريّة الأمّهات. فلا يهمّ الأمّ أن تهلك في الحال إذا كان المقابل أن ترى سلالتها تحيا، فكيف إذا رأتها تتبوّأ عرشاً لا يرى فيه الناس عرشاً، بل ربّاً؟ ألم تقدّم أمّ نيرون البرهان على ذلك يوم قيل لها أنّ إبنها يخطّط لقتلها فأجابت قائلة:

«فليفعل! المهمّ أن يحكم!»؟

## 22

استقبل البك رسول أهل مصراته الذي نقل له رسالة. كان أحد أكابر تلك المدينة. في العقد الخامس من عمره. يعتمر طربوشاً أحمر ملفوفاً في أسفله بعمامة ناصعة. يتلحّف بعباءة ناصعة أيضاً. سأله البك عن سبب رفعهم لراية العصيان ضدّ سلطان الباشا فابتسم الرسول باستخفاف قبل أن يوضح:

- إذا كنتم ترون ما فعلناه عصياناً فهو ليس ضدّ سلطان الباشا.

سكت لحظة قبل أن يضيف:

- اللّهم إلاّ إذا كان سيدي يوسف قد فعل ما فعل بتشجيع من سعادة الباشا!

تبادلا نظرة. سأل البك:

ـ وإذا افترضنا أن سيدي يوسف قد أساء لكم بتشجيع من الباشا..

ابتسم الرسول. قال:

ـ لا أظنّ أن أحداً يستطيع أن ينكر علينا أن ندافع عن أنفسنا في كلا الحالين!

ساد بينهما صمت. تشبّث البك بالصمت زمناً، ثمّ تساءل:

ـ هل تستطيع أن تجيبني لماذا يكابر الحاج سالم فيبعث برسول بدل أن يأتي بنفسه؟

ـ الحاج سالم لا يكابر، ولكنه لا يثق بسيدي يوسف.

ـ ألا يستطيع أن يثق بي أو بالباشا الذي ولاّه أمر مصراته بالأمس خلفاً للمرحوم رمضان الأدغم!

سكت الرسول طويلاً. أجاب أخيراً:

ـ الحقّ أنّه لا يستطيع أن يثق بأيّ منكما بالفعل!

تطلّع إليه البك مليّاً. سأل:

ـ لماذا؟

رفع إليه الرسول عينيه ثم عاد فطأطأ. تمتم:

ـ لأن الناس يرون سيدي يوسف هو ملك هذه البلاد وليس الباشا منذ فعل بشقيقه ما فعل!

ـ حسناً. ألا يخشى الحاج سالم أن يُعزل بإشارة من الباشا؟

ـ الحاج سالم يرى أنه معزول منذ زمن ما دام الزمام قد صار في يد سيدي يوسف.

ـ ألا يعني هذا اعترافاً طوعيّاً بالتمرّد؟

سكت الرسول. قال بعد لحظة:

ـ هو يرى أن ما فعله حتّى الآن لا يعدو أن يكون دفاعاً عن النفس ضدّ شرور سيدي يوسف بدليل أنه لم يبخل بحسن نواياه عندما بعث لكم الرسائل التي يعرب فيها عن وفائه ورغبته الصادقة في أن تتكرّموا أنتم بالخروج إلى مصراته بدل سيدي يوسف.

هيمن سكون جديد. تبادل البك مع الرسول نظرة أخرى. ابتسم. قال فجأة:

ـ أمّا الآن فأريدك أن تروي لي جُرم سيدي يوسف بالتفصيل!

ـ أخشى أن رواية جرائم سيدي يوسف أمر سوف يطول.

تفحّصه البك لحظات. قال:

ـ دعنا من نزواته التي تتعلّق بالشرف، وحدّثنا عن آثامه الأخرى التي ثار بسببها الأهالي.

شيّع إليه نظرة استنكار. تساءل:

ـ ولماذا علينا أن نستثني النزوات التي تتعلّق بالشرف؟

ـ ظننتُ أن ذلك قد يسبب لك الحَرَج!

في عيني الرسول تألّق إيماء الاستياء. ولكنه استبدل الاستياء بالتصميم سريعاً عندما قال:

ـ الحقّ أني لم أُقبل عليكم لأروي سير الفضائح، ولكن لكي أقدّم لسعادتكم عَرْضاً.

لم يحاول البك أن يخفي استغرابه:

ـ عرض؟

أومأ الرجل إيجاباً. اختلس إلى البك نظرة خفيّة. قال:

ـ محنتكم اليوم أمرٌ لم يعد يُخفَى على أحد!

تطلّع إليه البك لحظة. سأل:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أن قلوب الناس معكم..

اختلس إلى البك نظرة أخرى قبل أن يضيف:

ـ أردت أن أقول أن الناس مع سعادتكم ليس بقلوبها وحدها، ولكنّها معكم بسيوفها أيضاً!

ابتسم البك بمكر. على شفتي الضيف أيضاً لاحت بسمة ذات معنى. قال البك:

ـ الحقّ أني لا أفهم ماذا أردتَ أن تقول.

ولكن الرسول تجاهل عبارة البك ليضيف إلى الأحجية طلسماً آخر:

ـ أهل مصراتة أيضاً يمكنكم أن تعدّوهم في أوّل الطابور الذي يقف على أهبة الاستعداد لنجدتكم!

تأمّل البك ضيفه بدهشة. ثمّ ما لبث أن أطلق ضحكة مقتضبة قبل أن يسأل:

ـ لم أحسب نفسي أبداً أنّي في حالة حرب، ولكن إذا كان أهل مصراته يصرّون على هذا فلا شكّ أنهم قد أبصروا دخاناً ينطلق من حريقٍ اشتعل في ركنٍ مّا برغم جهلي به!

تضاحك مرّة أخرى، ولكنه ما لبث أن فوجىء بالرسول وهو يقول:

ـ الحقّ يا سعادة البك أن أمر هذا الحريق لم يعد يُخفى على أحد، وأخشى لو سمحتم لي أن تكونوا آخر من يعلم بالفعل!

ابتلع البك ضحكته العصبية. قال:

ـ حسناً. ماذا يقترح أكابر مصراته؟

أجاب الرسول بلهجة حماس:

ـ أكابر مصراته يقترحون أن تختطفوا زمام المبادرة قبل فوات الأوان!

ـ اختطف زمام المبادرة؟

ـ أهل مصراته يقولون في رسالتهم أنكم تستطيعون أن تعتمدوا عليهم فيما إذا قررتم أن تبادروا!

سكت الرسول. قال البك دون أن تفارق البسمة شفتيه:

ـ هل يقترح أهل مصراته أن أتخلّص من الباشا بمساعدتهم؟

أجاب الرسول في الحال كأنه كان ينتظر هذا السؤال:

ـ إذا لم تتخلّصوا أنتم من الباشا اليوم تخلّص منكم الباشا غداً!

ـ هل هذا ما يراه عقلاء دياركم حقّاً، أم هذا ما يراه الحاج سالم؟

ـ هذا ما يراه الكلّ يا صاحب السعادة. ويريدون أن يذكّروكم إلى جانب ذلك بما حدث لسلفكم البك بسبب التلكّؤ!

ـ هل يستعجلونني أيضاً؟

ـ إنّهم على أهبة الاستعداد كما قلت لكم.

سكت البك. تطلّع إلى السقف كأنه يبحث في بياضه عن جواب. قال:

ـ هل يستهين أهل مصراته بجيش المملكة إلى الحدّ الذي يظنّون فيه أنهم يستطيعون أن ينصّبوني على العرش بسواعدهم؟

ـ أهل مصراته لا يستهينون بجيش المملكة لو لم يعدّوا العدّة!

ـ يعدّوا العدّة؟

ـ أجل. جيش سيف النصر طوع بنانهم إلى جانب بدو الدواخل وفرسان القبائل الساخطة في شرق البلاد وجنوبها.

ساد سكون مرّة أخرى. تبادل البك مع الرسول النظرات مراراً قبل أن يقول:

ـ يبدو أن سيدي يوسف قد أوجع أهل مصراته بقوّة بدليل أنّهم لم يجدوا حرجاً في أن يحمّلوا رسولهم بمثل هذه الرسالة!

تبدّى الرسول لحظتها مستنفراً في حين أضاف البك:

ـ ألا ترى أن هذه رسالة كفيلة بأن تتسبّب في قطع لسانك، وربّما رأسك، فيما لو انكشف أمرها؟

تمتم الرسول:

ـ أعلم!

ـ هل كان الأمر شجاعة منك، أم هو حسن ظنّ بي؟

تردّد الرجل قليلاً. أجاب:

ـ أظنّه إلى حسن الظنّ بكم أقرب!

ـ ألا تدري أنّك أسأت بي الظنّ عندما أردتَ أن تحسن بي الظنّ؟

ـ لا أفهم.

ـ لقد جئتني برسالة تحرّضني على خيانة عهدٍ كبّلنا الله به كأبناء!

سدّد له الرسول نظرة غموض ممزوجة بتحدٍّ قبل أن يقول:

ـ كنتُ أعرف أنكم سوف تتحجّجون بهذه القشّة!

ـ هل تسمّي دَيْن الأبناء نحو الآباء قشّةً؟

ـ لم أكن لأجرؤ على تسمية هذا الميثاق المقدّس قشّةً لو لم يكن الأب أوّل من بادر بخيانة العهد يوم بارك ابن شيخوخته لينحر ابن بكارته وهو يحتمي بحضن الأمّ!

سدّد إليه البك نظرة صارمة، ولكن ذلك الرسول الغامض تلقّاها بسيماء صرامة أيضاً. هبّ بعدها البك واقفاً. قال:

ـ أريد أن أهمس في أذنك بشيء قبل أن أعلن لك قراري بشأن هديّتك النفيسة شريطة ألاّ تتهمني بالمرض!

تعجّب الرسول:

ـ بالمرض؟

ـ بلى. ثمّة أشياخ زورٍ في هذه الأنحاء يروق لهم أن يطلقوا في فتاويهم اسم المرض على اللّغز الذي أريد أن أسرّ به إليك.

انتظر الرسول واجماً فأضاف البك وهو ينحني إلى الأمام ويقرع صدره بيمينه:

ـ هنا يوجد ما يسمّيه الناس ضميراً!

تطلّع إليه الرسول بحزن. قال بلهجة صرامة:

ـ صاحب الضمير شاةٌ تسرح في قطيع ذئاب!

هتف البك:

ـ ها أنت تنوي الانضمام إلى حزب أشياخ الزور، فاحترس!

قال الرسول ببرود:

ـ حكمي لا يحمل إدانة لأحد!

قال البك بارتياح:

ـ أعلم. ولكن ما أريد أن أقوله لك أنّي أُفَضّلُ أن أحيا شاةً تسرح في قطيع الذئاب بضمير، على أن أحيا ذئباً يسرح في قطيع أنعام ولكن بلا ضمير!

قال الرسول في الحال كأنه كان ينتظر هذا الجواب:

ـ أخشى أنّك لن تحيا فيما إذا اخترتَ مصير الشاة التي تسرح في قطيع الذئاب!

تبادلا نظرة خاطفة. سأل البك:

ـ هل هذه نبوءة؟

تمتم الرسول:

ـ كلّ أمرٍ جَرَت به الأيام نبوءة!

انحنى نحوه البك. سأل بصوت مكتوم:

ـ من أنت؟

أجاب الرجل ببرود وهو ينظر إلى الفراغ:

ـ رسول أهل مصراته!

تمتم البك:

ـ يخيّل لي..

ولكن الرسول قاطعه قبل أن يكمل:

ـ يؤسفني أنكم لا تريدون أن تقرأوا مصيركم في نبوءة هي في متناول يدكم!

تطلّع إليه البك لحظة قبل أن يتساءل:

ـ أيّ نبوءة رأيتها في متناول يدي؟

أجاب الرسول:

ـ وهل هناك نبوءة أصدق تعبيراً من مصير شقيقكم حسن بك الذي لم يهلك على ذلك النحو الفظيع إلاّ لأنه تلكّأ بسبب الوسوسة؟

سَرَح البك في وقفته لحظات. قال:

ـ كان شعاري يوماً مّا: «لا تثق بأحد!».

ـ يبدو لي أنكم تخونون هذا الشعار اليوم!

ـ أمّا شعاري اليوم فهو: «الجحيم هو ألاّ نثق بأحد!».

حدجه الرسول قبل أن يقول:

ـ التذبذب بين نقيضين أسوأ من التلكّؤ. أكاد أجزم بأنك تستمرىء قَدَرك كما استمرأه قبلك شقيقك هابيل!

عاد البك يجلس قبالة جليسه. تفحّصه كأنه يكتشفه لأوّل مرة. قال:

ـ لا أحد يجزم اليوم بأن هابيل استمرأ قدره بالأمس!

الرسول: الضحيّة لا بدّ أن تستمرىء قدرها.

البك: أتفعل الضحية ذلك بسبب رهانها على الخلود؟

الرسول: الاستسلام للقدر رأس الإيمان!

البك: ما يحيّرني حقّاً في هذه الملحمة ليس إيمان الضحيّة بقدرها (لأننا كلنا لسنا سوى هابيل في هذه الدنيا) ولكن اللغز هو إطلاق سراح قابيل بمشيئة الربّ!

خيّم سكون. مضى الضيف يتعلّق بالفراغ بعينيه الفارغتين.

قال:

ـ لم يفعل الربّ ذلك يقيناً لكي يلقّننا درساً في التسامح، ولكن لينقل لنا رسالة.

لم يتساءل البك بفحوى هذه الرسالة فأوضح الرسول:

ـ قابيل لم يلوّث يديه بدم شقيقه في واقع الحال عندما قتل هابيل، ولكنه قتل الربّ!

البك: استغفر الله!

الرسول: من يقتل البراءة يقتل ربّه، من يقتل الحريّة يقتل ربّه. من يحسد أخاه على هبة نالها بتسخير من ربّ السماوات والأرض يقتل الربّ. وما نسمّيه في لغتنا كفراً بالربّ ما هو إلاّ شروع في قتل الربّ عن عمد وسبق ترصّد!

ساد صمت عميق إلى درجة تخيّل فيها البك أن قوّة خرافية طوّحت به مع جليسه إلى جزيرة خالية أو صحراء نائية حيث يستطيع الصمت من فرط طغيانه أن يستعير صوتاً مريباً، صوتاً حقيقيّاً. قال:

ـ ولكن الربّ حيّ لا يفنى ولا يموت!

قال الرسول:

ـ لم يكن بوسع قابيل أن يقتل الربّ الذي لا يفنى ولا يموت، ولكنه قتل الربّ بقتله مخلوقاً يحمل الربّ في قلبه، ولم يكتشف القاتل أنه إنّما قتل بهذه الجريمة الربّ الذي يسكنه هو أيضاً!

البك: ولكنه لم يقتصّ من المجرم، برغم أنه جعل لنا من القصاص حياة كما تقول آية الكتاب.

الرسول: لأن هابيل لم يكن يوماً هابيل، ولكنه آية الربّ التي شاء أن يحمّلها وزر الغفران الذي شاء أن يمنّ به على مخلوق اقترف إثماً جسيماً في حقّ خالق المخلوق لا في حقّ المخلوق!

البك: كأنّي بك تريد أن تقول أن سيرة قابيل من أوّلها إلى آخرها ما هي إلاّ أحجية في غفران ما لا يُغتفر في ناموس الربّ وهو الكفر!

الرسول: ها أنتم تجيبون بأنفسكم على سرّ إطلاق سراح قابيل الذي استنكرتموه منذ قليل!

سكت البك في غيبته، هام بعيداً في ملكوت صمته إلى أن قال:

- إذا صدق ما تقول فإنّ هابيل لم يكن إلاّ وَحْياً!

- هابيل كان وَحْياً تشبّه بهابيل، كما تشبّه إسماعيل بين يدي سيّدنا إبراهيم لينقلب كبشاً، وكما تشبّه سيّدنا عيسى بسيماء سيّدنا عيسى بين يدي جلاّد آخر لم يكن يوماً غير قابيل جديد!

سكت لحظة. أضاف:

- قابيل الخالد!

- هذا هو السؤال: بأيّ حقّ يفوز الجلاّد بالخلود وتذهب الضحيّة هباءً منثوراً؟

ابتسم الرسول بغموض. أجاب:

- ألم نتفق منذ قليل أن الضحية لم تكن يوماً سوى وَحياً؟

- ولكن الضحية تريد أيضاً أن تحيا.

- من يريد أن يحيا عليه أن يرتضي أن يموت. أمّا الوحي فهو روح الربّ الذي لا يفنى ولا يموت.

سكت البك. فزّ فجأة. خطا في بلاط المكان خطوات. قال:

- ألا يعني هذا تحريضاً على الاستسلام لسيدي يوسف بدل التشجيع على الوقوف في وجهه؟

أجاب الرسول بيقين:

- ولكن ما أعلمه أنكم لم تروا في أنفسكم وحياً في يوم من الأيام!

قال البك بخيبة أمل:

- صدقتَ. لم أكن يوماً سوى مخلوق دنيويّ من لحم ودم.

ولكنه ما لبث أن أضاف:

- ماذا تريدونني أن أفعل بأبي فيما لو قبلتُ عرضك وأفلحت في زحزحته من العرش؟

أجاب الرسول بتسليم:

- لقد كفتكم السجيّة الربوبيّة شرّ الخيار.

تابعه البك بفضول قبل أن يضيف الرجل:

- هذا كلّ ما يمكن أن يقال عن رجُلٍ يضع رِجْلاً في الأرض وأخرى في القبر منذ زمن بعيد.

- قد يحيا رَجُل برِجْلٍ في القبر ما لا يحياه آخر وهو يتمنّى أن يخرق الأرض ويتطلّع لبلوغ الأجبال طولاً.

- في هذه الحال هناك المنافي!

استمرّ البك يخطو ذهاباً وإيّاباً. توقّف أخيراً. قال:

- لكي أعبّر لك عن قراري لا أملك إلاّ أن أقول: لو لم تأتني رسولاً لأمرتُ بصلبك على باب زنّاتة!

هيمن سكون مميت قبل أن يتمتم الرسول:

- فهمت!

قال البك بلهجة المعتذر:

- لم أكن لأتخذ هذا القرار لو لم أعتبر الرسالة طعنة موجّهة إلى أعزّ ما أملك: الضمير!

فزّ الرسول واقفاً. قال مودّعاً:

ـ لا بدّ أن هابيل أيضاً استمتع بذلك الإحساس المبهم الذي يستشعره كلّ من قرّر أن يغدو أضحية!

هتف البك:

ـ تريد أن تقول: الإحساس بالحريّة؟

ولكن الرسول لم يجب.

## 24

أَذِنَ لها بعد هجعة القيلولة. انتهرها ما أن جلست:

ـ يبدو أنّكِ لا تنوين أن تتوبي أبداً عن معاشرة المرآة!

طأطأت باستحياء مفتعل قبل أن تحاول تحويل بدعة تحريم المرايا إلى دعابة:

ـ المرآة قرين المرأة يا مولانا منذ اجتثّ الله المرأة من ضلع آدم.

قال الباشا بلهجة ذات معنى:

ـ تريدين أن تقولي منذ زَنَى آدم بهذه الحيّة!

ثم ما لبث أن أضاف:

ـ المرآة سبب السقطة وليس الحيّة أو أيّ شيطان آخر، فتذكّري جيّداً!

ابتسمت للاّ حلّومة وهي تدفن وجهها في ثنايا لحافها. قالت:

ـ ما المرأة إلاّ مرآة يا مولانا. أنت تعلم.

ـ تريدين أن تقولي أن المرأة لا تستطيع أن تستغني عن هذه

الآلة، أليس كذلك؟ تريدين أن تقولي أن المرأة لا تستطيع أن تستغني عن الخطيئة (أو فلنقل عن الزّنى إذا قرّرنا أن نسمّي الأشياء بأسمائها) أليس كذلك؟ تريدين أن تقولي أنّك لا بدّ أن تدخلي المرآة إلى مخدعكِ لأنّي هجرتُ مخدعك، أليس كذلك؟ تريدين أن تقولي أن المرآة أصبحت في يدك بديلاً لحليلكِ منذ دخلت إستير ربوع هذا القصر، أليس كذلك؟

توعّدها بسبّابته ليضيف جادّاً:

ـ أنتِ تزنين يا امرأة دون أن تعلمي المصير المنكر الذي ينتظر المرأة الزانية!

طأطأت المرأة بخجل حقيقي، وربّما بسخريّة أتقنت نسج قناعها بالمران الطويل. تمتمت:

ـ أجارنا الله من. .

قاطعها الباشا:

ـ هل تدرين ما هي العاقبة التي تنتظر امرأة تختلس النظر إلى المرآة؟ أم أنّكِ نسيتِ نهاية أجمل امرأة في طرابلس التي لم تنل هذا القصاص إلاّ بسبب تعلّقها بآلة إبليس هذه التي تسمّونها مرآةً؟

همّت للاّ حلّومة أن تتكلّم ولكن الباشا استوقفها:

ـ والآن هاتي ما عندك!

أدركت أنه لن يهبها مهلة الوقت التي انتظرتها لأنه، كما أَوْحى لها دائماً، في عجلة من أمره. قالت:

ـ الأبناء!

قاطعها بجفاء:

ـ اللعنة على الأبناء!

استنكرت المرأة بصمت. ولكنها تمالكت نفسها لتقول:

ـ لا أريد أن أفقد مزيداً من الأبناء يا مولانا بسبب الهراء!

استنكر الباشا أيضاً:

ـ الهراء؟

استجمعت للاّ حلّومة كلّ ما امتلكت من بأس. رفعت إليه رأسها لتنظر في عينيه لأوّل مرّة. قالت بيقين:

ـ ما هي البكوية في رأي مولانا إن لم تكن هراء؟ ما هو الجاه إن لم يكن هراء؟ ما هو المال إن لم يكن هراء؟ بل ما هي الكبرياء إن لم تكن هراء إذا قورن كلّ ذلك بالكنز الذي يوهب لنا مرّة واحدة ليؤخذ منّا إلى الأبد فنخسره ونخسر الله معه فيما إذا أسأنا استخدامه؟

التقطت نفَساً عميقاً قبل أن تلفظ العبارة:

ـ كنز الحياة يا مولانا!

تهكّم الباشا بعد لحظة:

ـ إيّاكِ أن تقولي أن المرأة وحدها تهب هذا اللغز (الذي أسميتيه منذ قليل حياةً) المعنى المفقود!

ـ ولِمَ لا يا مولانا؟ المرأة التي حَرمتَها أنت من المرآة دون أن تدرك أنها لا تحتاج إلى مرآة كي تكتشف الغيوب وتعود من مجاهلها

بالنبوءة (لأنها تمتلك مرآة في قلبها أعظم شأناً من كل مرايا الدنيا)، هذه المرآة لا تعطي المعنى المفقود (كما تسمّيه) للحياة فحسب، ولكنّها هي الحياة نفسها. ولو تقاتل أبنائي بسبب امرأة لما وجدتُ نفسي مضطرّة للمثول اليوم بين يديك كي تعينني في إيجاد مخرجٍ لإنقاذهما بعد أن فقدتُ أكبرهم!

سكت الباشا. تفحّصها بعينين جاحظتين متعبتين قبل أن يتساءل:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أنت تعرف ماذا أريد يا مولانا.

رمقته بنظرة. أضافت:

ـ بمثل هذه السّفاسف حول القبائل والأعوان والحملات والادّعاءات دفع حسن بك الحياة ثمناً!

ساد صمت. توسّلت مرّة أخرى:

ـ أنت الوحيد يا مولانا الذي يستطيع أن يضع لمأساتي حدّاً.

أسبل الباشا جفنيه. استرخى في مقعده. انتظمت أنفاسه حتّى ظنّت للاّ حلّومة أنّه نام. ولكنه ما لبث أن تساءل مغمض العينين:

ـ ليس عسيراً أن تظنّي هذا لأنّك لو كنتِ مكاني لأدركتِ كم هم أشقياء أبناؤكِ هؤلاء!

فزّت من عين المرأة دمعة، في اللحظة التي أضاف فيها الباشا:

ـ إنّهم مسكونون بمردةٍ لا يمكن التّنبؤ بما ينوون فعله. ولا يروق لهم أن يفعلوا إلاّ ما يمليه عليهم شياطينهم. هذا بسبب تربيتكِ لهم. أنت السبب!

ـ في نهاية المطاف لا يفعلون يا مولاي عادةً إلاّ ما تريد أنت.

احتجّ الباشا:

ـ تقولين هذا لأنّك لا تعلمين كم يكلّفني ذلك من عناء. إنّهم لا يرحمونني حتّى وهم يرون كيف أضع رجلاً في الأرض وأخرى في القبر بسبب المرض والشيخوخة والهمّ!

ـ ولكنّك تستطيع أن تمنعهما من أن يتقاتلا بسبب الحملة على مصراتة اللعينة هذه!

قال الباشا ببرود وهو ما يزال مغمض العينين:

ـ لو كانت مصراته وحدها هي سبب هذا الصراع لأمرتُ بمحوها من الوجود!

ساد صمت. وشوشت المرأة كأنّها تخاطب نفسها:

ـ لا أريد أن أفقد ابناً آخر. إذا فقدتُ ولداً آخر فسوف أُجنّ، وإذا لم أجنّ فسوف...

سكتت لحظة قبل أن تضيف:

ـ أقتل نفسي!

ولكن الباشا لم يتزحزح، كأنّه لم يسمع تهديدها، وربّما سمع ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع. لأن فسحة الاسترخاء هذه تمنحه الحقّ في أن يسمع ما يريد أن يسمعه، كما تعصمه ممّا لا يريد أن يسمع.

تأمّلته لحظات دامعة. لملمت أطراف لحافها في نيّة الانصراف عندما قال الباشا:

ـ الصواب الذي سيرضي الطرفين هو: أن يذهبا معاً إلى مصراته أو لا يذهب أيّ منهما.

سكت. قالت المرأة:

ـ أفضّل يا مولانا ألا يذهبا.

قال الباشا:

ـ الحكمة ترى عكس ما ترين: الأنسب أن يذهبا معاً، لأن لا شيء يستطيع أن يطفىء لهيب الضغينة كالرفقة في بليّة!

## 25

غرق الباشا في عرشه. تطلّع إلى البحر عبْر النافذة. في المرفأ جثمت السفن. ولكنه لم يرَ السفن. رأى البحر الذي يترامى خلف زحام السفن ولكنه لم ير السفن. سَكَنَ في جلسته لأنّ سكوناً آخر تسلّل ليسكن قلبه أيضاً كأنه رؤيا، وربّما وحي. تلك كانت رسالة البحر الذي جاوره دوماً واغترب عنه دوماً. في رحاب ملكوت ذلك اليوم فكّر لأوّل مرّة في حقيقة الهاوية. فكّر في حقيقة الهاوية التي سيذهب إليها وتقول إستير أنّ كتابها يصفها بأنها لا خير فيها. فماذا انتظر؟ ماذا انتظر من دنياه حتّى ينتظر شيئاً آخر غير الباطل الذي تعد به تلك الهاوية الحمقاء؟ ماذا انتظر من المهزلة حتى يحلم بالفردوس كراءً؟ ابتسم باستخفاف عندما تذكّر الفردوس. لقد أدرك الآن أن لهو دنياه كلّه لم يكن سوى محاولة لدفن الخوف من الموت. محاولة بطولية لنسيان قدَره الذي تسمّيه إستير هاويةً لا خير فيها. فإن فعل خيراً أو أتى شرّاً

فمصيره الهلاك. فلماذا لا يحقّ له أن يستبدل الصلاة باللهو؟ أليست الصلاة لهو أهل العبادات؟ فلماذا لا يكون اللّهو صلاة أهل الدنيا الذين لا يصدّقون خرافة الخلود، ويسخرون من الوعد المؤجّل بالفردوس؟

دخل الحاجب ليعلن رغبة الكاهية في المثول بين يديه. أومأ للحاجب دون أن يعود من رحلة البحر. دخل الكاهية. لم يلتفت للكاهية. تقدّم ليلثم يده قبل أن يقدّم له قرطاساً ملفوفاً في رقعة قال أنه رسالة البك. تناول الباشا الرقعة ثم ألقى بها على المنضدة. عاد إلى البحر. عاد لمطاردة الفردوس المفقود. ثم الفردوس الموعود. قال أن الأهمّ من الفردوس المفقود هو الفردوس الموعود. المهمّ هو الفردوس القابل لأن يُستعاد. وانتهى إلى أنه لن يستحقّ التضحية بالدنيا في كل الأحوال ما لم يفز من المجهول بالبيّنة. ما لم يَنَلْ البرهان. ولكن أين يمكن الفوز بهذا البرهان؟ لم يرَ في آيات الكتاب (بل وفي آيات الكتب كلّها) سوى الوعود. فهل يضحّي بنعيمٍ في متناول اليد بنعيم آخر موعود، أو بالأصح، موهوم؟ هل من الحكمة حقّاً أن يستهين بما تهبه الحياة طمعاً في أن ينال مكافأة مشكوك في أمرها لم يحدث يوماً أن عاد من رحابها من يضمن البرهنة على وجودها؟ ها ـ ها ـ ها..

أفلتت من صدره ضحكة استخفاف. وكم اندهش عندما اكتشف وجود الكاهية. فماذا يفعل هذا الأحمق إلى جواره؟ لقد فكّر مراراً في الاستغناء عن عمل الكاهية الأبله، ولكن الإنسان الحكيم الذي ورثه عن أسلافه هو الذي شفع لهذه الوظيفة البلهاء. وها هو الحكيم يُصرع

بطعنة من يد سيدي يوسف وهو الذي عاش حياة طويلة ظنّها المسكين آمنة لأنّه لم يشترك يوماً في حرب، ولم يتورّط في نزاع، ولا تطاول في صفقة يمكن أن تجلب له لعنة، كما لم يحدث أن حمل سلاحاً، ولا حتّى مدية أو سكّيناً، ولم يتوقّع في يومٍ من الأيام أن تبلغ سجيّة السخرية في الأقدار حدّاً يجعلها تختاره من دون أوغاد القصر المدججين بأبشع صنوف السلاح، فينال طعنة بذات الأداة الكريهة التي أنكرها في حياته الطويلة دائماً بسببٍ أتفه من أن يُذكر ألاَ وهو: الاستفهام عن حقيقة هرجٍ انبعث من جناح الحريم، دون أن يدري أن الاستفهام أحياناً عمل أعظم شأناً من كل الأعمال. والدليل أن الله لا يقتصّ منّا إلا بسبب الفضول الذي نخفيه في الأسئلة. وهو ما يعني أن السؤال عمل منكر لأننا لولاه لما ارتكبنا تلك الخطيئة التي غرّبتنا عن هويّتنا وفقدنا بسببها الفردوس. آه، ها هو الأمر يقود إلى الفردوس مرّة أخرى! وهو لا بدّ أن يقود إلى الفردوس لأن لا يقين بوجود شيء ما لم يوجد الفردوس. وكلّ إيمانٍ زور ما لم نفرغ أوّلاً من البرهان على وجود الفردوس.

أعادته من رحلته عبارة الكاهية:

ـ الرسول في انتظار ردّ مولانا!

ـ أيّ رسول؟

ـ رسول البك يا مولانا.

ـ ولكن.. ولكن لماذا لا أرى رسالة سيدي يوسف أيضاً؟

تلكّأ الكاهية لحظات. قال:

- لم يصل رسول سيدي يوسف بعد يا مولانا.

قال الباشا وهو يشيح بوجهه مصمّماً أن يعود إلى رحلة البحر مهما كان الثمن:

- لن أفتضّ الرقعة قبل أن أتلقّى رسالة سيدي يوسف!

تردّد الكاهية لحظات. قال في النهاية:

- مولانا يعلم ما سينالنا من خسارة فيما لو توقّف مصير الحملة على فحوى هذه الرسالة!

فكّر الباشا. عاد إلى ساحة البحر. قال:

- لن أفتح هذه الرقعة حتّى لو توقّف عليها مصير المملكة كلّها ما لم يأتني الرسول برقعة سيدي يوسف!

غزا وجنتي الكاهية شحوبٍ. في عينيه لاحت سيماء الدهشة. ولكنه ما لبث أن حيّا الباشا بانحناءة قبل أن يخرج.

زفر الباشا بعد ذلك، وتهيّأ لركوب البحر. ولكن الرقعة زرعت في قلبه بلبلة. لقد خرج الكاهية ليشيع في الأروقة عن غرابة أطواره الأساطير. وهو لا ينوي أن يلومه في ذلك لأنه لا يعرف هو نفسه لماذا فعل ما فعل. بل لم يعرف يوماً لماذا يفعل ما يراه الناس غرابة أطوار. هؤلاء البلهاء لا يدرون بطبيعة الحال أن لا أحد يدري لماذا يفعل ما يفعل. هم أنفسهم لا يدرون برغم يقينهم بأنهم يدرون لمجرّد أنهم مقتنعون بأنهم يدرون. ولكن الاقتناع أمر وحقيقة الفعل أمر آخر. يروق

لهم أن يحتكموا لخرافة اسمها المنطق، ولكنه لم يؤمن بالمنطق في أيّ يوم. فبأي حقّ يؤمن بالمنطق إذا كان هذا المنطق أعجز وسيلة في اكتشاف حقيقة الفردوس الموعود؟

لقد صرعته الغيبوبة منذ زمن فذاق طعم الموت حقّاً، ولكنه برغم الموت لم يرَ لهذا الفردوس ظلاًّ! لقد انتظر للغز حلاً في تلك التجربة الرهيبة، ولكن الحلّ لم يأتِ. انتظر الحساب على نحوٍ خفيّ لا يستطيع أن يعبّر عنه بعضلة اللسان، ولكن ملكوت الخفاء خيّب يومها ظنّه. انتظر بفارغ الصبر أن يفوز بإشارة، مجرّد إشارة، فيما كان القصر يتكأكأ فوق جسده المسجّى. ولكن السماء بخلت عليه حتّى بالإشارة، فلم يجد مفرّاً من العودة إلى الوراء مهزوماً. ذهب إلى الغيبوبة التي حلم بها أملاً في أن يعود من ظلمات الرحلة بالجواب على السؤال الخالد، ولكنه لم يعد إلى الوراء بغير العماء. ذهب سعيداً، وعاد شقيّاً. ذهب إلى النَّوْبَة، إلى بوابة الموت، سعيداً يستجدي، ولكنه عاد إلى الحياة شقيّاً لأن الملاك الملفوف بقناع الظلمات أنكر فيه النداء، أنكر فيه السؤال حتّى أنه من فرط إنكاره أعاده إلى الوراء، إلى جحيم الحياة الذي لم يكن ليكون جحيماً لولا خُلُوّهُ من الجواب.

رحلة العودة كانت دليلاً كم هو مضحك أن يفرح الإنسان بالبعث! وما سيرة الشقيّ عزيز سوى الدليل الآخر على ذلك. فقد جاءه هذا الأحمق منذ أعوام بعد منتصف الليل ليقول له أنّه لم يجرؤ على إزعاجه في هذا الوقت المتأخّر لو لم تكن تحيّة الوداع هي السبب.

وعندما استفهم عن وجهته أجاب ببرود: «إلى الجانب الآخر من المرآة». كان في عينيه إيماء غامض ممزوج بروح تحدٍّ لم يعرفه فيه يوماً؛ وهو ما جعله يومها يأخذه مأخذ الجِدّ فسأله مداعباً كما اعتاد أن يفعل معه دائماً كلّما ابتسم له الحظّ وصَفَت في نفسه الأجواء: «ماذا تريد أن تقول بهذا يا خنزيري العزيز؟». (أطلق عليه لقب «خنزيري العزيز» منذ ذلك اليوم الذي أقبل فيه من وراء البحور مطارداً من سفن فرنسا الحربية ليعتنق الإسلام برغم إخفاقه في التخلّي عن أكل لحوم الخنازير). أجابه يومها قائلاً أنه قرّر أن يكتشف الحقيقة الضائعة بنفسه بوضع حدّ لحياته! في البداية ظنّه ثملاً. ثمّ تذكّر تهمة غرابة الأطوار التي ألصقها به أهل القصر عندما سُمِعَ مراراً وهو يحدّث نفسه بصوت مسموع؛ ولا يكتفي بتلاوة الأشعار بلغة مجهولة الهويّة (تبيّن فيما بعد أنها اللاّتينية) ولكن استمرأ الأمر إلى حدّ شجّعه على قول الأشعار لا بلغته الفرنسية وحدها، بل باللغة العربية قبل أن يكلّف نفسه عناء إتقانها. وعندما دفعه الفضول لمساءلته عن حقيقة هذه الأشعار اعترف بالجُرم. ثم لم يستحِ من أن يقرأ عليه بعض الأبيات التي وجدها لا تخلو من غرابة برغم روعتها.

قال له يومها: «لا أحسبك فيما تقول جادّاً». فأجاب: «كل الجدّ. لقد مللت يا مولانا أن أحيا في الجحيم. لهذا السبب قررتُ اليوم أن أتحرّر!». تأمّله طويلاً قبل أن يقرّر العزف على الوتر الموجع الذي اعتاد أن يلتجىء إليه دائماً في مثل هذه الأحوال: «أنت تنسى أنك

ترتكب حماقة يحرّمها الدّين! هل نسيت أنّك مسلم؟» فأجاب: «وهل صدّقت يا مولانا أنني مسلم؟».

رمقه باستنكار فأضاف الوغد دون أن يرفّ له جفن: «ظننت مولانا يعرف كل شيء!». استفهم بإيماءة، ولكن الشقيّ لاذ بالصمت فلم يجد مفرّاً من الصراخ في وجهه: «أعرف ماذا يا خنزير؟». لحظتها فقط أجابه بالبرود ذاته. برود إنسان فرغ من كل شيء ولم يعد يكترث أقامت القيامة أم قعدت: «لم أظنّ أن مولانا صدّق يوماً إيمان من يروق لكم أن تسمّوهم أعلاجاً! إنّهم جميعاً أدعياء إيمان والمخلوق الذي يحدّثكم يقف على رأسهم. ها ـ ها ـ ها.. إنّهم لا يؤمنون بأيّ ربّ، ولا بأي شيء وإلاّ لما عاثوا في البحار فساداً. ها ـ ها ـ ها..». أفلح في خنق ضحكته بجهد جهيد. مسح دموعاً فزّت من عينيه قبل أن يضيف: «أريد أن أسرّ لمولاي بشيء له صلة بهذه المناسبة. تستطيع أن تسمّي ذلك رغبةً أخيرة: لا يليق بالرجل النبيل أن يصدّق أكذوبة اعتناق الإسلام هذه، فكيف إذا كان هذا الرجل ملكاً؟ وصيّتي الأخيرة لمولاي ألا يثق بهؤلاء الأوباش، لأن لا أحد يستطيع أن يبدّل دين آبائه كما يستبدل ثيابه. لن يستطيع أن يفعل حتّى لو أراد. وإذا فعل فهو كاذب، لأن الديانة إذا كانت حقيقية (أعني إذا كانت إيماناً وليست مجرّد شعائر) هي سرّ الأسرار الذي لا يستعصي على الفهم فحسب، ولكنه لا يقبل التفسير. لهذا السبب نرى في دياركم أناساً يعتنقون ديانات تستطيع أن تقول أنّها وثنيّة دون أن يدروا. لماذا؟ لأنهم ورثوها في تكوينهم لا في

سلوكهم وحده. لماذا مرّة أخرى؟ لأن الديانة يا مولاي أعجوبة وُجدت لتبقى لا لتفنَى حتى لو أطلقنا عليها اسماً نحاول أن نجعله معيباً مثل الوثنية. ولا بقاء لها إلاّ في قلب الإنسان. إنها خالدة ما دامت مسكونة بالله. وما خلودها في قلب المخلوق إلاّ لأنها وصيّة مستعارة من لدن الخالق. وهو أمر يجعل من تناحر الديانات عملاً مضحكاً، لأن من آمن بأيّ من هذه الأديان فإنما يؤمن بربّ الديانات لا بالديانات. والآن فليسمح لي مولاي أن أعبّر له عن امتناني جزاء كل ما فعله من أجلي معرباً في الوقت نفسه عن أسفي حتّى لا يظنّ أني خذلته بقراري اليوم، آملاً أيضاً أن يغفر لي ثرثرتي!».

التقط قبعته وخرج. انحنى عندما بلغ الباب وابتسم ابتسامة غامضة. ولكن.. كلاّ، كلاّ. تلك الابتسامة لم تنطق بأيّ غموض. بل نطقت بشيء آخر. بمعجزة أخرى. نطقت بالعنقاء المفقودة في كل الأركان وفي كل الأزمان. نطقت بالسعادة!

في اليوم التالي قيل له أن «عريزه» الغريب الأطوار ختم غرابة أطواره بطور جديد كان أغرب من كل أطواره: أغرق نفسه في بالوعة براز!

فماذا أراد هذا الشقيّ أن يقول بهذه الرسالة؟ هل هي درس في البطولة، أم وصيّة استهانة بالجسد؟

ولكن الحقيقة لم تتنازل عن عرشها. لقد ذهب إلى ديارها وحيداً وعاد من ظلماتها وحيداً. أهل القصر تشدّقوا كما يليق أن يتشدّقوا

فردّدوا: «لقد ولدتم من جديد يا مولانا؟». ولم يدروا أن الميلاد من جديد (أو الميلاد الثاني كما يسمّيه النصارى في أناجيلهم) ليس فردوساً موعوداً، ليس حتّى نجاةً، ولكنه خيبة أمل. هذا إذا لم يكن هذا الميلاد قصاصاً!

## 26

يوم عاد البك من حملة مصراته برفقة سيدي يوسف أُصيب الباشا بمسٍّ لم يعرفه أحد فيه يوماً. لقد انتظر أن يستقبله الأب بالأحضان كما يليق بملكٍ جاءه قائد جيشه برايات النصر، فكيف إذا أقبل عليه حاملاً، إلى جانب رايات النصر، رأس العدوّ؟

بلى، بلى. هو أيضاً حمل للباشا رأس العدوّ. فإلى جانب توفيقه في سحق الأعداء تمكّن من العودة برأس ابن زعيم العصاة الأبدي المدعو سيف النصر! وبدل أن يهلّل الباشا ابتهاجاً بهذا الفوز أُصيب بنوبة جنون كادت تطيح به لتعيده إلى رحاب الغيبوبة التي كادت تكتم في صدره الأنفاس كما حدث يوماً.

حدثت هذه الزلزلة في اللحظة التي كشف فيها أحد الأعوان عن الرأس الملفوف في ثنايا رقعة جلدية، أشبه ما تكون بجراب بائد، فتبدّت السيماء: وجه معفّر بالغبار. جبين موسوم ببعض الكدمات الدامية. شفتان مزرقّتان منفرجتان عن أسنانٍ انكسر بعضها. من فوهة الفم برزت حبيبات ملحٍ كأنها قطع الحصباء. الأنف أيضاً مشوّه بكدمات ويبيس دم. من فتحة الأنف نزّ خيط دم تيبّس ليرسم حول

الشفتين طريقاً على شكل هلال. العينان مفتوحتان على مقلتين يومض فيهما إيماء غامض. مزيجٌ من تسليمٍ ودهشةٍ واستفهامٍ وبهجةٍ بخلاص. ثمّة إشارة خفيّة أخرى استوقفت البك في تعبير المقلة. هل هو استخفاف؟ هل هي فجيعة بسبب حياة لم يكتمل نصابها لأنها لم يُقدّر لها أن تُعاش؟ أم أن ذلك الطلسم لم يكن غير اتّهام منكرٍ ببطلان كل هبات الدنيا، ببهتان هبة الحياة نفسها؟ أم أن الإيماء كان تعبيراً عن ذلك السرّ الذي يستحيل التعبير عنه بأيّ لغة سواء أكانت كلماً، أم إيماءً، أم رمزاً؟

كان الباشا يومها قد جمع أعضاء الديوان لا ليحتفي معهم بالنصر، ولكن ليستعرض أمامهم قوّته التي شكّكوا فيها دائماً، سيّما في الآونة الأخيرة. ويبدو أن الأقدار قررت أن تسخر منه لتحرمه نعمة التباهي حتى بهذه العطيّة الصغيرة. فما أن تكشّفت الرقعة المشئومة عن سيماء سليل سيف النصر (الذي أقبل عليه يوماً مبعوثاً من أبيه كبرهانٍ على حسن النوايا ليعجب من منطقه إلى الحدّ الذي جعله يطعمه من خبزه) حتّى أصيب بالشلل: غزا وجنتيه الشحوب في البداية، ثمّ تشبّث بمسندي كرسي العرش بكلتا يديه وهو يرتجف جاحظ الحدقتين، فعمّ المجلس سكون الأموات.

شلّت الدهشة البك أيضاً. تابع الأب بذهول. انتظر من أحد الأعوان أن يفعل شيئاً لإنقاذ الباشا من نوبةٍ أكيدة. من نوبةٍ مميتة. ولكن أحداً لم يحرّك ساكناً. كأنّ الصاعقة التي تنزّلت على رأس الباشا

قد أصابتهم أيضاً، إلى درجة أن البك لم يعرف كيف واتته الشجاعة في أن يتمتم في ذروة الوجوم:

ـ أبي!

لم يخاطب الأب بلقب «باشا»، ولا بلقب «مولاي» كما اعتاد أن يفعل (وكما اعتاد كل الأبناء أن يفعلوا) بحضور الأعيان، بل وفي كلّ المحافل الرسمية.

ولكن الأب لم يجب فاستنجد بسيدي يوسف ببصره. ولا يعرف لماذا أُصيب بخيبة أمل بل بيأس ما أن أبصر بسمة المكر في عين هذا الشقيّ. أشاح ببصره ليكذّب الوسوسة وتقدّم من الأب خطوة ليهمس في أذنه:

ـ هل نستدعي الطبيب يا أبي؟

التفت إلى الأعوان ليأمر باستدعاء الطبيب، ولكن الأب لم يمهله لأنّه انفجر في وجهه في اللحظة نفسها:

ـ طبيب؟ تريد أن تستدعي الطبيب يا ابن الزانية..

حاول أن ينهض ولكن قواه خذلته فانهار في جوف العرش. من جبينه رأى القوم كيف فزّت حبّات العرق. حول شفتيه نزّ الزَّبَد. في صفوف الأعيان علت همهمات. صرخ الباشا:

ـ شفائي ليس في أن تأتيني بطبيب، ولكن في أن تغرب عن وجهي..

بدأ يلهث. جاهد لينهض مرّة أخرى. أخفق من جديد. في تلك

اللحظة كان سيدي يوسف ينسحب إلى الركن وهو يخنق ضحكة خبيثة. أمّا البك فقد تراجع إلى الوراء وهو يردّد كالأبله:

ـ ولكنّي لا أفهم يا أبي..

قاطعه الباشا بجنون:

ـ لا تفهم؟ تقول لا تفهم؟ أبعثك لتأديب عصاة مصراتة فتأتيني برأس إنسان وهبته بالأمس الأمان؟

كرّر البك كالأبله:

ـ ولكنّي لا أفهم..

ـ بل تفهم. لقد فعلتَ ما فعلت عامداً. أنت لا تكتفي بأن تتآمر لتدفع بي إلى الهاوية، ولكنّك تريد أن تلوّث اسمي قبل أن تدفنني في الهاوية!

ردّد البك بذهول:

ـ أبي! ماذا تقول يا أبي..

هدّده الباشا وهو ينتفض:

ـ إيّاك أن تناديني بـ «أبي»! أنت ابن زانية ولستَ ابني! كلّكم أبناء زانية..

ـ ولكن من حقّي أن أفهم عن أيّ أمانٍ تتحدّث..

ـ عن أيّ أمان أتحدّث؟ ألم أطعم هذا الفتى بالأمس على مائدتي؟ بأيّ حقّ تذهب اليوم لتأتيني برأسه لو لم تكن ابن زانية؟

حاول البك أن يجيب، ولكن الباشا استوقفه بإشارة من يده:

ـ لا تحاول أن تقنعني بأنّك فعلتَ ما فعلت عن حسن نيّة. أنت تريد أن يشمت القوم بي. أنت تريد أن تلطّخ اسمي بين القبائل. أنت تريد أن تقطع دابر صيتي الذي لا أملك سواه ولم أملك يوماً سواه. أنت ذهبتَ إلى أبعد من ذلك لأنّك أشعلتَ فتنةً بيني وبين ربّي!

علت صيحات الاستنكار. في المجلس عمّت البلبلة. حاول البك أن يستنجد بشقيقه، ولكن سيدي يوسف اعتصم بالزاوية وطفق يهأهىء كاتماً ضحكات الخبث. ردّد البك ببلاهة:

ـ أشعل فتنة بينك وبين الربّ؟ كيف لي أن أشعل فتنة بين مولاي وبين ربّه؟

زعق الباشا:

ـ ما معنى خيانة العهد إن لم تكن فتنة بين العابد ومعبوده؟ أم أنّك نسيتَ ميثاقي مع هذا الولد يوم أجلسته على مائدتي لأطعمه خبز العهد من يديّ هاتين؟

هتف البك:

ـ ولكّنه جاءني حاملاً بيمينه سيفاً يا مولاي، فكيف تريدني أن أعفو عنه إكباراً للعهد الذي تتحدّث عنه؟

ـ أخبرني: هل أصبته عن خطأ أم عن عمد وسبق إصرار؟

ألقى في وجهه بالسؤال ثم انتظر جوابه بعينين جنونيتين. ارتبك البك فالتفت الباشا بحثاً عن سيدي يوسف. لاحقه بالسؤال في الركن:

ـ أصدقني القول يا يوسف: هل أصبتم هذا الفتى عن عمد، أم بطريق الخطأ؟

تطلّع سيدي يوسف إلى البك أوّلاً قبل أن يجيب:

ـ لقد أصبناه يا مولاي..

سكت لحظة قبل أن يضيف:

ـ غدراً!

أطلقت حناجر الأعيان آهات استنكار مكتومة. صاح الباشا:

ـ غدراً! هل سمع القوم؟ شاهد من أهل الحملة يؤكّد أن الفتى قُتل غدراً!

ترافع البك:

ـ ولكن الحرب غدر يا مو..

ـ إخرس! الحرب لعنة وليست غدراً! الحرب بليّة وليست خداعاً..

ترافع البك مرة أخرى:

ـ لست أنا من أراد هذه الحرب يا مولاي.

ـ لم أردها أنا أيضاً. أنت من أنكر على سيدي يوسف الذهاب لتأديب المصارتة. ظننت إصرارك على رفض خروج سيدي يوسف يومها حرصاً على أرواح القوم، فإذا بي أُفاجأ اليوم بأنّك لم ترفض خروجه وحيداً إلاّ لرغبتك في التنكيل بهؤلاء المساكين!

ـ لم أنكّل بأحد يا مولاي. كل ما فعلته أنّي حاربت دفاعاً عن وحدة المملكة، وعن العرش، وعن صاحب العرش، ضد عصاة يتزعمهم ربّ العصيان الأبدي سيف النصر. فهل هذه خطيئة؟

ـ أنت لم تذهب لردع عصاة. أنت ذهبتَ لتأتيني برأس ولدي!

قال الباشا العبارة بفجيعة. قال العبارة بصوتٍ باكٍ فساد البلاط سكون. طأطأ الأعيان إكباراً لحزنه حتى أن دمعاً فزّ من عيون بعضهم. أضاف الباشا:

ـ كان هذا الولد هو الابن الوحيد الذي تمنيتُ أن أنجبه من بطن امرأة. لقد حدّثني بلسان لم أعرفه في ألسنة كلّ أبنائي حتّى أني حسدتُ سيف النصر كما لم أحسد إنساناً يوماً. عرفت يومها سرّ تشبّث هذا الزعيم بفلواته القاحلة. أدركتُ أن الأبناء لا يكونون أبناء ما لم ننجبهم من بطن الحرية التي تكفلها الصحراء لا من بطون النساء. لقد قيل لي مراراً أن الصحراء هي التي تنجب أبناء الصحراء وليس أمّهات هؤلاء الأبناء. فهي الأم الحقيقية التي لا تكتفي بتربيتهم، ولكنها تزرع فيهم تلك الروح الربوبية التي اكتشفتها في لسان ذلك الفتى يوم استضفته على مائدتي. أنت لا تعلم أنك قتلتَ ابني قبل أن يحيا. أنت لا تدري أنّك قتلتني معه أيضاً..

كانت الدموع تسيل على وجنتيه. وكان الأعيان يستنزلون أقنعة الكآبة على وجوههم ليلوذوا بالصمت إكباراً للمصاب، في حين وقف البك في قلب البلاط مشلولاً بعد أن صار هدفاً لنظرات الاستنكار (وربّما الاحتقار) التي تحاصره من كل جانب.

وفجأة تزلزل.

تزلزل بشرر إلهامٍ عندما تذكّر الكمين الذي دبّره للإيقاع بابن

سيف النصر. دبّره بعونٍ من سيدي يوسف، بل بعونٍ من بطانة سيدي يوسف.

في اللحظة التالية وَمَضَ نور النبوءة: الفطيسي! كيف نسي حواره مع هذا المخلوق المريب؟ هل كان مبلبلاً إلى الدرجة التي أخفقت فيها حتّى ضحكات سيدي يوسف اللئيمة في إيقاظ الحقيقة؟

ليس عسيراً أن يكتشف حتّى أشدّ المخلوقات غباءً أن الأمر منذ بدايته لم يكن سوى مؤامرة نسج خيوطها سليل الشياطين المدعو فطيسي. فقد زاره في الليلة التي سبقت المعركة الأخيرة ليزيّن له الخطيئة كما يليق بكل من انتمى إلى سلالات إبليس الرجيم. قال له بالحرف: «هل تدري بأيّ حيلة استطاع السّحرة أن يقلبوا بلاد الأدغال رأساً على عقب؟». اختلس إليه نظرة قبل أن يضيف: «استطاع السحرة أن يستولوا على وطن الأدغال يوم أفلحوا في تزوير البصيرة، فهل تفهم ما أعني؟». لم يفهم ما يعني بالطبع فأوضح اللئيم الأحجية بأحجية أخرى: «بتزوير البصيرة استطاعوا أن يزوّروا كلّ شيء. خبّأوا أجرامهم في ظلالهم، وحوّلوا ظلالهم إلى أجرام حتّى إذا طُعِنوا في أجرامهم التي تبدو للناس أجراماً نجوا بجلودهم، لأنّهم لا وجود لهم في تلك الأبدان التي تتراءى لبلهاء الناس أبداناً. بهذا كسبوا الجولة!». كانا قد قطعا في مشوارهما مسافة خلف المعسكر في ليلة سطع فيها قمر حوَّلَ ليل الصحراء نهاراً كما يحدث دائماً عندما يستوي بدراً.

خطوات أخرى قبل أن يضيف الرجل: «هذه خدعة مستعارة من

ملكوت الله بالطبع، لأن الولد ما هو إلاّ خديعة الربّ التي تعمّد أن يدسّها في قلب الأب!». في هذه اللحظة نفذ صبره فسأل: «ماذا تريد أن تقول؟».

ولكن اللئيم المتنكّر في جلد الشيخ الفطيسي المزعوم لم يجب إلاّ بعد أن قطعا في السبيل خطوات أخرى: «ليس عليك إلاّ أن تلجأ إلى ناموس السحرة لتفوز بالإجابة على السؤال. أردتُ أن أقول أن الإنسان إذا قرّر أن يحرق قلب الأب فليس أمامه إلاّ أن يصيب ابن الأب!». توقّف. التفت إليه ولكنه لم يفلح في قراءة الرسالة في سيمائه لأن ذلك الشيطان كان مقنّعاً.

أضاف بعد قليل: «إذا شئتَ أن تقهر سيف النصر فعليك أن تعدّ خطّة لقتل ابنه الذي قيل لي أنّه يقف على رأس فرسان الميمنة!».

عادا بعدها أدراجهما. في طريق العودة سارا صامتين. ولكن صاحب القناع الملقّب باسم «شلم» مال عليه ليوشوش في أذنه مودّعاً: «رأس هذا الفتى أنفس هديّة تستطيع أن تبدّد بها الشكوك وتستعيد ثقة أبيك!».

وها هو الآن يفقد بتلك المكيدة ثقة الأب بدل أن يستعيد ثقة الأب. ها هو يخسر المعركة، بل الحملة كلّها، وربّما البكوية أيضاً، بسبب هذه الدسيسة. ولكن المحيّر حقّاً ليس السقوط ضحيّة كيد (لأن حسن النيّة شهادة لا توهب بلا ثمن) ولكن اللّغز هو: كيف أفلح هذا اللئيم في التسلّل إلى روح الباشا ليعرف حقيقة مشاعره الغريبة نحو

سليل سيف النّصر وهو الذي لم يدخل القصر ولم يتعرّف إلى الباشا بعد؟

لم يخفِ الباشا لهفته في التعرّف إليه يوماً، ولكن الجواسيس أخبروه أن سيدي يوسف حاول أن يجمعهما في لقاء، ولكن صاحب الزور هذا هو من رفض مبرّراً هذه الوقاحة بعبارة غامضة تقول: «لم يحن الأوان بعد!». وها هو الوالد يتنكّر له أمام عقلاء المملكة كلّها فيحوّل قربانه جريمة، ونصره هزيمة. وها هو سيدي يوسف يكتم قهقهات الشماتة في الزاوية ليجني ثمار الحملة!

هل يشكّ بعد هذا في الأقوال التي تتحدّث عن انتماء هذا المسخ إلى سلالة الشياطين التي تقرأ الغيوب وتخنس في النفوس فلا تُخفَى عليها حتّى الظنون؟

## 27

قال سيدي يوسف:

ـ آمل أن تكون قد استمتعت بنومة الأبطال!

ابتسم بمكر قبل أن يضيف:

ـ بعد انتزاع الغلبة يروق للأبطال أن يناموا كالأموات!

قال البك:

ـ هل يستمتع الأبطال بنومهم حتّى لو اكتشفوا بعد فوات الأوان أن غلبتهم لم تكن سوى هزيمة؟

جلس سيدي يوسف على أريكة تنتصب في مواجهة مكتب

البك. تطلّع إلى شقيقه بنظرته التي تمتزج فيها سيماء الاستكبار بالخبث بروح شقاوة طفولية. قال:

ـ أنت تسيء الظنّ بمواهبك إذا كنت تعتقد أن الأوان قد فات!

ـ قبل أن تثني على مواهبي اسمح لي أن أتقدّم لك بالتهاني.

استفهم سيدي يوسف وهو يفتعل الدهشة:

ـ التهاني؟

ـ أتقدّم لشخصك بالتهنئة، لأنّك استطعتَ أن تقلب نومة البطل كابوساً بعد أن حوّلتَ غلبته هزيمة!

ـ ها ـ ها.. ليتني أملك سلطاناً يؤهلني لفعل كهذا.

ـ ربّما لا تملك السلطان، ولكنّك تملك السّحر.

ـ السّحر؟

ـ لا تحاول أن تقنعني بأن شريكك الفطيسي ليس ساحراً!

أطلق سيدي يوسف ضحكة أخرى. ابتلعها سريعاً ليقول:

ـ هل تصدّقني إذا قلت لك بأني لم أفعل ما فعلت إلاّ لأبرهن لك على ولائي؟

ـ أنت تتحدّث عن الولاء؟

ـ لقد أردتُ أن أقدّم لك الدليل على خَرَف الأب إن لم يكن ما حدث بالأمس الدليل على جنونه!

تبادل الشقيقان نظرة غامضة. تساءل البك:

ـ ماذا تنوي أن تقول؟

سكت سيدي يوسف لحظة. في عينيه لمع وميض. قال:

ـ لقد قلت لك منذ قليل أنك تسيء الظنّ بمواهبك إذا كنت تعتقد أن الأوان قد فات حقّاً!

ـ لستُ عرّافاً حتّى أفهم لغة الأحاجي.

سكت سيدي يوسف فهيمن صمت مزموم. اعتدل في جلسته. قال:

ـ أجبني على هذا السؤال: هل ترى الوالد ملكاً سويّاً بعد ما حدث بالأمس؟

ظلّ البك واجماً، يتطلّع إلى شقيقه بنظرة امتزج فيها الفضول بالدهشة بالحذر. قال أخيراً:

ـ ولماذا لا أراه ملكاً سويّاً؟

استنكر سيدي يوسف:

ـ يتنصّل منك ومنّي أمام أعيان الديوان، ثم لا تستحي أن تقول أنه ملك سويّ؟

ـ كل إنسان لغز مستغلق فكيف إذا كان هذا الإنسان ملكاً؟

عاد سيدي يوسف يستنكر:

ـ لقد بكى على ابن الأغراب كما لم يبكِ على ابنه يوم مصرعه ثم تتشدّق بأنه لغز؟

ـ الإنسان ليس لغزاً فحسب، ولكنه اللغز الوحيد الذي لا نفلح في فكّ طلسمه إلى يوم الممات!

ابتسم سيدي يوسف باستخفاف. قال ببرود:

ـ لقد نعتك بابن الزانية!

لم يستجب البك فألحّ سيدي يوسف:

ـ أيرضيك أن يصف للاّ حلّومة بالزانية في محفل الأغراب؟

ـ سبّة في لحظة غضب لن تضير للاّ حلّومة!

تململ سيدي يوسف بحركة إنسانٍ لا يعترف باليأس. قال:

ـ ما أريد أن أقوله أننا يجب أن نرحم الأب أخيراً.

ـ نرحم الأب؟

سكت سيدي يوسف لحظة. قال:

ـ إنّه مريض منذ زمن بعيد. وعندما يضيف إلى مرض البدن مرض العقل كما فعل بالأمس فإن الحكمة تقتضي أن نعمل كل ما بوسعنا كي يخلد إلى الراحة!

طأطأ سيدي يوسف أثناء ذلك فاحتجب الإيماء الذي حاول البك أن يقتنصه في عين شقيقه. ثم تسلّح بالشجاعة كي يضع النقاط على الحروف:

ـ فهمتك. أنت تريدنا أن نزيح الأب لنتولّى الأمر!

رمقه سيدي يوسف بغموض ولكنه لم ينبس. تساءل البك:

ـ هل جئتني لتقترح خلع الباشا عن العرش؟

أجاب سيدي يوسف:

ـ لسنا نحن من يريد أن يخلع الباشا عن العرش. الأقدار هي التي خلعت الباشا عن العرش نزولاً عند رغبة الباشا!

ـ نزولاً عند رغبة الباشا؟

ـ أجل. أليست حياة الاستهتار التي عاشها منذ البداية هي السبب في البؤس الذي انتهى إليه؟

فزّ البك واقفاً. عَقَد يديه وراء ظهره ثم انطلق يسعى في المكان ذهاباً وإياباً. في عينيه لاح إيماء غريب لم يعهده فيه سيدي يوسف. إيماء كأنه الخبث. قال:

ـ إذا لم تأتني رسولاً من الفطيسي فقد جئتني رسولاً من الباشا نفسه!

استخفّ سيدي يوسف:

ـ كيف آتيك رسولاً من الباشا لأقترح عليك خلع الباشا؟

ـ من حقّ الباشا أن يمتحن نواياي وهو الذي شكّك في نواياي دوماً دون وجه حقّ.

ـ من حقّك أن تسيء بي الظنون لأنّك لا ترى لي نفعاً في هذه الصفقة.

هلّل البك:

ـ صدقت. لقد فكرتُ في النفع الذي ستجنيه أنت من خلع الأب عن العرش فلم أجد جواباً.

ابتسم سيدي يوسف. قال بعد لحظة:

ـ أنت لم تجد جواباً لأنّك لم تمهلني!

التفت إلى الشقيق قبل أن يضيف:

ـ خلع الأب هو الخطوة الأولى. .

سكت فتساءل البك:

ـ والخطوة الثانية؟

ـ بالخطوة الثانية تتولّى أنت العرش في حين أتولّى أنا البكوية!

توقّف البك عن التسكّع. غاب بعيداً. قال وهو يتأمّل البلاط كأنه يستعير من رموزه النبوءة:

ـ أنت تنسى أنّ في بيتي يترعرع وريث!

أجاب سيدي يوسف بلهجة من توقّع العبارة:

ـ أعلم أن في بيتك يترعرع وريث. ولكن ليس من حقّ الوريث أن يتولّى منصب البكوية قبل أن يبلغ سنّ الرشد!

ـ فهمت. أنت تقترح أن تتولّى عنه البكوية إلى حين يبلغ سنّ الرشد!

ـ لا أحسبك ترى هذا منكراً!

تسكّع البك مرّة أخرى. على شفتيه ارتسمت بسمة مريبة. توقّف فجأة. خطا نحو الشقيق. وقف فوق رأسه. مال نحوه حتّى لامس طرف عمامته عمامة سيدي يوسف. قال بيقين:

ـ يؤسفني أن أرفض الصفقة!

كانت سيماء سيدي يوسف خرساء. ربّما لأنه أفلح في استنزال القناع على وجهه فتحجّب بالغموض. قال بخيبة أمل:

ـ هذا سوء حظّ مَنْ يملك ما يخسر!

قهقه بضحكته المريبة قبل أن يهبّ لينصرف.

في أوّل لقاء بينهما أبى الفطيسي إلاّ أن يجادل الباشا حول موقفه من المرايا. ويبدو أن الشيخ تعمّد أن يلخّص موقفه في عبارة استفزازية عندما قال:

ـ أنتم لا تدرون أنكم بتحطيم المرايا إنّما تلوون رقبة «صاحب الأتان» دون أن تتمكنوا بالطبع من القضاء عليه!

تأمّله الباشا بعينين نصف مغمضتين قبل أن يقول:

ـ لم آمر بتحطيم المرايا!

رمقه الفطيسي بنظرة امتزج فيها الاستفهام بالاستنكار فأدرك الباشا أن الرجل يتساءل عمّا إذا كان يواجه تهمة بترديد الكذب فأوضح:

ـ لقد أمرتُ يوماً بتطهير القصر من المرايا حقّاً، ولكنّي لم آمر بتحطيم المرايا.

ابتسم الشيخ بغموض. سأل:

ـ ألا ترون يا مولانا أنكم بهذا العمل إنّما تنكرون المرايا في كلا الحالين؟

ـ تحطيم المرآة هو الإنكار للمرآة، أمّا استبعاد المرآة فهو عمل من قبيل الهدنة!

ـ هدنة؟

تطلّع إليه الباشا بحدقةٍ كسولة قبل أن يجيب:

ـ بلى. هدنة! هل أسأت التعبير بكلمة هدنة يا فضيلة الشيخ؟

تكلّم الفطيسي بحماس كأنه ينفي تهمة:

ـ استغفر الله يا مولانا. ما أردت أن أعرفه هو طبيعة هذه الهدنة التي تستوجب وجود طرف ثانٍ دائماً كما تعلمون.

ـ الطرف الثاني في هذه الهدنة هو ذلك الكائن الذي أطلقتم عليه لقب «صاحب الأتان» منذ قليل.

ابتسم الفطيسي باستحياء، ولكن بسمته سرعان ما تحوّلت ضحكة. قال بعد أن أفلح في ابتلاع الضحكة:

ـ مولاي يدهشني كثيراً، لأنّي ظننتُ أنّي الوحيد الذي أوتي علماً بهذه السيرة.

ـ أيّة سيرة؟

ـ سيرة «صاحب الأتان» يا مولانا.

سكت الباشا لحظة. رمق جليسه خلسةً. قال:

ـ أنت تنسى وصيّة «صاحب الأتان» الذي تتباهى باحتكار سرّه.

ـ عن أيّة وصيّة يتحدّث مولانا؟

ـ أتحدّث عن الوصيّة التي تقول: «لا ينبغي الاستهانة أبداً بمخلوقٍ نصّبته الأقدار وليّاً على أمر الناس حتّى لو تبدّى لك مجنوناً!».

طأطأ الفطيسي. على شفتيه ظلّ ابتسامة خفيّة. قال دون أن يرفع إلى الباشا رأسه:

ـ الحقّ أنّي لم أسمع بهذه الوصيّة قبل اليوم.

ـ لم تسمع بالوصيّة لأنّك لم تحسن الإنصات للغة الطير!

شيّع الفطيسي رأسه. حدّق في عيني الباشا بمقلتين عجيبتين، لأن البياض هجرهما فتبدّتا في نظر الباشا كثقبين خاويين. أسبل جفنيه فغابت الحفرتان المظلمتان عن نظر الباشا ليسمع من فم الجليس سؤالاً:

ـ هل يتقن الباشا لغة الطير أيضاً؟

ولكن الباشا لم يجب عن السؤال. أسبل جفنيه واسترخى في عرشه قبل أن يفاجىء ضيفه بسؤال:

ـ ما أريد أن أسمعه منك بحقّ هو الموقف من الفردوس!

تمتم الفطيسي:

ـ الفردوس..

فقاطعه الباشا:

ـ إيّاك أن تحدّثني عن الفردوس المفقود! أرجو أن تحدّثني عن الفردوس الآخر، الموعود!

سكت الفطيسي. سكت طويلاً. قال أخيراً:

ـ أريد أن أعرف في البدء: أيقنع مولانا بفردوس واحد؟

ـ كلّ القناعة!

ـ ألا تبدو الحياة لمولانا فردوساً؟

حدجه الباشا بنظرة استخفاف. قال:

ـ لو تبدّت لي الحياة الدنيا فردوساً لما جرّدتُ القصر من المرايا.

ـ فليسمح لي مولاي، ولكن تلك كانت خطيئة!

ـ الخطيئة في اللهفة إلى المرايا لا في إنكار المرايا.

سكت لحظة قبل أن يضيف:

ـ المرآة في شريعتي إثم!

اعتدل الفطيسي في جلسته كأنه يعدّ العدّة لجدل عصيّ. قال:

ـ لن يفوز بأيّ فردوس مَنْ لم يتعلّم رؤية المرآة!

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن لغياب الفردوس صلة وثيقة بإنكار المرآة؛ لأن الإنسان الذي لا يجد في نفسه الشجاعة لقراءة نبوءة المرآة لن يُكتب له أن ينال الفردوس أبداً.

ساد سكون. في السكون سمع الباشا أنفاس الضيف. في السكون سمع الضيف أنفاس الباشا. في لحظة أخرى تحوّلت أنفاس الباشا في أذن الضيف فحيحاً مريباً. تزحزح بدن الباشا المهيب بعدها ليتدفّق إلى الأمام. استلقى الفطيسي إلى الوراء ظنّاً منه أن الباشا ينوي أن يكتسحه بجرمه الرهيب. غمغم الباشا بصوت بحيح:

ـ هل رأيت الله؟

لم يجب الضيف فأوضح الباشا:

ـ هل رأيت الله في المرآة؟

كان يرتجف وهو يحدّق فيه بعينيه الجاحظتين والزّبَد يعلو شفتيه المفلطحتين. همهم الفطيسي:

- الله؟ لم أرَ الله في المرآة. .

قال الباشا بخيبة أمل:

- ما نفع مرآة لا تكشف لنا عن وجه الله!

حاول الفطيسي أن ينقذ ما يمكن إنقاذه:

- ليس الله ما يجب أن نبحث عنه في المرآة يا مولانا.

عاد الباشا إلى أحضان عرشه. قال ساخراً:

- أنت على حقّ. في المرآة لا وجود لوجه الله، لأن هذه البدعة لم تُخلق إلاّ لنرى فيها وجه البليّة الخالدة التي تسمّيها أنت «صاحب الأتان»!

- مهلاً، يا سعادة الباشا، مهلاً!

ولكن الباشا لم يمهله:

- لهذا السبب كان لا بدّ من إنكار المرآة. لأن المرآة آية مزوّرة لا تكشف لنا عن الله الذي يسكننا، ولكنها تفضح فينا المنكر. ها ـ ها. .

هتف الفطيسي باستنكار:

- المنكر؟

- بلى. المنكر. ما هو «صاحب الأتان» إن لم يكن ذلك المنكر الذي يسكننا؟

- هل رأى مولانا في المرآة «صاحب الأتان» يوماً؟

صاح الباشا بأعلى صوت:

- بل لم أرَ في المرآة سواه. أنت أيضاً لا ترى في المرايا التي

تدافع عنها غير اللئيم الذي أؤمن بوجوده برغم أني لا أؤمن بوجود الفردوس.

بعدها غاب الباشا في دنياه. أسبل جفنيه فأيقن الفطيسي أن الباشا غرق في غيبوبته الأبديّة التي حدّثه عنها سيدي يوسف كثيراً. تأهّب للانصراف، ولكن الباشا استوقفه بسؤال مغمض العينين:

ـ ولكنك لم تحدّثني عن النوايا!

قطب الشيخ حاجبيه لحظة قبل أن يتساءل:

ـ عن أيّة نوايا يريد مولانا أن أحدّثه؟

استوى الباشا في عرشه قبل أن يجيب:

ـ يقال أن الإنسان لا يهجر الديار ليغترب دون أن يخفي في القلب نيّة!

ـ هل يصدّقني الباشا إذا قلتُ له أن أسلافنا لم يكونوا لينزلوا أرضاً إلاّ ليهجروها إلى أرضٍ أخرى؟

ـ تريد أن تقول أن العبور كان هو الناموس؟

ـ العبور في تلك الأزمان كان معبوداً، ربّما لأنّ الأوائل لم يعرفوا غيره.

فتح الباشا عيناً في حين أبقى على العين الأخرى مغمضةً. قال:

ـ أعطيك نصف المملكة لو أخبرتني لماذا اخترع الإنسان بدعة مميتة كحبّ الوطن!

فكّر الفطيسي لحظات. قال دون أن يلتفت إلى الباشا:

ـ أغلب الظنّ أن سلفنا لم يركن إلى الأرض إلاّ في اليوم الذي ابتنى فيه بيتاً (سمّاه تاليا معبداً) ليعبد ربّه!

ـ تريد أن تقول أن الصلاة كانت البديل عن الحرية؟

ـ بالترحال كان السلف يصلّي بجرجرة الجسد من المهد إلى اللّحد، ولكنه بالاستقرار استبدل صلاة الفرار الدائم بصلاة المعبد.

اعترض الباشا:

ـ ولكن صلاة المعبد كما تسمّيها سرعان ما قتلت الروح في الصلاة يوم تحوّلت إلى مجرّد شعائر!

تفكّر الشيخ لحظات. قال:

ـ أظنّ أن هذا حدث بسبب الملكيّة يا مولانا وليس بسبب الوطن كمكان.

سَرَت الحياة في بدن الباشا فاستوقف ضيفه بحماسة مفاجئة:

ـ مهلاً، مهلاً! ما رأيك لو قلنا أن سلفنا ذاك ألقى بعصا الترحال يوم قرر أن يموت؟

هلّل الفطيسي:

ـ يروق لي يا مولانا أن أسمع هذا. لا شكّ أن أهل الهجرة ملّة لا تختلف كثيراً عن ملل الأغراب الذين يقال أنّهم لا يموتون إلاّ أطفالاً.

صحّح الباشا:

ـ لا يموتون إلاّ عندما يريدون أن يموتوا!

ـ بلى. هذا ما أردت أن أقول.

ولكن الشكوك ما لبثت أن نهشت قلب الباشا:

ـ ولكن ماذا بشأن الحنين؟

ـ أظنّ أن الحنين سيرة أخرى يا مولانا.

ـ ولكن الحنين إلى مسقط الرأس علّة مميتة، أليس كذلك؟

سكت الفطيسي فأضاف الباشا:

ـ الحنين إلى الأوطان هو ثمن الحرية التي ننالها بالتنقّل في أرض الله الواسعة. فإذا كانت الحرية هي الصلاة فلا شكّ أن الفردوس واحة ضائعة. واحة لا وجود لها في أيّ مكان. آهٍ من الفردوس آه. إنه هاجس يكاد يتحوّل في قلبي إلى ورم خبيث!

أطلق تنهيدة وجع ثم أضاف:

ـ ولكنّك لم تخرج إلينا بغرض تجارة!

تمتم الفطيسي:

ـ يقيناً ليس بهذا الغرض.

رمقه الباشا خلسةً ثم أغمض عينيه. سأل:

ـ منذ ألقى السلف عصا الترحال ليبتني في الخلاء مدينة لم يعد الناس يغتربون عن الأوطان بلا سبب!

## 29

قال الفطيسي يخاطب سيدي يوسف:

ـ أبوك لم يطمئن لي!

فهوَّن عليه الأمير:

ـ أبي لم يطمئن لأحد يوماً!

ولكن الشيخ المزعوم أعرب عن شكوكه بالقول:

ـ كلاّ، كلا. في عدم اطمئنانه لي سرّ لا أعرفه.

ثم استنزل قناعه الخفيّ ليضيف:

ـ أتدري؟ أبوك هذا رجل لا يُستهان به. لقد حاورني بروح عرّاف!

تبدّى الرجل لسيدي يوسف يومها مبلبلاً على نحوٍ مريب. وقد أرجع العلّة إلى خيبة الأمل بعد اللقاء الفاشل مع الباشا. عاند لفافة عمامته طويلاً كأنّه يتلهّى ثم التفت إليه ليكشف له عن شكّ آخر:

ـ أبوك هذا داهية الدهاة. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جوابه عندما قال:

ـ لأنه لا يؤمن بشيء!

قال سيدي يوسف:

ـ يروق له أن يشكّك في وجود الفردوس بين الحين والآخر، ولكن التشكيك في وجود الفردوس ليس تجديفاً في حقّ السماء دائماً!

سكت الفطيسي لحظة، ولكنه ما لبث أن همس كأنه يحدّث نفسه:

ـ وصيّتي لك أن تعجّل، لأن الرجل من ملّتنا!

استولت على سيدي يوسف دهشة. رمق الشيخ باستفهام قبل أن يسأل:

ـ ماذا تعني؟

ولكن الفطيسي تجاهل السؤال:

ـ أريدك الآن أن تجيبني على سؤال: إلى أيّ حدّ تستطيع أن تعوّل على شيوخ الدواخل؟

أجاب الأمير بخيبة أمل:

ـ أفضّلُ ألاّ اعتمد على أهل الدواخل في شيء!

ـ إذا لم تجد سنداً في زعماء القبائل فليس أمامك إلاّ أن تبحث عن حلفاء في ملوك البحر!

ـ ملوك البحر؟

ـ القراصنة!

ـ القراصنة حلفاء أشباح القلعة منذ الأزل.

ـ ولكني لا أفهم خشيتكم من فوارس الدواخل.

سكت الأمير لحظة. سَرَحَ ببصره عبر حقول المنشيّة. قال:

ـ رجال الدواخل قوم لا يُؤمن جانبهم!

ـ لا يُؤمن جانبهم؟

ـ إنّهم ينقسمون إلى فريقين من الخطر الاستعانة بأيّ منهما: فريق جشع ومغامر يذهب وراءك إذا أجزلتَ له في العطاء. وفريق آخر أنبل سليقة، ولكنه قد ينقلب خصماً قبل أن تبدأ المعركة.

انتظر الأمير لحظة. هبَّ واقفاً. قال:

ـ الفريق الأوّل قد يخذلك في أيّة لحظة لأنّ سجيّته الابتزاز، والفريق الثاني قد يرفع السيف في وجهك إذا لم تشركه في الغنيمة!

نهض الشيخ أيضاً. خطا نحو الأمام خطوة ثم عاد فخطا إلى الوراء خطوتين. كانت حركة بهلوانية ابتسم لها سيدي يوسف.

قال الفطيسي:

ـ إذا قررتَ إسقاط القراصنة من الحساب فلا مفرّ من الاستعانة بأوباش الدّاخل.

مال بعدها نحو الأمير ليضيف همساً:

ـ الحيلة تستطيع أن تروّض حتى الصعاليك!

ـ الحيلة؟

ـ لا تنسَ القناع!

ـ أيّ قناع؟

ـ هل نسيتَ اللحاف؟

تبادل الأمير مع شيخه نظرة ذات معنى. قال الأمير:

ـ لا أظنّ أن اللحاف راية يمكن أن تصلح خارج جدران القصر.

هتف الشيخ:

ـ هراء! القناع حجاب يصلح في كل الأركان. القناع شعار الدنيا، والدليل أن الكلّ في سعيهم يرتدون أقنعة!

ـ هل يرتدي فضيلة الشيخ قناعاً أيضاً؟

ضحك الفطيسي بصوت عالٍ. كانت ضحكة غريبة تذكّر بنهيق حمار. خطا في أرض البستان. عاد على عقبيه. قال:

ـ لولا أقنعتي السبعة لما وقفتُ بين يديك الآن.

تعجّب الأمير:

ـ أقنعة سبعة؟

ـ سوف نتحدّث عن الأقنعة مرّة أخرى. أمّا الآن فإلى العمل!

عَقَدَ الأمير يديه وراء ظهره وانطلق يتمشّى. إلى جواره مشى الفطيسي. سأل الأمير:

ـ بأيّ رسالة سينطلق لساني إذا تنكرتُ وراء القناع في ديار أهل الخلاء؟

ـ أنت لن تذهب لتجادلهم بالطبع، لأنّك أعلم الناس بأنّهم قوم لا يؤمنون بغير النبوءات!

ـ لا أَخَالُك تريدني أن أدّعي في ربوعهم النبوّة كما فعل الشقيّ حاطوم يوماً!

ضحك الفطيسي. قال:

ـ في قلب الإنسان ظمأ خالد إلى النبوّة. هذا هو سرّ لهفة البشر لتصديق الخرافات. تستطيع أن تلبس جبّة النّبوّة دائماً دون أن تضطرّ لخرق التحريم!

ـ أيّ تحريم؟

ـ تحريم النبوّة التي صار لها الرسول الكريم مسك ختام.

سكت الأمير. اخترقا دغلاً من أشجار البرتقال. الدغل أفضى إلى حقل تصطفّ في فضائه أشجار الزيتون. قال الأمير:

ـ ما أَلْيَقَ صاحب الأقنعة السبعة للقيام بهذه المهمّة!

ـ ها أنت تخطىء!

حدجه سيدي يوسف مستفهماً فأوضح الشيخ:

ـ إذا شئتَ لحاجتك ألاّ تنقضي فابعث أحداً آخر ليقضيها بالنيابة عنك. هل نسيت الوصيّة؟

ـ ولكن حاجتي اليوم هي حاجتك أنت أيضاً.

ـ ليس تماماً. روح السلطان يسكن قلبك لا قلبي، لأنّك المريد وما أنا في الملهاة سوى حليف!

تمتم الأمير:

ـ ظننتك شريكاً!

ـ السلطة ربّ لا يشرك بنفسه أحداً. هل نسيت؟

ساد صمت. قطعا في الحقل مسافة أخرى. تساءل سيدي يوسف:

ـ لا أعرف لماذا تستنكر الحاجة أن تهبنا نفسها إذا بعثنا رسولاً يقضيها عنّا!

ـ لأن الحاجة حسناء. هل تنيب عنك رجلاً ليقضي لك وطراً من حسناء بالإنابة؟

جلجل سيدي يوسف بضحكة. أضاف الفطيسي:

ـ الحاجة أشدّ استسراراً من الحسناء. الحاجة أيضاً ربّ لا نكبره إن لم نعبده. وإكبار الحاجة في وقوفنا بين يدي الحاجة!

انتصب بينهما سكون. توغلا في الحقول بعيداً. بين صفوف

أشجار الزيتون رأى سيدي يوسف كيف يتسلّل العسس ببنادقهم المرفوعة فوق مناكبهم. قال:

ـ كأنّ القناع صار لي قدَراً!

قال الفطيسي:

ـ القناع قَدَر كلّ صاحب حاجة. بل القناع قَدَر الإنسان، لأنّنا لسنا سوى مسوخ عارية بلا أقنعة!

عادا أدراجهما ليكتشفا أن الأحراس قد انزرعوا في كلّ الأركان.

تساءل الأمير:

ـ أنجاهد في إخفاء الروح بهذه الحِيَل، أم نحاول إخفاء نوايانا؟

أجاب الشيخ على الفور:

ـ رجل يعرّي روحاً أسوأ من امرأة تعرّي جسداً. ولهذا السبب يتفنّن كهنة الأدغال في نحت صنوف الأقنعة من الأخشاب ليحجبوا ذلك السرّ الذي تكشفه المرآة برغم محاولاتنا في إخفائه عن الناس.

ـ بلى. سمعتُ من يقول أن دهاء المرآة في أنّها تكشف لنا ما نريد أن نخفيه عن أنفسنا لا ما نريد أن نخفيه عن الأغيار.

ـ بلى. المرآة لا تصلح صديقاً. المرآة لا تملك إلاّ أن تخون!

ـ هذا يعني أن الباشا لم يخطىء عندما طردها من القصر.

ـ لو لم يفعل الباشا ذلك لأفسدت عليه دنياه. عمل الباشا انتصار للقناع.

سكت الفطيسي فتكلّم سيدي يوسف بفضول:

ـ ألا يعني هذا أن المرآة للقناع عدوّ؟

ـ المرآة للقناع عدوّ لأنها لا تعرّي وجوهنا، ولكنها تفضح أقنعتنا.

سكتا لحظات، قال الأمير:

ـ قيل لي أن الباشا يرى في المرآة الإثم.

ـ ولكنّي على يقين أن الباشا يرى في المرآة نبوّة أعظم شأناً: الضمير!

سكت الأمير. تساءل بعد قليل:

ـ هل تظنّ أن الباشا يعاني من مرض في الضمير؟

ولكن الفطيسي تجاهل السؤال ليقول شيئاً آخر:

ـ وصيّتي لك أن تجتنب المرآة!

قال سيدي يوسف:

ـ أيعني هذا أن أبي على حقّ عندما عرّى حيطان القلعة من المرايا؟

ـ لو لم يفعل أبوك ذلك لما استطاع أن يبقى في أحضان العرش يوماً واحداً!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ من قرّر أن يتولّى أمر الناس لا بدّ أن يخنق في قلبه صوت الحقيقة.

توقّف الأمير. توقّف الشيخ أيضاً. تمتم سيدي يوسف:

ـ الحقّ أنّي لا أفهم.

ـ المرآة تمزّق القناع لتريك الضمير. والضمير مع الحكم لم يكن يوماً على وفاق.

دبّ الأمير. دبّ إلى جواره الشيخ. قال سيدي يوسف:

ـ ولكن ليس أمامنا إلاّ أن نحكم إذا شئنا أن نحيا دنيانا.

ـ لهذا السبب أوصيك باجتناب المرآة!

قال سيدي يوسف بلهجة سخرية:

ـ في هذا الشأن يكفي أن أكون وفيّاً لناموس أبي!

## 30

كان وفيّاً لناموس الأب حقّاً. فهو الوحيد من بين أشقّائه الذي لم يضع الوقت في استنكار تجريد القصر من المرايا، لأنه الوحيد الذي عرف كيف يستخدم المرآة كما ينبغي أن تُستخدم. استخدمها لتريه وجهه الآخر الذي أفلح في إخفائه عنه الناس. الوجه الذي يحتجب عنه في عيون الناس المجبولين بالنفاق والتَّوْرية والخيانات. بعون المرآة اهتدى إلى القناع. بعون المرآة تنكّر مرّةً فاكتشف ما أخفاه عنه الناس. منذ ذلك اليوم أخفاها تميمةً في جيبه ليتجنّب الطعنات التي يتقن الناس تسديدها للأبرياء الذين يخرجون لملاقاة هؤلاء الوحوش بقلوبٍ عارية. فإذا بيّتَ أمراً تفكّر مليّاً قبل أن يتنكّر. تفكّر لابتداع الوجه المناسب قبل أن يشرع في اختراع القناع. اليوم أيضاً تفكّر بعد حواره مع الفطيسي قبل أن يبدأ العمل. أخرج من جيبه المرآة ثم بدأ في استخراج وجه

صاحب الرسالة في جوف الأنقاض. استعان بالمراهم والكحل والشعور المستعارة قبل أن ينتهي من عمله. وعندما انتهى تناول صحفاً مشبوهة دُوّنت في متونها أشدّ الأوراد غموضاً تروي قصصاً عن قيام الساعة وما إلى ذلك من علوم الغيوب قبل أن يمتطي ظهر أتانٍ شهباء وينطلق ليقتحم الجبل منتحلاً لنفسه لقباً مهيباً هو «الشريف المراكشي» الذي أقبل على الديار مبشّراً بنبوءة.

لم يفته بطبيعة الحال إخفاء النبوءة عملاً بوصيّة خبيثة من وصايا شيخه الملقّب باسم «لون اللّعنة» لا لاستنزال مسوح الغموض كما قد تذهب بالبعض الظنون، ولكن اجتناباً لروح الدهماء المجبولة على التسرّع والثرثرة وحبّ القول الذي كثيراً ما أفسد الأمر حتى على أنبياء الحقّ فكيف بأنبياء الكذب؟

فعل ذلك إيماناً منه بدهاء عقلاء القبائل الذين يتنكّرون في أسمال البلهاء، وفي جلود المجانين أيضاً، ليردّدوا أمام كل غريب المزاعم التي تؤكّد جهلهم بشئون الدنيا، لأنّهم قوم لم يخرجوا من حدود صحاريهم، ولم يعرفوا في حياتهم أكثر مما تعرف دوابهم.

انتظر حتّى فرغ القوم من الذبائح، ثم قرأ عليهم فصولاً من صحفه المجهولة حتّى اطمأنّوا. اطمأنّوا لا لأنّهم فهموا، ولكن لأنّهم لم يفهموا حرفاً واحداً من تلك المزامير. إلى أن جاء اليوم الثاني. في هذا اليوم عضّ على لسانه أيضاً حتى نزف دماً، ولم يتكلّم بنبوءته إلاّ في اليوم الثالث.

قال أنه أقبل من أبعد أرض ليشترك في دفع الخطر الذي يتهدّد ديار أهل الإيمان. وعندما سأله أحد العقلاء عن طبيعة هذا الخطر أجاب بأن الرؤيا أخبرته بأن بغاة الأمم النصرانية تربّصوا طويلاً بأمّة المسلمين منذ هزيمتهم بسيوف صلاح الدّين فلم يجدوا للنّيل منهم سبيلاً إلاّ يوم فتح لهم علي باشا القرمانلي الباب على مصراعيه. تساءل أكثر من صوت في المجلس عن الكيفية التي اقترف بها على باشا هذا المنكر فما كان منه إلاّ أن احتكم إلى معجم الغموض المستعار من روح مزاميره عندما أجاب: «بالضعف!». لم يفهم سادة القبائل فأضاف: «الغرق في اللذّات منكر يورث اللامبالاة، واللامبالاة منكر أسوأ لأنه يورث الضعف!». سكت طويلاً قبل أن يضيف: «لقد انتظر النصارى هذه الفرصة طويلاً حتّى أنّهم لم يتردّدوا في أن يدسّوا له في المخدع مخلوقاً ليس بامرأة وليس برجل ليتعلّم على يديه أسفار اليهود وأناجيل النصارى، فاستطاع هذا المسخ أن يمحو من ذاكرة هذا الشيخ آيات الفرقان في زمن قصير فأقلع حتّى عن الصلاة دون أن يكفّ عن التشدّق بالتقوى كإمامٍ للمسلمين!».

تعالت صيحات الاستنكار لأوّل مرّة فانتهز صاحب القناع الفرصة ليقول: «الحيلة الوحيدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه هي في الانضمام إلى جند سيدي يوسف، لأنه الرجل الوحيد في هذه المملكة الذي شق عصا الطاعة على الطاغية وجرّد السيف في وجه المرتدّ!».

عادت صيحات الاستنكار تتعالى إلى أن تكلّم أحد الدهاة

المتنكرين في جلد شيخ مجنون شبه عارٍ من الثياب: «ولكن ما أعلمه أن سيدي يوسف هذا ما هو إلاّ سفّاح لم يتردّد في قتل أخيه وهو يختبىء في حضن الأُم!». سَرَت في المجلس همهمة فلاذ صاحب القناع بالصمت لحظات حتى هدأت البلبلة. أزاح لثامه فتبدّت لحيته الكثيفة الموشاة ببياض الشيب. حدّق في عين العدوّ قبل أن يستعير الجواب من معجم الغموض: «وهل يرتضي اعتلاء العروش غير القتلة؟!».

## 31

قصر السراي. 23 يونيو 1791م.

في ساعة متأخرة من ليلة الثاني والعشرين من يونيو أُخبر الباشا باقتراب جيش سيدي يوسف من أبواب الحاضرة فلم يصدّق. سهر الليل كلّه مبلبلاً بالوساوس حتى مطلع الفجر. وتروي المسز تولِّي صاحبة الحوليات الذائعة الصيت: «عشر سنوات في بلاط طرابلس» قائلةً أنها شاهدت الباشا من نافذة دار القنصلية الإنجليزية عند الساعة الخامسة فجراً وهو يتسّكع ذهاباً وإيّاباً. ولكنه استقبل عند الساعة الثامنة والنصف من اليوم نفسه الشيخ الفطيسي الذي لم يقبل عليه رسولاً من سيدي يوسف هذه المرّة، بل وسيطاً بعثت به العناية الإلهية ليفعل كل ما بالوسع في سبيل حقن الدماء على حدّ تعبيره. استوى الباشا يومها على العرش وبدأت المفاوضات بحضور البك. تحدّث الشيخ فقال أن سيدي يوسف استبقى جيشه الملفّق من فرسان القبائل في سهل الجفارة

ولـم يدخل حقول المنشية بغير العسس الذين لا يزيد عددهم عن العشرين رجلاً رغبةً منه في البرهنة على حسن النيّة. ثم سكت قليلاً قبل أن يوصي بضرورة خروج البك لملاقاته هناك بقصد التفاوض شريطة أن يكتفي باستصحاب الحرس.

تبادل بعدها الباشا مع البك نظرة ذات معنى قبل أن يستصوب هذا الرأي بكلمة مبتسرة:

ـ حسناً!

ولكن البك ما لبث أن عبّر عن شكوكه:

ـ المشكلة ليست في أن أذهب إلى سيدي يوسف لأتفاوض، ولكن حول أيّ شيء يجب أن أتفاوض. لقد تنازلت عن كبريائي في الماضي مراراً وذهبت إليه للتفاوض، ولكنّنا ننتهي في كل مرّة إلى لا شيء لأنّي لا أعرف ماذا يريد سيدي يوسف!

هتف الفطيسي:

ـ سيدي يوسف يريد السلام!

في سيماء الباشا تبدّت سيماء استخفاف، في حين تساءل البك:

ـ أيعقل أن يسعى سيدي يوسف لإحلال السلام وهو الذي لم يكفّ عن حرق رايات السلام؟

تدخّل الباشا:

ـ سيدي يوسف يريد الحلول في هذا المكان!

ضرب الباشا بيديه على مسندي كرسي العرش فاستنكر البك:

ـ إذا كانت البكوية هي التي تقوده إلى العرش فقد تنازلت له عنها طائعاً بعد مصرع حسن بك بيومين، ولكنه رفض. ثم فاجأني يوماً بعرضه الدّاعي إلى عزل الباشا عن العرش لأتولّى مكانه في حين يتولّى هو البكوية حتى يبلغ ابني البكر سنّ الرشد!

أطلق الباشا ضحكة غريبة برغم الهمّ والسهر والبلبلة. تمتم:

ـ ألم أقل لكما أنه يريد هذا المكان ظنّاً منه أنه يستطيع أن يصنع منه ربّاً؟!

في تلك اللحظة قرع الباب قبل أن يستأذن حاج أحمد الدخول لأمرٍ عاجل. كان الرجل شاحباً، جاحظ العينين، لاهث الأنفاس. تقدّم من البك ليهمس في أذنه بعبارة كانت كفيلة بنقل الشحوب من سيماء حاج أحمد إلى سيماء البك كأنّها عدوى. في المكان عمّ سكون تبادل خلاله الرجال النظرات. كان الباشا يتطلّع إلى البك بقلق أخفق في إخفائه، في حين تطلّع البك إلى الفطيسي بغضب. تساءل الباشا:

ـ ماذا يحدث هنا؟

أومأ البك لمعاونه بالخروج قبل أن يجيب:

ـ حدث ما سيجعلك تتراجع عن الرأي الذي استصوبته منذ قليل يا مولانا!

هتف الباشا:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لم يقبل سيدي يوسف بالأحراس الذين لا يزيدون عن العشرين رجلاً كما يدّعي هذا المرابط المزوّر يا مولاي؟

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد أقبل سيدي يوسف بجيوش القبائل وأخفاها عن الأنظار في حقول المنشيّة استعداداً لتنفيذ المكيدة الجديدة!

انتقلت عدوى الشحوب من سيماء البك إلى سيماء الشيخ هذه المرّة. ولكن الفطيسي استعاد حضوره في ومضة ليقول:

ـ إذا كان سيدي يوسف قد فعل ذلك فقد خدعني!

تقدّم منه البك خطوات. وقف منه على بعد شبرين اثنين. مال نحوه حتّى لامس عمامته بطرف عمامته. حشرج في وجهه:

ـ أنت تكذب!

جفل الفطيسي فتراجع إلى الوراء خطوات، فلاحقه البك:

ـ لا تظنّ أنّي من البلاهة بحيث تنطلي حِيَلك عليّ يا رسول النحوس! أنت لا تدري أن دهاءك الذي راهنت عليه قد خانك يوم افترضتَ جهلي بحقيقتك يا لون اللعنة!

ـ لون اللعنة؟!

ـ لون اللعنة هو أحد ألقابك التي تحاول أن تخفيها، ولا تدري أن سيرة سلالتك الشيطانية ما زالت تجري على كل لسان يا سليل النحوس!

تدخّل الباشا:

ـ لقد أدركتُ أن في عروق هذا المخلوق تجري دماء إبليس منذ جادلته بشأن المرآة!

التفت البك إلى الباشا بسؤال:

ـ ما جزاء الخونة الذين يتسلّلون إلى السراي متنكرين في أردية المرابطين يا مولانا؟

أجاب الباشا على الفور:

ـ جزاء الخيانة هو الموت دوماً!

هيمن السكون من جديد. تبادل الثلاثة النظرات. في نظرتيهما قرأ الفطيسي التصميم فارتجّ ونزّ من جبينه العرق. تمتم:

ـ ولكن لقصاص الموت أحكام يعاقب الله من خالفها!

تساءل الباشا:

ـ عن أيّة أحكام تتحدّث أيّها الشقيّ؟

ـ «المذنب بريء حتّى تثبت إدانته» أوّل هذه الأحكام يا مولاي!

التفت الباشا إلى الأمير، ثم عاد يتطلّع إلى الفطيسي. من الفطيسي انتقل الباشا ببصره إلى السقف. قال:

ـ لقد قضيتُ بإدانتك!

ثم أومأ إلى البك. تناول البك المسدّس من جيبه. كانت تلك غدّارة نفيسة، مطليّةً بالذهب، وربّما مصبوبةً بالذهب، مزبورة الحواشي برموز سخيّة تبدّت كأنها أحافيراً سحرية. على الماسورة أيضاً نمنمة أدق إبداعاً، ولكنها أندر مساحةً.

شهر البك الغدّارة الذهبية في وجه الفطيسي قبل أن يعلن:

ـ قداسة الموت تستوجب تلبية الرغبة الأخيرة!

هيمن صمت جديد. صمت مزموم. تكلّم الفطيسي:

ـ بلى! أريد تلبية رغبة أخيرة!

ساد صمت فانتهره الباشا نافذ الصبر:

ـ أفصح!

في مقلة مرابط الزيف لاحت بسمة غامضة خُيّل للبك أنه اقتنص في إيمائها خبثاً مبيّتاً. قال سليل النحوس القديم المتنكّر في مسوح المرابطين:

ـ رغبتي الأخيرة في أن أموت بالطلقة الأولى!

تبادل البك مع الباشا نظرة. أومأ الباشا بالإيجاب فتساءل البك:

ـ وإذا لم تُصِبْ منك الطلقة الأولى مقتلاً؟

أجاب الفطيسي:

ـ ساعتها تطلق سراحي!

سكت البك. تبادل مع الباشا نظرة أخرى. أومأ الباشا بالموافقة. ولكن البك تلكّأ. قال:

ـ هذا يستدعي أن أتقدّم منك خطوات!

تضاعف إيماء الخبث في مقلة صاحب الزور. قال ببرود:

ـ تستطيع أن تتقدّم منّي ما شئت من خطوات شريطة أن تضغط على الزناد مرّة واحدة هي الأولى والأخيرة!

سكت البك لحظة. استدرك:

ـ هل قلت ضغطة زناد واحدة؟

ـ أليست ضغطة الزناد هي الطلقة؟

تردّد البك:

ـ لقد أيقنتُ دائماً بأن ثمّة فرق مّا بين الطلقة والضغط على الزناد!

التفت إلى الباشا فرأى في عينيه سخرية أنكرها. قال:

ـ حسناً!

تفقّد الطلقات في مخزن مسدّسه الذهبي. استبقى السلاح بين يديه لحظات. خطا نحو ضحيّته خطوة. ثمّ خطوة أخرى. صوّب السلاح نحو الخصم. صوّب نحو الصدر في البداية. ولكنه استدرك وشيّع الفوهة إلى أعلى، نحو الرأس. ثم استنزل الفوهة إلى الأسفل لتستقرّ في مواجهة الجبين. في عين الفطيسي رأى تعبيراً خبيثاً. رأى استخفافاً حقيقيّاً. خيّل له أن هذا المسخ الموسّم بعلامة كئيبة سينطلق الآن في ضحكة. في قهقهة شماتة حقيقية. بل ها هي شفتاه المفلطحتان تنفرجان استعداداً للانطلاق بالضحك. لم يطق الانتظار فضغط على الزناد. ضغط بقوّة، ولكنه لم يسمح للرصاصة صوتاً، ولم يرَ دماً ينبثق من جبين الجنّي. سمع حشرجة بدل صوت الطلقة. سمع فحيحاً شبيهاً بفحيح الحيّة فعرف أن الغدّارة خذلته لأوّل مرّة، لأن الفحيح في فم اللئيم تحوّل ضحكةً منكرة، في اللحظة التي هتف فيها الباشا:

ـ ألم أقل لك أن في عروقه تجري دماء إبليس؟!

نبيّ الزور المتنكّر في مسوح الشيخ الفطيسي أخبر سيدي يوسف كيف وقع بين فكّي تنّين، وكاد يهلك لو لم تهرع لنجدته الأعجوبة. ثم تحدّث عن الخيوط التي رآها منسوجةً في ردهات القصر بدهاء العنكبوت فقرأ فيها علامة زوال مُلْك أبيه. وهو ما يعني بلغة أخرى أن عليه أن يستبدل حِيَل الجهاد الأصغر بأسلحة الجهاد الأكبر إذا شاء الفوز بالغنيمة قبل فوات الأوان.

بعد يومين كان سيدي يوسف يحشد جيوشه ويستقدم كل ما استطاع استقدامه من فرسان الدواخل وعدد آخر غير هيّن من الأنصار الذين أفلح سيدي البوني في استقطابهم من رجال المنشيّة ومغامري القرى المجاورة. بعد اكتمال الحشود أمر الأمير الجيش بالزحف على المدينة في الوقت الذي كان فيه الباشا يعقد جلسةً طارئة لديوان المملكة حضرها قادة الجيش ورئيس البحرية إلى جانب البك وأعيان المدينة وحتّى أشياخ الأحياء. في هذه الجلسة فوجىء الجميع بحضور روح أخرى في شخص الباشا لم يكتشفها فيه قبل ذلك اليوم حتّى ابنه البك. كان يقظاً، حاضر البديهة، مستنفراً، متسامحاً، مزموماً بالحماسة دون أن تفقده المحنة روح مرحٍ لم يعرفه فيه أحد حتى أنه لم يجد حرجاً في ترديد آخر النكات الخليعة التي سمعها من إستير قبل أن يأمر بتلقين النذير النّداء الذي يحثّ القوم على حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم. ولكن أحد الأكابر افترسته الشكوك فتساءل عما إذا كان الباشا قد أباح

لهم بهذا الأمر دم رجال سيدي يوسف، فما كان من الباشا إلاّ أن أجاب:

ـ كل من حاول اقتحام أسوار المدينة بقوّة السلاح دمه مباح منذ اليوم.

ولكن شيخ أحد الأحياء ما لبث أن تساءل:

ـ حتّى سيدي يوسف؟

تطلّع إليه الباشا طويلاً قبل أن يعلن:

ـ حتى سيدي يوسف!

استولى على المجلس سكون مريب بعد هذه العبارة. لأنّ الأكابر لم يكن بوسعهم أن يصدّقوا بيسر نيّة الباشا في خوض حرب جديّة ضد أحبّ الأبناء إلى قلبه، فظنّوا تحلّيهِ بروح المرح وترديد النكات الإباحية مجرّد حيلة لإخفاء تذبذبه المعهود حتّى أن جلّهم لم يصدّق فرمانه الرهيب القاضي بإطلاق النار على سيدي يوسف حتى لو قصف هذا الشقيّ المدينة بالقنابل وقام بحرق أهلها أحياءً.

ويبدو أن الباشا قرأ أفكارهم عندما قال:

ـ سيدي يوسف منذ اليوم ولد ميّت!

ثم أغمض عينيه قبل أن يضيف:

ـ كم أحسد أحمد القرمانلي الأكبر على شجاعته!

ويبدو أن عبارته يومها لم تُفهم كما ينبغي أن تُفهم لأنّ كبير الأشياخ الملقّب باسم «شيخ البلاد» وجد في نفسه اليقين ليعقّب:

- صدق مولانا. القرمانلي الأكبر كان آخر من ترك هذه القلعة يوم قصفها النصارى بالقنابل!

رمقه الباشا بنظرة سخرية. ابتسم بِحِلْمٍ قبل أن يصحّح:

- أردت أن أقول أن القصاص الذي ينالنا بيد العدوّ دائماً أهون من القصاص الذي ينالنا من أيدينا!

هلّل الأكابر بالموافقة، ولكن الباشا أراد أن يقطع الشكّ باليقين خشية أن يُفهم خطأً:

- أردت أن أقول أن الموت بيد الأغيار دائماً أهون من ميتة ننالها بأيدينا، لأن الموت بأيدينا في عرفنا كفر، أمّا الموت بيد الأغيار فهو الشهادة!

ثم التفت إلى المفتي ليستكشف رأيه:

- أم أن فضيلة الشيخ يرى رأياً آخر؟

تململ المفتي في جلسته بروح الفخر، لأن سعادة الباشا اصطفاه باهتمامه من دون أكابر المملكة جميعاً بهذا السؤال. قال:

- ليس ديننا وحده، يا مولانا، الذي يرى في الانتحار كبيرة كبائر، ولكن كلّ ديانات التوحيد.

- هذا يعني أن أحمد الأوّل مات كافراً!

جعجع الأعيان بعبارات الاستنكار، في حين استنجد المفتي بفراسته طلباً للحجّة:

- لا يجب أن ننسى يا مولانا أن أحمد الأكبر لم يفعل ما فعل بنفسه إلاّ بعد أن أعيته الحيلة!

ـ أعيته الحيلة؟

ـ لقد خذله ابنه بالتبنّي برفضه للقيام بالمهمّة بدلاً عنه كما نعلم يا مولانا.

ـ تأمّله الباشا باسماً. في مقلتيه الجاحظتين لمع إيماء ماكر.

قال:

ـ لو طلبتُ منك الآن أن تفعل ذلك بدلاً عنّي، هل تستجيب؟

استنكر المفتي:

ـ أدام الله عمر مولانا وأجاره شرّ هذا الفعل!

ـ ها أنت تخذلني أيضاً كما خذل ابن التّبنّي سلفنا الأكبر، فهل يكفي هذا مبرّراً لأفعل بنفسي ما فعله جدّي بنفسه؟

طأطأ المفتي فأضاف الباشا:

ـ أعني هل تضمن لي دخول الفردوس؟

تمتم المفتي:

ـ الله غفور رحيم.

قال الباشا بإلحاح طفوليّ:

ـ أقول هذا لأني لا أريد أن أُحرم من دخول الفردوس.

لم يجب المفتي فأضاف الباشا:

ـ هل يؤمن فضيلة الشيخ بوجود الفردوس حقّاً؟

ـ من لا يؤمن بوجود الفردوس لن يؤمن بوجود خالق السماوات والأرض يا مولانا.

تطلّع إليه الباشا طويلاً قبل أن يقول:

ـ أنا مخلوق لم يعد يؤمن بوجود الفردوس!

## 33

بدأ القصف مع حلول الظهيرة فأمر الباشا باستدعاء قائد المدفعية. كان علجاً مزموم البدن، مسبوك العضلات، كأنّ جسده صُبَّ من معدن النحاس صبّاً، يُروَى أنه أقبل من بلاد ما وراء الأناضول، من جورجيا تحديداً، حاملاً اسماً جنونيّاً مركّباً من سلسلة من حروف السكون لينتهي بكلمة مجهولة المعنى هي: «دزي». وقد قام البعض بمحاولات بطولية في بداية وصوله فغامروا بنطق الاسم ولكنّهم خسروا الرهان لأن محاولاتهم كثيراً ما أدّت إلى كسر ألسنتهم فاستسلموا وآثروا الاكتفاء بنطق ربع الاسم المتمثّل في كلمة «دزي» هذه.

مَثُل العلج بين يدي الباشا في ظهيرة ذلك اليوم فتأمّله الباشا طويلاً قبل أن يقول:

ـ اليوم أنا بحاجة إلى حكمتك أكثر من حاجتي إلى خبرتك!

ساد سكون قبل أن يضيف الباشا:

ـ هل فهمت ما أعني؟

هزّ سليل جورجيا رأسه نفياً دون أن ينبس فتكلّم الباشا:

ـ أريدك أن تعلم أن سيفي مع البك، ولكن قلبي مع يوسف، فهل تستطيع أن تخمّن ما أريد؟

عاد الجلف الجورجيّ يهزّ رأسه علامة النفي كأنّه أحد البلهاء فابتسم الباشا قبل أن يوضح:

ـ سوف تتولّى بعد قليل المدفعيّة لتقصف جيوش سيدي يوسف، فهل أعتمد عليك في ألاّ تكسر قلبي؟

ظلّ العلج ساكناً في وقفته كأنه صنم، يحدّق نحو السقف بعينيه السوداوين الكبيرتين، فأضاف الباشا:

ـ أريد أن أقول أن كسر السيف أهون من كسر القلب دائماً، اللهمّ إلاّ إذا كان حكماء بلادك يرون عكس ما أرى!

ويبدو أن سيرة بلاده قد استفزّته أخيراً فتكلّم بصوت بحيُح منكر:

ـ حكماء بلادي يرون أن الحرب ليست كسراً للسيوف يا مولاي، ولكنّها كسر للقلوب!

ـ حسناً! ولكن ماذا ستفعل إذا طلبتُ منك أن تخالف هذه الوصية اليوم!

ـ سأفعل ما يأمر به مولاي إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً.

سكت الباشا في اللحظة التي ارتجّ فيها البنيان بقذيفة معادية فتململ صاحب المدفعية في وقفته. قال الباشا:

ـ تستطيع أن تطلق ما شئت من قذائف، ولكن رأسك سيكون ثمناً فيما إذا أصيب سيدي يوسف بسوء!

تبادلا نظرة طويلة. قال جلف جورجيا الملقّب بـ«دزي»:

ـ ولكن القذائف لا تفرّق بين الرؤوس يا مولاي!

ـ القذائف لا تفرّق بين الرؤوس حقّاً، ولكن صاحب المدفعية يفرّق!

سكت العلج لحظة. تساءل:

- هل يريدني مولاي أن أقف مكتوف اليدين؟

غرّدت الطلقات النارية في الخارج. من جهة المدينة علا الهرج.

قال الباشا:

- الحكيم لن يضطرّ للسكوت إذا تكلّم لسان الحرب.

هتف العلج بحماسة مفاجئة:

- في جورجيا يقال أن الحكمة لا تفقد القدرة على النطق يا مولاي إلاّ ساعة تتكلّم الحرب!

غنّت طلقة عابرة في الهواء فانكفأ الباشا إلى الأمام كأنّه يتحاشاها. قال:

- أيرضيك أن تحرق قلبي بقذيفة؟

انحنى العلج في حركة إكبار. تمتم:

- استغفر الله!

- أردت أن أقول أن صاحب المدفعية الحكيم يستطيع أن يدير الحرب حسب مشيئته ما دامت الحرب دمية مثلها مثل كل شيء في هذه الدنيا!

في الخارج علت الضوضاء. في البُعْد سُمِعَ التراشق بالطلقات النارية، قال العلج:

- أعتقد أني فهمت ما يريد مولاي.

هتف الباشا:

ـ أحسنت!

ـ سأذهب لأقصف من برج الأسبان يا مولاي.

تطلّع إليه الباشا لحظة. ابتسم بمكر قبل أن يتساءل:

ـ لماذا اخترتَ حصن الأسبان يا تُرى؟

ـ لأن مدافع حصن الأسبان مشدودة إلى الأرض، وفوهاتها موجّهة إلى البحر، يا مولاي!

في الخارج عادت القذائف تعزف لحونها الرهيبة. كان الباشا ما يزال يبتسم بغموض عندما وعد:

ـ إذا أفلحتَ فسوف أزوّجك للاّ فاطمة!

## 34

فوق شعفة حصن الأسبان انتصبت ثلاثة مدافع صُمّمت خصيصاً لردع هجمات النصارى من جهة البحر في زمنٍ لا يذكره أحد: مدفع عتيق، مذهّب المعدن، مثبّت بقواعد حجرية، قيل أن ملك هولندا قدّمه إلى أحمد القرمانلي الأكبر هدية لا بهدف ردّ الغزوات من البحر، ولكن لقمع قبائل الدواخل، فما كان من السلف الأوّل إلاّ أن استخدمه في أوّل فرصة عندما دبّرت له بطانة الكيد الدسيسة التي اضطرّ بسببها أن يحطّم الساعد الذي كان له يوماً عوناً في نيل العرش فقصف بالمدفع فرسان المحاميد.

أمّا المدفع الثاني فيرجع إلى زمن أقدم كما يبدو. تشهد بذلك ماسورته الموحشة التي نالت منها الرطوبة فتآكلت في طرفها الأيمن

الموازي للمرج الشرقي الذي حشد فيه سيدي يوسف جيشه، ممّا جعله أشبه بأنقاض المدافع التي يروق لأسياد هذه الدنيا أن يتخذوها زينة تنتصب في مداخل بيوتهم لإرهاب ضعاف النفوس.

وقد برهنت أوّل قذيفة أُطلقت من فوهة هذا المدفع أن هذا الوحش لم يستحق الفوز حتّى بلقب «المعْلَم الأثري» الدّال على مجدٍ عسكريّ غابر، بل استخدامه كان مجازفة خطرة. ذلك أن علج جورجيا (الذي أسكره وعد الباشا بتزويجه من الأميرة الأرملة) ضرب بتحذيرات أعوانه عرض الحائط عندما وقع عليه اختياره من دون المدفعين الآخرين ليفتتح به القذائف. لم يحتمل أحد الشاويشية فتقدّم منه ليقول أن قذيفة واحدة لم تنطلق من فوهة هذا المدفع منذ بطولات أحمد الأوّل في حربه مع الفرنسيس. ولكن العلج ركب رأسه فما كان من الشاويش العجوز إلاّ أن ألقى بحجّة أخرى طمعاً في قطع دابر الحماقة:

ـ ولكن الضرب بالمدافع يستوجب وجود عدوّ!

فردّ «دزي» قائلاً:

ـ في عرض هذا البحر أرى عدوّاً لا تراه أنت!

لم يستسلم العجوز فآثر أن يستبدل اللغة بلغة أخرى:

ـ إذا أطلقنا القذائف من هذا المدفع فسوف يحرق سفننا الراسية في الميناء!

فأجاب «دزي» بعبارة لم يفهمها أحد في ذلك اليوم:

ـ أن تحترق السفن أهون من أن يحترق قلب الباشا!

هزّ العجوز رأسه أسفاً قبل أن يأمر أحد الجند بإشعال الفتيل. اشتعل الفتيل ولكن الطلقة لم تنطلق. بعد لحظات تصاعد الدخان من الفوهة قبل أن ينبثق الدويّ. انبثق الدويّ فاختفى المدفع من المكان. طار في الفراغ مسافة قبل أن ينفجر.

سقط الجند على السطح، ولكن العلج صمد في وقفته كالصنم. التفت إلى المدفع الثالث وأمر باستخدامه بديلاً عن المدفع الضائع دون أن يلتفت لأنين أحد الجنود الذي أصابته شظية في منكبه الأيمن فبدأ ينزف. هرع إليه العجوز في حين تولّى جندي آخر حشو المدفع الثالث بالذخيرة: مدفع أصغر حجماً، ولكنه يقيناً أحدث عهداً برغم تآكل جوفه بفعل الصدأ.

أشعل الجندي الهزيل كجرادة، بقامته القصيرة كأنه سليل أقزام، الفتيل فدمدمت السطوح بفعل الانفجار. سقطت القذيفة الأولى في عرض البحر، بجوار إحدى السفن التجارية الزائرة، فشاهد أهل المدينة الذين اعتلوا سطوح أبنيتهم كيف غمرت المياه السفينة فزعزعتها بعنف. رأى صاحب المدفعية أن يستبدل المدفع فأمر بحشو مدفع ملك هولندا الذهبي.

ويبدو أن نبوءة هذا الملك اللئيم صدقت عندما قال لأحمد الأكبر أنه صنع هذا المدفع خصّيصاً ليستخدمه ضد نفسه لا ضدّ أعدائه، ولكن أحمد الأوّل خذله عندما اختار استخدام غدّارة المركيز الفرنسي ضد نفسه لا مدفع ملك هولندا، برغم أنه أخفق في قمع شهوته في

استخدامه ضد القبيلة التي أتت به إلى العرش، ممّا أعاد إلى الأذهان نبوءة الملك الداهية. وها هي النبوءة تتحقّق بحذافيرها بعد عشرات السنين لأن قذائف هذا المدفع أصابت سفينة المملكة، فرأى الخلق كيف اشتعلت فيها النيران.

ولكن الحريق لم يوقف جنون العلج الجورجيّ. استمرّ يقذف المرفأ بالقنابل ويحرق السفن إلى أن تدخّل البك.

اقتحم البك المكان في كوكبة من العسس. صاح في وجه العلج لاهث الأنفاس:

ـ ماذا تفعل يا غبيّ؟!

فما كان من صاحب المدفعية المصبوب من معدن النحاس إلاّ أن أجاب دون أن يلتفت إليه:

ـ أفعل يا سعادة البك ما أمر به مولاي!

كانت سيماء البك في ذلك اليوم شاحبة، وقامته ازدادت قصراً كما تبدّى للكثيرين. وهو أمر يليق بإنسانٍ وجد نفسه بين نارين: نار تهبّ على المدينة من ناحية المنشية، ونار تهبّ على البوّابة البحرية من برج الأسبان.

حشرج البك بيأس مَنْ يحاول أن يقنع مجنوناً:

ـ تقصف السفن بنيران المدافع ثمّ تدّعي تنفيذ أمر الباشا يا علج النحس!

توقّف الجند عن حشو بطن المدفع بالذخيرة إكباراً للبك، ولكن

صاحب المدفعية المصبوب من معدن النحاس ما لبث أن انتهرهم ليواصلوا عملهم فشلّت الدهشة أعوان البك فوقفوا مكتوفي الأيدي، في حين تكلّم الصنم الجورجي وهو يتطلّع إلى امتداد البحر:

ـ أن تحترق السفن أهون من أن يحترق قلب الباشا!

أخفق البك يومها في إقناع صاحب المدفعية كما أخفق في صدّ هجمات جيش سيدي يوسف فتواصل قصف العدوّ المجهول المختبىء في أمواج البحر من فوهة المدفع الهولندي. استمرّ القصف حتّى نفذت الذخيرة. وقد أكّد شهود العيان (ومن بينهم المسز تولّلي في مذكّراتها) أن فوهة المدفع لفظت في ذلك اليوم ما يزيد عن الثلاثة آلاف قذيفة لو أُطلقت في الاتّجاه الصحيح لأبادت لا جيش سيدي يوسف الملفّق من فرسان البادية فحسب، ولكن جيوش الإمبراطورية الفرنسية أيضاً!

## 35

للاّ فاطمة لم تفهم يوماً السبب الذي يجعل أميرات الأزمان يتعفنّ ويشخن وترجم الأيام وجوههنّ بالغضون القبيحة لتطيح بأنفس ما ملكت إيمانهنّ (الجَمَال)، ولكنهنّ برغم هذه النكبات لا يتنازلن عن استعلائهن ليرتضين رجال الرعيّة أزواجاً. وقد اضطرّت مرّةً (بعد ترمّلها بسنوات) أن تطرح السؤال على للاّ حلّومة. ولكن للاّ حلّومة اكتفت بأن حدجتها بنظرة استنكار يومها دون أن تجيب على سؤالها كأنّ فضولها أخفى منكراً أو عصياناً. انطوت في قمقم يأسها من جديد إلى أن جاء اليوم الذي انتهت فيه مهزلة اقترانها بسيدي محمود إلى الفشل، بل إلى فضيحة.

انتظرت حتى هدأت الزوبعة فلجأت إلى الأمّ مرّة أخرى لتستفهم: «إذا كان الدخول إلى مخدع الأقرباء قد مُنِع بمشيئة الله، فبأيّ مشيئة حرّمتم علينا الدخول إلى مخادع رجال الرعيّة؟!». ويبدو أن للاّ حلّومة قد أشفقت عليها في ذلك اليوم بسبب الهزيمة المنكرة التي تلقّتها بعد الفضيحة فتطلّعت إليها بحزن قبل أن تجيب: «هناك مشيئة الأرباب وهناك مشيئة الأعراف منذ خُلقت الدنيا. مشيئة الربّ حرّمت الاقتران بالأقارب، ومشيئة العُرف حرّمت الاقتران بالرعيّة». رأت في جواب الأمّ تسامحاً لم تعرفه فيها فقرّرت أن تنتهز الفرصة إلى النهاية. سألت: «لقد عوّدتمونا ألاّ نبحث عن أجوبة في أيّ شأن قضت به الشرائع الإلهيّة، ولكن ألا نستطيع أن نستفهم عن السرّ وراء تحريم الاقتران بأبناء الرعيّة؟». زفرت الأم بيأس قبل أن تجيب: «قضت الأعراف بهذا الناموس لئلاّ يختلط الحابل بالنابل!». سكتت، وعندما لاحظت سيماء الاستياء في وجهها أضافت: «لأن الملوك خُلقوا ليقودوا، وخُلِق أبناء الرعية ليستجيبوا!».

علّقت على حجّتها يوماً: «تريدين أن تقولي أن أبناء الرعية جنس من عبيد، أمّا سلالات الملوك فهم السادة كأنَّ أبناء الأعلاج الذين تتمرّغ أميرات بلادنا في أحضانهم كل ليلة ليسوا أحطّ سلالات العبيد!». لم تستسلم الأمّ للاستفزاز. قالت وهي تتطلع إلى البحر عبر النافذة كما تفعل دائماً عندما تقرّر أن تشقّ عصا الطاعة على مشيئة الجدران فتتحرّر: «هناك سبب آخر!». انتظرت لحظة كأنها تستلهم من

امتداد البحر وخياً لتقول ما يجب أن يقال: «لأنّ في عروق سلالات الملوك تجري دماء أخرى!». تضاحكت باستخفاف قبل أن تسفّه نبوءة أمّها: «تتحدثين عن الملوك كأنّهم خلقوا من طينة أخرى!». قالت للاّ حلّومة: «الملوك بالفعل خُلقوا من طينة أخرى!». ساعتها لم تتمالك نفسها من أن تتهكّم: «تقولين هذا وأنتِ أعلم الناس بأن جدّنا الأكبر أبعد خلق الله عن سلالة الملوك!». احتجّت الأم: «الانتماء إلى سلالات الملوك ليس غنيمة يرثها ابن عن أب دائماً، ولكنها كثيراً ما تكون إلهاماً!». استنكرت: «هل قلتِ إلهاماً؟». أجابت للاّ حلّومة وهي ما تزال تسرح في بريّةٍ ملفّقةٍ من يمّ الأبد: «تستطيعين أن تقولي هبة! هبة ربوبية!». سكتت ثم أضافت: «هبة يستوجب الامتنان المحافظة عليها من الدنس!». الاحتكام إلى حرم الربوبية لم يقنعها، بل أيقظ فيها غضبة. قالت: «ولكن هؤلاء الأعلاج الذين تتمرّغ أميرات القرمانلي في أحضانهم ما هم إلاّ الدنس مجسّداً!». قالت الأم بغموض كاهنة تتنبّأ: «الدنس ليس دسيسة تتستّر في معادن الرجال، ولكنّه جرثومة تتخبّأ في كلمة رعيّة!».

انسحبت للاّ حلّومة وتركتها وحيدة. وجدت نفسها وحيدة كما وجدت نفسها دائماً. تخلّى عنها حتّى الحظّ مع من تخلّى ما أن ترمّلت. تجنّبتها الشقيقات والأخوة وزوجات الأخوة وكل نساء القصر ما أن فجعتها الأقدار في رجلها كأنّها كانت نحساً عليه وليس هو من كان شؤماً عليها. تخلّى عنها حتّى الأب. تجاهلها لأنّ نكبتها تستوجب

أن يبحث لها عن رجل آخر وهو الذي لم يملّ يوماً من لعن ملّة البنات لأن الفوز لهنّ برجال في بلد الرعيّة أعسر ألف مرّة من تسيير شئون المملكة. صارت عبئاً فاحتمت بعزلتها في الركن. وكان يمكن أن تتعفّن في جناحها وتموت كمداً كما يموت الغرباء دون أن يكتشف غيابها أحد لو لم يهرع سيدي يوسف لنجدتها.

سيدي يوسف لم تعرفه قبل أن تعرف. لم تعرفه قبل أن تدرك معنى أن يكون الولد مخلوقاً مختلفاً عن الفتاة. لم تعرفه قبل أن تعرف الفرق بين الذّكر والأنثى. قبل ذلك عاش الأشقّاء الذكور في معزلٍ عن الشقيقات الإناث، ولا يرون بعضهم البعض إلاّ في المناسبات والأعياد. ولكن سيدي يوسف غاب حتّى عن هذه الأعياد والمناسبات لأسباب غامضة كثيراً ما تهامست بها إماء القصر ولمّح بشأنها الخدم إلى أن جاء اليوم الذي وجدت نفسها تقف وجهاً لوجه في الردهة مع ولدٍ قصير القامة، كبير الرأس، واسع العينين، وقف يبتسم لها ويلتهمها بحدقتيه اللعوبتين فلم تعرف لماذا استشعرت خدراً لذيذاً، بل شللاً لا يقارن إلاّ بالشلل الذي تستشعره الفئران إذا نظرت في عين الحيّة كما فسّرته لنفسها بعد سنوات.

لم ينبس ذلك الشبح يومها، ولكن ما قاله بمقلتيه كان كافياً لتعريتها لا من فستانها فحسب، ولكن من ثوبها الداخلي الذي يستر عورتها أيضاً. لا تذكر كم من الوقت استغرقت تلك المواجهة. ولكنها لن تنسى الفزع الذي رأته في عين مربّيتها عدما اكتشفت وجود ذلك

الشبح في الردهة. لقد أصيبت في البداية بالشلل أيضاً كأنّ سلطان الإغواء الذي أخفاه ذلك الكائن في مقلة العين نالها أيضاً فوقفت تحدّق فيه بذهول قبل أن تستيقظ من غيبتها وتهجم عليها لتختطفها وتفرّ بها من المكان كأنها تنقذها من مخلوقٍ مصابٍ بوباء الطاعون. لم تخنق في نفسها بعدها نداء الفضول كما يليق بكل طفل فكيف إذا كان هذا الطفل طفلة؟ سألت المربيّة عن حقيقة الشبح، ولكن المربية تجاهلت أسئلتها واكتفت بالقول أن الولد الذي ساقته الأقدار في طريقها ينتمي إلى سلالة الجنّ. وقد حبسه أهلها في قفص بالدهليز فأفلت من معقله في غفلة من العسس. ثمّ حذّرتها من الاستسلام لعينيه لأنه يخفي فيهما شِباكاً لاقتناص الصغار أمثالها والفرار بهم إلى الهاوية الظلماء التي أقبل منها ليلتهمهم هناك!

لم تصدّق هذه الأكذوبة بالطبع، لأن الإيماء الذي رأته في عينيه فأصابها بالشّلل لم يفارقها، بل استبدّ بها وطفق ينمو ويتمادى حتّى صار جزءاً منها، حتّى صار جرماً مجسّداً تحاوره كما تحاور دميتها، وتلهو معه كبديلٍ لدميتها. وبلغت بها الوسوسة حدّاً دفعها للقيام في أحد الأيام بحشوّ طيفه اللجوج في جوف دمية واحتضان الدمية كلّما آوت إلى فراشها.

منذ ذلك اليوم صار لها رفيقاً في يقظة النهار، وقريناً في هجعة الليل حتّى أنها أنكرت ما تردّد على ألسنة الخدم في أحد الأيام من قيام القزم (كما راق للإماء أن تسمّيه) بالوثوب على إحدى الجواري في نيّة

لاغتصابها. بكَت يومها بفجيعة لأن سليل الجنّ الذي اختارته حميماً لها قد خانها مع الجارية. ولم تفلح في تعزيتها الأحكام الجائرة التي ساقتها المربية والقائلة بأن الأقزام أمّة شرّ. وصلتهم بسلالات الشياطين يقين لا يقبل الجدل، لأن الأجيال توارثتها في وصايا الأسلاف من قديم الزمان.

مرّ زمن. لا تدري عمّا إذا كان ذلك الزمن شهوراً، أم أعواماً لأن هذا اللّغز في ناموس الطفولة يتمدّد، ولكنه بناموس العقلاء ينكمش. في أحد أيام ذلك الأوان اعترض سبيلها في مناسبة دينيّة. ويبدو أنهم أطلقوا سراحه بسبب تلك المناسبة الدينية. اعترض سبيلها في الرواق الذي يفصل بين جناح الفتيات وجناح الأمّ. كان يرتدي حلّة بنفسجيّة مطرّزة عند الصدر بأشرطة فضيّة، يمسك في يده اليسرى فطيرة تقطر دهناً، وفي يده اليمنى خنجراً محشوراً في غمدٍ ذهبيّ. كان يمضغ بخمول ويحدّق فيها بمقلتين باسمتين. في تلك البسمة اكتشفت الألق المريب الذي رأته في عينيه لأوّل مرّة فأسرها إلى الأبد. الوميض الغامض الذي تستطيع الآن أن تجد له شبهاً في الإغواء الذي تنطق به عين الأفعى وتستخدمه للفوز بضحاياها. مضى يتطلّع إليها وهو يمضغ الفطيرة دون أن تفارق البسمة المذهلة حدقتيه. على شفتيه نزّ الدهن في خيطين لامعين. أمّا الخنجر في يده فكان ينتفض من حين لآخر بشدّة. استشعرت قشعريرة فتراجعت إلى الوراء. ولكنّها وجدت نفسها تتقدّم نحوه خطوتين بدل أن تتأخّر خطوتين كما أرادت. وجدت نفسها تقترب منه إلى حدّ شعرت فيه بأنفاسه تلفح خدّها. ولكنه لم يعبأ. مضى يلتهم

فطيرته بهدوء ويبتسم. التقم آخر شطر في الفطيرة في اللحظة التي اكتشفت فيه أنها ترتجف. تلتصق به وترتجف. لحظتها رفع في وجهها الخنجر المدسوس في الغمد ومرّره على وجنتيها دون أن تفارق بسمة الهول مقلتيه. ثم تسلّل بيده الملوّثة بدهن الفطيرة وجاس في جسدها. دبّ بين ساقيها كحشرة لزجة صاعداً إلى أعلى حتى أدرك سرّتها فتأنّى هناك قليلاً قبل أن يعتصرها بغتة فندّت عنها صرخة وجع مكتومة في اللحظة التي وجدت فيها نصل الخنجر يضغط على نحرها عارياً من الغمد. كانت ترتجف بحمّى لم يقدّر لها إلا بعد سنوات أن تدرك طبيعتها: النشوة المجبولة بالخوف، أو الوجل المسربل بالغموض الذي لا بدّ أن يعرفه كلّ من وقف في المحراب ليلتقم الفاكهة الخالدة. الفاكهة الموسّمة بختم التحريم.

غابت في ذلك اليوم. ولا تدري حتى اليوم كم استغرقت غيبوبتها، ولم تستيقظ إلاّ بزلزلة. فقد أقبلت إحدى الجواري مولولة لتختطف سليل الأقزام الرهيب لتجرّه بعيداً، في حين عمّ في الرواق الهرج.

حجبوها عن سيدي يوسف منذ ذلك اليوم حتّى أن بصرها لم يقع عليه إلاّ مرتين في الحقول عند خروج العائلة إلى قصر المنشيّة: مرّة وهو يمتطي صهوة جواد أبلق تلقّاه هديّة من أحد أشياخ القبائل، ومرّة أخرى وهو يتسلّى بإطلاق النّار على عنزةٍ شقيّةٍ رمت بها الأقدار بين يديه.

زارها بعدها في أحلامها كثيراً قبل أن يقرّر الباشا أن يلقي بها في

أحضان بك بنغازي (الذي يكبرها بثلاثة وثلاثين عاماً) مسمّياً تلك الصفقة زواجاً، فقرّرت أن تثأر لنفسها بالاختلاء بسيدي يوسف.

تسلّلت إلى جناحه في الليلة التي سبقت الزفاف فوجدته يستلقي على سريره عارياً، وبسمة الغموض القديمة ما زالت تتألّق في عينيه. هذه البسمة التي أدركت في تلك الخلوة أنها لم تكن إغواءاً بقدر ما كانت لؤماً، وربّما استهتاراً، الاستهتار بالخلق، وبناموس الخلق، وبخالق الخلق. وفي لحظة أيقنت أنها لم تنجذب إليه طوال هذا الزمان إلاّ لهذا السبب. لم يستهوها فيه إلاّ هذا الاستهتار الذي لا يقف عند حدّ، لأنه يحتقر كل شيء، ويستهين بكل شيء.

أومأ لها أن تقترب دون أن يحرّك ساكناً. لم يستنكر زيارتها كأنّه كان يتوقّع أن تأتي. أشار إلى المخدع فتقدّمت لتجلس بجواره. لحظتها تكلّم لأوّل مرّة. قال بلا اكتراث: «أعرف لماذا جئتِ!». لم تتكلّم فمدّ يده ليمسّد شعرها قائلاً: «في عُرف القدماء كانت الأخوات من حقّ الإخوة وحدهم!».

مدّ يده إلى صدرها. عبث بصدرها. تمتم: «أليس منكراً كبيراً أن يكون هذا النّهد من نصيب رجلٍ غريب؟». بدأت ترتجف. بدأت ترتجف بحمّى عرفتها يوماً عندما اختلى بها في الرواق. قال باللامبالاة نفسها: «ما زالت بعض القبائل ترفض أن تزوّج بناتها للأغراب قبل أن ينال منهنّ الإخوة حقّ الليلة الأولى!». أطلق ضحكة خبيثة قبل أن يضيف: «الآن سوف يستعيد قابيل هذا الزمان سيرة قابيل تلك الأزمان

بالاستيلاء على الأخت!». تضاحك مرّة أخرى. سكت لحظة. أضاف: «لا تصدّقي أن قابيل قتل أخاه هابيل غيرةً من رضوان الربّ!». حشرج بفحيحٍ مريب قبل أن يضيف: «لم يقتل قابيل أخاه هابيل إلاّ غيرةً على أختٍ فاتنةٍ لهما أحبّت هابيل وأنكرت قابيل! ها ـ ها ـ ها..».

يوم زفّت لها الجارية بشرى خطبتها لسيدي محمود تذكّرت طفولتها. تذكّرت دميتها التي اتخذتها بديلاً لحميمها سيدي يوسف. ابتسمت يومها لأنها قررت أن تتخذ ابن الأخت بديلاً للأخ. بديلاً لسيدي يوسف. وعندما عبّرت الجارية عن دهشتها لأنّها لم تعبّر لها عن استنكارها لهذا المنكر اكتفت بالقول أن ملوك الفرس كانوا يتزوّجون أخواتهم. بل بلغت الجرأة بأحدهم أن تزوّج ابنته. تطلّعت إليها الجارية يومها بذهول قبل أن تقول: «ولكن ما أعلمه يا مولاتي أن ملوك الفرس كانوا يعبدون الأصنام!». أشاحت عنها لترنو إلى اليمّ العظيم الذي يحجب الأفق من وراء النافذة قبل أن تتمتم: «نحن أيضاً في هذه القلعة نعبد الأصنام!».

لم تنكر الصفقة فحسب، ولكنها لم تخفِ سعادتها. لم تخفِ امتنانها للعناية الإلهيّة التي حرّرتها من بك بنغازي العجوز، ثم أضافت إلى هذه الهبة هبة أخرى مكافأةً لها على صبرها، فأغدقت الصّدقات ولم تبخل بالنذور. اختنق البك العجوز طويلاً قبل أن ينطفىء نهائيّاً دون أن يخطر ببال مخلوق أنّها هي السبب: لقد دسّت له السمّ في طعام العشاء فكتم أنفاسه قبل مطلع الفجر!

ولكن سعادتها لم تدم طويلاً لأن الأقدار ما لبثت أن تدخّلت من جديد فأفسدت القران المنتظر.

لم تيأس هذه المرّة أيضاً فانتظرت. اعتزلت في جناحها وانتظرت. كانت تتلقّى أنباء المكائد التي تنسج في أرجاء القصر دون أن تحرّك ساكناً. بل كثيراً ما شاركت في تدبير بعض الفصول دون أن تضطرّ للتخلّي عن عزلتها، ودون أن تستهدفها أصابع الاتّهام. زارتها للاّ حلّومة مراراً حاملة في جعبتها وصايا تنسبها إلى نفسها، ولكنّها تعلم أنها رغبات الأب. سألتها مرّة عمّا إذا لم يحن الأوان كي تختار من بين علوج المملكة رجلاً يصلح رفيق حياة، فما كان منها إلاّ أن استنكرت: «وهل في وسع السجينة أن تختار رفيق الحياة من بين رجالٍ لا تراهم إلاّ في الأحلام؟». ثمّ أضافت بلهجة ذات معنى: «اللهمّ إلاّ إذا كنتِ تريدينني أن أختار عريساً من بين أشقائي!». أخفقت للاّ حلّومة في إخفاء كآبتها، ولكنّها ما لبثت أن قالت: «الكلّ يعرف أنّكِ لو خُيّرتِ لما اخترتِ رجلاً غير سيدي يوسف!». نظرت في عينيها قبل أن تقول: «لم أخفِ يوماً تعلّقي بسيدي يوسف كما تخفين أنتِ تعلّقكِ بسيدي أحمد!». سكتت للاّ حلّومة لحظة قبل أن تجيب: «سيدي أحمد ابني!». فأجابتها بلا تردّد: «وسيدي يوسف شقيقي!». ابتسمت للاّ حلّومة. قالت: «المرأة لا بدّ أن تعشق رجلاً، فإذا لم تجده اختلقته!». تطلعت إلى الأمّ فرأت سيماء الشقاء في عينيها. شقاء المرأة التي لم تحبّ يوماً، ولم تذق طعم السعادة يوماً. قالت: «أعرف أنّكِ لم تحبّي

أبي في يومٍ من الأيّام، لأن الإنسان لا يستطيع أن يحبّ إنساناً لا يحبّ نفسه، فكيف إذا كان هذا الإنسان الظامىء إلى الحبّ امرأة؟!». من عين الأمّ فزّت دمعة. تمتمت: «من شروط الإيمان أن نقبل المكتوب!». لم تحتمل تسليمها الأبدي لأنها رأت فيه دائماً استسلاماً فثارت في وجهها: «لم يكفكِ أن تسمّمي حياتك بهذا الهراء، ولكنّك سمّمتي به حياتنا أيضاً. هل يعدّ كفراً لو قلبنا وصيّتك هذه وقلنا أن حقيقة الإيمان في التمرّد على المكتوب؟». انتهرتها وهي تشيح عنها بوجهها: «استغفري الله!». قامت إليها بجنون لبوءة: «ولماذا أستغفر؟ ألم يهبني الحياة لأحياها؟ أم أنه وهبني الحياة كي أبدّدها هباءً؟ من يستطيع أن يحيا حياتي نيابةً عنّي؟ بل من يهبني حياته لأحياها نيابةً عنه عندما أخسر حياتي لمجرّد أن العرف الأبله قضى بألاّ يتزوّج أبناء الرعيّة بنات الملوك في حين لم يمنع أبناء الملوك من الدخول على بنات الرعيّة ليتّخذوهنّ زوجات كأنّ بنات الملوك خُلقن من طينة أخرى غير الطينة التي خُلق منها أبناء الملوك؟». كانت تقف فوق رأس أمّها وتلهث. أضافت:

«عرفكم الغبيّ يدفعنا للارتماء في أحضان أخسّ الرجال لمجرّد أنّهم أعلاج أقبلوا من وراء البحار ليتظاهروا باعتناق الإسلام لأغراض لا تخفى على أحد دون أن تعترفوا بأن هذا الفعل إثم يفوق إثم الارتماء في أحضان الأشقّاء!». قاطعتها للاّ حلّومة: «لسنا نحن من سَنَّ شرائع الملوك!». صرخت في وجه الأم: «اللعنة على شرائع الملوك! اللعنة

على..». سدّت الأمّ أذنيها بسبّابتيها وهي تهمهم: «إيّاكِ أن تقولي هذا! لا أريد أن أسمع هذا!». نفّست على نفسها بعد أن استنزلت اللعنة على الملوك وسلالات الملوك، ثم جلست في مواجهة الأمّ. قالت للاّ حلّومة: «لقد جئت اليوم لأسمعكِ ما يسرّكِ، وها أنتِ تسمعينني ما لا يجب أن يُسمع». تطلعت إليها بفضول. قالت: «لا يُسمع في هذا القصر إلاّ ما لا يسرّ!». ساد صمت. تكلّمت للاّ حلّومة: «أبوكِ وجد لكِ عريساً!». هتفت بلا إرادة: «إذا كان علجاً فلا تحدّثيني عنه!». رمقتها للاّ حلّومة بوجع قبل أن تقول: «من أين نأتي لكِ بعريس لا ينتمي لسلالة الأعلاج؟».

أطلقت في وجه الأم ضحكة. ضحكة موجعة أيضاً، قالت بتصميم أدهش الأمّ: «سأتزوّج رجلاً من الرعيّة. سأتزوّج رجلاً من الرعايا حتّى لو كان حوذيّاً! حتّى لو كان قاطع طريق!».

## 36

وقف البك بين يدي الباشا شاحباً. تبادلا نظرة طويلة. لم ينبس الباشا. لم ينبس البك أيضاً. همس البك أخيراً:

ـ لا أفهم. لو أفهمتني يا أبي ماذا تريد مرّة لكفيتَ نفسك وكفيتنا كلّنا شرّ القتال!

صمت الباشا. قال بعينين نصف مغمضتين:

ـ لا أحد في هذه الدنيا يعرف ماذا يريد!

سكت لحظة قبل أن يضيف:

ـ لو علم الناس ماذا يريدون لما عاشوا أشقياء!

رمقه البك بيأس. لم يكن ذلك الإيماء يأساً، ولكنه العجز.

خطا إلى الأمام خطوتين. انهار على مقعد في مواجهة الباشا.

تمتم:

ـ أنت لم تخذلني يا أبي. أنت خذلت شعبك! أنت خذلت نفسك!

تمتم الباشا مغمض العينين:

ـ لو كنتَ مكاني لفعلتَ ما فعلتُ.

ـ أتدري يا أبي ما اسم هذا الفعل؟

لم يجب الباشا فقال البك:

ـ إنه الخيانة!

انتهره الباشا:

ـ احترس!

ثم بنبرة لين:

ـ تسمّي ذلك خيانة وأسمّي ذلك رحمة!

ـ تأمر قائد المدفعية بتوجيه النيران إلى بحرٍ تطفو فوقه سفننا بدل توجيه نيرانه إلى مواقع العدوّ ثمّ تسمّي ذلك رحمة؟

ـ في قلب مواقع العدوّ يدبّ قلبي، فلا تنسَ!

ابتسم البك باستخفاف. ردّد:

ـ لو كنتُ أنا من دَبَّ في قلب العدوّ وليس سيدي يوسف فهل ترحمني؟

سكت الباشا. أضاف البك:

- لو كان سيدي يوسف مكانك لما رحمك؟

- احترس!

- لماذا احترس؟ ألم يعرض عليّ بالأمس زحزحتك من هذا المكان لأتولّى مكانك شريطة أن يتولّى البكوية؟

أجاب الباشا ببرود:

- رسالة الأبناء العقوق، ورسالة الآباء الغفران!

ساد بينهما صمت. طأطأ البك أرضاً. في عينيه ألم. على وجنتيه شحوب. قال دون أن يرفع رأسه:

- ماذا تريدني الآن أن أفعل؟

- إفعل ما يجب عليك أن تفعل!

- كيف تريدني أن أفعل ما يجب أن أفعل بعد أن طعنتني في الظهر فجعلتني في نظر الناس أضحوكةً؟

- من أراد أن يفلح لا يلتفت لما يقوله الناس.

أطلق البك ضحكة سخرية. سكت قليلاً قبل أن يعلن:

- هل تريدني أن أتخلّى؟

استيقظ الباشا من إغماضته. تساءل:

- تتخلّى عن ماذا؟

أجاب البك بلا تردّد:

- أتخلّى عن قيادة الجيش. أتخلّى عن الدفاع عن المدينة. أتخلّى عن البكوية أيضاً. أتخلّى عن كل شيء كما يليق بمحاربٍ مهزوم!

ابتسم الباشا بغموض. قال:

- إذا أردتَ أن تصير أضحوكة في نظر الناس حقّاً فتخلّى!

تطلّع إلى الأب. حدّق في عين الأب، ولكن الباشا فرّ ببصره إلى الظلمات. أغمض عينيه فقال البك:

- إذا كنتَ تريدني أن أحارب حقّاً فلا تخذلني!

سكت الباشا. أضاف البك:

- كما أنّني أحتاج إلى دعمٍ يستحيل تحقيق النصر بدونه.

انتفض الباشا:

- دعم؟

- أحتاج إلى المال!

- أنت تعلم إنّي أحوج إنسانٍ في هذه البلاد إلى المال!

- أنت لا تعلم أنّي عجزتُ في اليومين الماضيين عن تأمين العلف للجياد!

- وأنا عجزتُ في اليومين الماضيين عن تأمين فواكه الحقول لمائدة أهل القصر!

سكت الباشا فقال البك بلهجة استخفاف:

- تعجز عن تأمين الفواكه لموائد القصر، ثمّ لا تجد حرجاً في أن تأمر قائد المدفعية بإبادة كنز لا يقدّر بثمن من مخزون البارود!

أطلق الباشا ضحكة. أضاف البك:

- حاجتنا إلى الذخيرة اليوم أكبر من حاجتنا إلى فواكه الحقول!

تمتم الباشا:

- إن كنتَ لا تصدّق خواء الخزينة فاذهب إلى الخازندار!

البك لم يستسلم:

- لم ألتجىء إليك لأنال المال من خزانة الخازندار، لأنّي أعلم الناس بحالها، ولكن لتبحث لي عن مخرج!

- لا أجد لنفسي مخرجاً، فكيف أجده لك؟

- إئذَنْ لي، إذاً، أن أقترض!

- تقترض؟

- لم يبقَ إلاّ أن أقترض!

- في زمن الحرب لا أحد يقرض أحداً!

البك لم ييأس. قال:

- ثمّة من يقرض حتّى في زمن الحرب!

أفاق الباشا من غفوته الأبدية. حدّق في البك بعينين حمراوين. قال محذّراً:

- إيّاك أن تقول أنّك تنوي أن تقترض من قناصل الدول الأجنبية!

أجاب البك بانكسار:

- لم يبقَ لي يا مولاي خيار!

تطلّع إليه الباشا بدهشة. قال:

- إذا فعلتَ ذلك فسترهن رأسي ورأسك في قبضة ملوك النصارى!

ردّد البك:

ـ لم يبقَ لي خيار!

توعّده الباشا:

ـ وصيّتي لك أن تتريّث!

قال البك:

ـ أن أرهن رأسي أهون من أن أفقد رأسي!

ـ ماذا تقول؟

شيّع إليه البك مقلة ملآنة بالمرارة:

ـ أردت أن أقول أن الرهن أفضل من الهزيمة!

## 37

على مائدة العشاء تطلّعت إستير إلى الباشا ففاض قلبها نحوه بشفقة. قالت:

ـ عرف الباشا في حياته بلايا أسوأ من بليّة هذه الأيام، ولكنّه استطاع بحكمته أن يجتازها بسلام.

رشف الباشا من كأسه قبل أن يقول بلهجة لم تخلُ من سخرية:

ـ اجتزتها بمشيئة الأقدار لا بحكمتي!

تدخّلت زهرة:

ـ هذا يعني أن الحظوظ حليف مولانا.

تهكّم الباشا:

ـ من المؤسف أن الحظوظ لا تحالف أحداً!

عقّبت إستير:

ـ أحلاف الحظوظ دائماً مجازفة حقّاً.

تساءلت زهرة:

ـ ماذا نسمّي سيرة مولانا مع البلايا إذاً؟

تمهّلت إستير قليلاً. قالت:

ـ فلنقل أن مولانا مريد الرحمٰن!

ابتسم الباشا. هلّل:

ـ هذا يروق لي! أحسنتِ يا إستير!

تطلّعت زهرة إلى إستير بحسد. هتفت:

ـ تهانينا!

قال الباشا:

ـ الحكمة بنت بيتها!

صاحت إستير:

ـ مرحى! مرحى! الباشا يتحدّث بلسان العهد القديم!

تساءلت زهرة:

ـ ما معنى الحكمة بنت بيتها؟

قال الباشا مغمض العينين:

ـ الحكمة بنت بيتها، لها أعمدة سبعة!

تبادلت مع إستير نظرة. قالت:

ـ ماذا يقول؟

على شفتي إستير رفّت بسمة غامضة. قالت وهي تداعب كأسها بين يديها:

ـ لقد أعرتُ الباشا كتاب الملّة!

قال الباشا:

ـ آمل ألاّ أكون قد خيّبتُ ظنّك.

هتفت إستير:

ـ بل لم أعرف لي تلميذاً أكثر من مولاي اجتهاداً.

أيّدتها زهرة:

ـ الحقّ مع إستير. أيّ ملك يجهد نفسه بقراءة مزامير اليهود في زمن الحرب؟

ولكن الباشا قرّر أن يضع حدّاً للجدل فسأل إستير:

ـ أنتِ لم تحدّثيني عن أحوال ميزلتوب منذ زمن بعيد.

رمقت إستير الباشا خفيةً. قالت:

ـ لقد تلقّت من سيدي يوسف مكتوباً منذ أيام.

ـ حقّاً؟

ـ قال لها أنه ما زال عند وعده.

ـ هل قال ذلك حقّاً؟

تناول من كأسه جرعة ثم أضاف:

ـ دين المسلمين أباح له أن يتخذ من الزوجات أربعة!

ـ قال أيضاً أنه وجد لها عريساً إذا لم يستطع أن يفي بوعده!

تعجّب الباشا:

- ما معنى ألاّ يستطيع الوفاء بوعده؟

- لا أدري. ربّما يعني أن المحارب لا يستطيع أن يضمن أن يحيا قبل أن تضع الحرب أوزارها!

همهم الباشا:

- هذا إيحاء يليق بسيدي يوسف. لا شكّ أنه يعني ذلك حقّاً.

ساد صمت. تساءل الباشا:

- ولكن ما رأي ميزلتوب؟

- رأي ميزلتوب رأي القدر.

تناولت من كأسها جرعة. أضافت:

- أردت أن أقول أن ميزلتوب تؤمن بالتوراة وترى في التمرّد على مشيئة الربّ حمقاً.

هيمن سكون. تساءلت زهرة:

- متى ينتهي كابوس الحصار فنذهب للتنزّه في بستان المنشية؟

تبادلت إستير مع الباشا نظرة. أغمض الباشا عينيه. تغنّى بصوتٍ لم يسمعه منه أحد:

- لكلّ شيء زمان، ولكلّ أمرٍ تحت السماوات وقتٌ.

تساءلت زهرة:

- ماذا؟

فمضى الباشا في أنشودته:

ـ للولادة وقتٌ وللموت وقتٌ. للغرس وقت ولقلع المغروس وقت. للقتل وقت وللشفاء وقت. للهدم وقت وللبناء وقت. للبكاء وقت وللضحك وقت. للنوح وقت وللرقص وقت. لتفريق الحجارة وقت ولجمع الحجارة وقت. للمعانقة وقت وللانفصال عن المعانقة وقت. للكسب وقت وللخسارة وقت. للصون وقت وللطرح وقت. للتمزيق وقت وللتخييط وقت. للسكوت وقت وللتكلّم وقت. للحبّ وقت وللبغضة وقت. للحرب وقت وللصلح وقت..

سكت لحظات. ردّد وهو ما يزال مغمض العينين:

ـ للحرب وقت، وللصلح وقت!

كانت الدموع تسيل على خدّي إستير. أمّا زهرة فكانت تحدّق في وجه الباشا بذهول. قالت:

ـ هل هذه الأشعار مستعارة من كتاب الملّة أيضاً؟

لم يجبها أحد فأضافت:

ـ إذا كان ما تغنّى به الباشا من أسفار اليهود فسوف أذهب إلى الحاخام لأعتنق اليهوديّة منذ الغد!

ولكن الباشا خيّب ظنّها:

ـ لكي تعتنقي اليهودية لا بدّ أن تولدي من أمّ يهودية!

تنقّلت ببصرها بين الباشا وإستير قبل أن توجّه سؤالها إلى سليلة الملّة:

ـ هل صحيح ما يقوله مولانا يا إستير؟

كفكفت إستير دموعها، ولكنها لم تُجب.

## 38

في بستان المنشية تكلّم الفطيسي فقال:

ـ لو لم يستنجد صاحبنا بربابنة البحار لجلست اليوم في المكان الذي يجب أن تجلس فيه منذ زمن بعيد!

ولكن سيدي يوسف حدجه بنظرة غائبة فأضاف الفطيسي:

ـ يقال أن قناصل النصارى أقرضوه أموالاً سخيّة!

قال سيدي يوسف:

ـ سيدفع ثمنها غالياً.

رمقه الفطيسي بخبث قبل أن يعلّق:

ـ هذا إذا أمهلته الأيّام!

ـ لو سبقناه إلى أصحاب السفن لسخّرناهم ضدّه بدل أن يسخّرهم هو ضدّنا.

ـ ألعن هؤلاء النصارى صاحب المدفعيّة.

قالها الفطيسي ثم أضاف:

ـ لو فزنا بذلك الداهية لتمكّنا من اقتحام المدينة.

سيدي يوسف: لو كفيتني شرّ ذلك الساحر لكافأتك بأنفس ما يمكن أن يكافأ به رجل!

الفطيسي: كان ذلك العلج ساحراً في استخدام المدفع حقّاً. ولكن بماذا ستكافئني إذا كفيتك شرّه؟

سيدي يوسف: بأنفس ما يمكن أن يكافأ به رجل!

الفطيسي: هل هذه أحجية؟

سيدي يوسف: تستطيع أن تقول ذلك.

تفكّر الرجل قليلاً. تمتم بعد قليل:

- أشتمّ في الوعد رائحة امرأة!

هتف سيدي يوسف:

- فكّ الطلسم دائماً خطوة أولى نحو نَيْل البُغْيَة!

فزّ بعدها واقفاً. قال:

- ولكن قبل ذلك لا بدّ من الالتجاء إلى ساحة القناع مرّة أخرى!

نهض الشيخ أيضاً. سأل:

- ولكن ما الحاجة إلى الاستنجاد بالقناع إذا كانت البُغْيَة في متناول اليد؟

- لقد خذلتنا الشراذم الملفّقة من المرتزقة وقطّاع الطرق في المرّة الماضية، ولا أريد أن أُلدغ من الجُحر نفسه مرتين.

- هل تنوي استعطاف زعماء القبائل من جديد؟

اكتأب سيدي يوسف وهو يتطلّع إلى الحقول. قال:

- ليس كل من يحمل سلاحاً ويمتطي صهوة جواد يستحقّ الفوز بلقب فارس.

الفطيسي: لا فروسيّة بلا يقين!

- ولا وجود لهذا اليقين إلاّ في قلوب أبناء تلك القبائل التي يتولّى أمرها الزعماء.

انطلق فهرع العسس ليلتفّوا حوله. أمر أحدهم أن يعدّ الجواد استعداداً للخروج في رحلة، ثمّ مضى عبر الحقل المفروش بغلال انتهكتها قذائف المدافع وسنابك الخيل واستهتار الجند حتّى أدرك البيت الريفي الذي أقامه الباشا في قلب الخمائل للاستجمام زمن السلم، ولكنّه تنازل عنه للأبناء ولم يجد الوقت لاستعماله حتّى في زمن السلم، لأنّه لم يدرك إلاّ بعد تشييده أن الإنسان لا يحتاج إلى بيوت الجدران ما دام يمتلك قلبه وعافيته حتّى أنه راق له دائماً أن يردّد حكمة سمعها من أحد الخدم في شبابه (ولم يعرف معناها الحقيقي إلاّ في شيخوخته) تقول أن العمر ليس جديراً بالبنيان ما دامت تفنيه زريبة ملفّقة من جريد النخيل، بل وتفني معه الأبناء وربّما الأحفاد أيضاً.

في الخارج توقّف. تفكّر قليلاً. عاد على عقبيه حتّى وقف فوق رأس الفطيسي. قال بصوت غريب:

- لا أملك في هذه الدنيا سوى امرأة تحتضن طفلاً هما أمانة في عنقك!

نهض الفطيسي واقفاً. تطلّع إلى الأمير لحظات. قال:

- لستَ في حاجة لأن أؤكّد لك أن سوءاً لن يمسّ أيّ منهما ما دمتُ حيّاً!

أضاف وهو يهمّ بالانصراف:

- تذكّر أن زمن الحرب لا يرحم أحداً!

لم يعرف الفطيسي سرّ العبارة، ولكنه سار في الرّكب ليشيّعه صامتاً. أقبل سيدي البوني بجواد الأمير. قال سيدي يوسف:

ـ أنت سوف ترافقني!

تلفّت حوله قبل أن يضيف:

ـ غانم أيضاً!

تراكض الأعوان هنا وهناك. ولكن سيدي يوسف لم يفق من غيبته. قفز إلى صهوة الجواد بحركة مفاجئة، ثم انطلق به نحو بيت البستان. ترجّل هناك ليقتحم السور. هرع لاستقباله الخدم فأمر بالإعداد لزيارة الحَرَم.

خرجت للاّ حوّاء لاستقباله فأعاد الأمر. احتجّت فانتهرها بصرامة:

ـ في الحال! لا وقت للجدل!

في ظهيرة ذلك اليوم احتضنت الأميرة طفلها الوحيد وخرجت برفقة أمّها في موكب سيدي يوسف حتّى بلغ أعتاب الضريح المهيب المشيّد على رابية في قلب الحقول. استودع أسرته الحَرَم ثم انطلق في الطريق المؤدّي إلى البرّ. ولكن أصحاب الحوليات أكّدوا أن الأمير عاد إلى الحَرَم ليأخذ امرأته وطفله في حضنه ثلاث مرّات كأنّه يودّعهم إلى الأبد. وقد روى سيدي البوني فيما بعد أن للاّ حوّاء توسّلت الأمير أن يتركهم في بيت البستان، ولكن سيدي يوسف عبّر عن وساوسه بالقول أنه لن يأمن سلامة عائلته إلاّ في حِمَى الوليّ.

عقب رحيل سيدي يوسف تلقّت للاّ حوّاء دعوة من الباشا للعودة إلى القصر، ولكنّها رفضت قائلة بأنها ستبقى حيث تركها زوجها ولن تطأ قدمها أرض القلعة إلاّ في اليوم الذي سيدخلها سيدي يوسف ظافراً!

## 39

بعد حواره مع الأمير هجر النوم مقلة الفطيسي. لم تكن المكافأة سبب الأرق، ولكنه التحدّي. لا ينكر أن المرأة مكافأة مجزية، ولكن تدمير الخصم فوز لا يُقدّر بثمن.

في الصباح تنكّر في ثياب الأولياء وتسلّل داخل المدينة ليبدأ حملة الاستفسار عن حقيقة صاحب المدفعية. استعان بالدراويش ودفع الأموال قبل أن يجد نفسه يجلس على مائدة العشاء في مواجهة الداهية. في تلك الجلسة عرف أن ساحر المدفعيّة ليس مريد حرب، ولكنه عازف ناي وُلد في صقلية من أمّ ذات أصول عربية وأب من آسيا الصغرى قضيا نحبهما في حريق شبّ في البيت في وقتٍ كان يجلس فيه على صخرة تشرف على اليمّ معانداً لحوناً مجهولة بآلته الموسيقية. على هذه الصخرة التقطه أحد أرباب البحور في ظهيرة أحد الأيام ليعلّمه العزف على آلة أخرى، موسيقية أيضاً، بفوهتين ظامئتين أيضاً، ولا فرق بينها وبين آلته الأولى سوى في الحجم أوّلاً، وفي أمرٍ آخر أعظم شأناً هو أن الآلة الأولى (الناي) تجلب لمريدها الحزن، أمّا الآلة الموعودة فلا تجلب سوى المجد. وهكذا وجد الشقيّ نفسه يوماً يعاند فوهة المدفع بدل فوهة الناي. ولم يمضِ من الزمن سوى عام واحد حتّى

أفلح في العزف على نايه الجديد لحوناً مميتة دون أن يخطر بباله يوماً أنّها مميتة. وعندما سأله الفطيسي المتنكّر في جلد الوليّ عمّا إذا شعر يوماً بتلك الوسوسة المريبة التي يسمّيها الناس تأنيب الضمير ضحك الداهية حتى استلقى على قفاه. ثمّ أجاب قائلاً أنه لم يستشعر يوماً سوى الوَجْد، لأنّه لم يعزف يوماً على آلة ليستمتع، ولكن ليغيب. وعندما سأله وليّ الزور عن المعنى المقصود بالغياب أجاب بأن الغَيْبة تعني التماهي. هنا استوقفه صاحب اللعنة مرّة أخرى ليتساءل عن معنى التماهي، فما كان من مريد اللحون إلاّ أن قال أن التماهي هو التماهي، أيّ أن يتبادل الأدوار مع اللحن: يصير هو لحناً ويصير اللحن جسداً. أضاف قائلاً أنه سمع مرّة في أحد مرافىء الشرق من يسمّي هذا فناءً، ولكنه يسمّي ذلك حضوراً. رشف من كأسه جرعة في تلك الليلة قبل أن يضيف بالحرف: «أنا أسمّي ذلك حريّةً!». ثم ترنّح حتى ظنّه صاحب وليمة تلك الليلة أنه فقد صوابه. ولكنه ما لبث أن أفشى سرّه في تلك النوبة. أفشى كلمة السرّ التي انتظرها الوليّ المزوّر طويلاً لكي يبطل مفعولها بأسحاره المستعارة من جحيم الأدغال. قال ساحر المدفعيّة في تلك الزلّة المميتة: «مريد الحريّة مخلوق لا يُقهر فكيف بمن صار حريةً؟!». لم يدرِ الشقيّ أنه بلفظه لتلك العبارة إنما لفظ روحه. فقد وجده أعوانه في صباح اليوم التالي ميّتاً في سريره. قيل أنه مات مسموماً. ولكن الكثيرين طعنوا في هذا الزعم وأكّدوا أن المسكين هلك مسحوراً. وحجّة هؤلاء تمثّلت في ذلك الجِرم المريب الذي

وجدوه معلّقاً في رقبة الفقيد على هيئة قطعة ذهبيّة مزبورة بمسخ بدنه حيوان صحراوي منقرض ورأسه رأس إنسان معقود الحاجبين، متوّج بقرنين كريهين بدل الأذنين، أكّد صاحب الوليمة أن القتيل تلقّاه في تلك الليلة هديّةً من الولي المزعوم الذي تبدّد ما أن جدّت سلطات المملكة في طلبه.

بعد عودة سيدي يوسف من رحلة الدواخل على رأس جيشٍ من فرسان القبائل اختلى بالفطيسي حسب رواية أحد العسس. في هذه الخلوة تهامس الاثنان طويلاً. وبرغم أن الرجل لم يسمع من فم الفطيسي اعترافاً، إلاّ أنه سمع بوضوح الوعد الذي نطق به الأمير عندما قال: «نصيبك من الغنيمة: ميزلتوب!».

## 40

أيقن البك أنه أخطأ عندما ظنّ أنه يستطيع أن يجمع بين الضمير والحكم في قلب واحد. وها هو يدفع ثمن حسن ظنّه بهذه العنقاء التي يسمّيها الناس سلطاناً. لم يخطىء مرّة واحدة، ولكنه أخطأ منذ أوّل يوم. أخطأ بقبول بكوية يعرف أنه لم يُخلق لها ولم تُخلق له ولا لأمثاله. ثم أخطأ مرّة أخرى عندما رفض عرض سيدي يوسف بتنحية الأب عن العرش وتوليته بدلاً عنه متحجّجاً بأن انقلاب كهذا عمل لا أخلاقي. وأخطأ للمرّة الثالثة عندما ظنّ أن الباشا يمكن أن يغيّر ما بنفسه فيحارب سيدي يوسف. وها هو يصدر اليوم فرماناً مشبوهاً يدفع بموجبه أعيان المملكة إلى يد سيدي يوسف بحجّة تشكيل الوفد

المكلّف بالتفاوض دون أن يُخفَى على أحد أن الغاية من هذا الفصل الجديد من المهزلة القديمة هو تجريده من الأعوان وعزله نهائيّاً ليتيسّر لسيدي يوسف الانقضاض عليه كما انقضّ قبله على حسن بك بمكائد مثيلة. الباشا لم يكلّف نفسه عناء التشاور معه بشأن هذه الخطوة الخطيرة حتّى أنه لم يعلم بها إلاّ من الحاج حمد بعد أن غادر الوفد بوابات المدينة وبلغ أطراف المنشية. وبرغم يقينه من لا جدوى محاورة الباشا في أيّ شأن من شئون الدنيا (فكيف بشأنٍ من شؤون المملكة أو بشأن السلم أو الحرب)، إلاّ أن المثول بين يديه صار منذ زمن بعيد الشرّ الذي لا بدّ منه.

ولكن مفاجأة أخرى كانت في انتظاره في المدخل. فقد اعترضه أحراس الباشا بالباب الخارجي، ومنعوا عسسه من الدخول. لم يكتفوا بهذا العمل الوقح، ولكنّهم جرّدوه من أسلحته أيضاً. قرّر أن يعود على عقبيه احتجاجاً لولا تدخّل حاج حمد الذي وشوش له في أذنه محذّراً من الاستسلام للاستفزاز، لأنه سيحقّق غاية أهل الكيد فيما لو أقلع عن الزيارة.

في الدّاخل أيضاً انتظرته مفاجأة: وجد الأب يغرق في جوف عرشه يقف على رأسه عدد من العسس المدجّجين بأسلحة مختلفة: أحدهم تمنطق بغدّارتين مشدودتين إلى الحزام، وثانيهما جلف كريه، مشوّه الخِلْقة، عظيم الشدقين، ضخم الكرش، يمسك بيمينه سيفاً مجرّداً من الغمد كأنه ينتظر إشارة أو عبارة من الباشا ليجهز عليه. أمّا

الثالث الذي وقف أمام الباشا فهو زنجي مارد، أقرع، جاحظ المقلتين، يتشبّث ببلطة فظيعة لم يرَ لحجمها مثيلاً حتّى في دكاكين الجزّارين. كان المارد مستنفراً، تدور مقلتاه في محجريهما كأنهما مقلتا حرباء، ترتجف عضلات ساعديه المزمومتين كأنه يتأهّب للانقضاض على عدوّ مجهول لا يراه سواه.

في ذلك اليوم استشعر البك ذُلاً مميتاً. نزّ من جبينه عرق سخيّ وهو يلعن اليوم الذي ارتضى فيه قبول دورٍ في الملهاة المحزنة التي لم يدرك أنها ملهاة إلاّ في اليوم الذي أدرك فيه أنه تورّط إلى الأبد ولا سبيل إلى التراجع. وها هو يقف في الزاوية كأحد الرعاع، كأحد أبناء الرعيّة، بل كلصّ حقير تتسلّط على رقبته سيوف القصاص دون خطيئة أو ذنب. خاطب ربّ العرش قائلاً:

ـ لو وجدتَ لي، يا مولاي، تفسيراً واحداً لما يحدث في هذا القصر لصرتُ أسعد إنسان في هذه الدنيا!

فتح الباشا عيناً، في حين أغمض عيناً قبل أن يقول:

ـ هذا يعني أني سأصير سعيداً أيضاً اليوم برغم أني لم أعرف يوماً ما معنى هذه الكلمة الحمقاء التي لا يكفّ البلهاء عن ترديدها ليل نهار. ذلك أنّي سمعتُ مرّة من يقول أن الإنسان لا يصير سعيداً إذا لم يجلب السعادة لذوي القربى!

ارتجّ بدنه المهول بضحكة مكتومة قبل أن يضيف:

ـ لقد فعلتُ ما فعلت عملاً بوصيّتك التي تقول: «لا تثق بأحد!».

ترجرج كرشه بضحكة أخرى، ولكنه ما لبث أن همد. احتجّ البك:

ـ إذا كنتَ لا تثق بي فلماذا تضعني على رأس الجيش؟ إذا كنتَ لا تثق بي لماذا تنيبني عنك للدفاع عن المدينة وأهل المدينة؟ إذا كنتَ لا تثق بي لماذا قلّدتني منصب البكوية يوماً؟

أجاب الباشا مغمض العينين:

ـ لستُ أنا من قلّدك منصب البكوية، ولكنه ناموس المملكة. لستُ أنا من أنابك للدفاع عن المدينة، ولكنه منصب البكوية هو الذي أنابك. لستُ أنا من سلّمك مقاليد الجيش، ولكنه منصب البكوية مرّة أخرى! أنتم ترونني طاغية يحكم بالمزاج كما يراني كل الناس، ولا تدرون أنّي مسيّر بالأعراف، مكبّل بالنواميس التي لم أختلقها، برغم أنّي لم أخالفها أيضاً!

فاض مدّ اليأس في قلب البك حتى غزا وجنتيه الشحوب وخارت قواه. تمتم لنفسه بحنق: «لم أجادله يوماً إلاّ وخرجت من ساحة الجدل مهزوماً، فما جدوى السِّجال؟».

رفع رأسه نحو الباشا ليقول:

ـ دعنا يا أبي من أمر العسس، لأني الوحيد الذي لن يجد حرجاً من تجريده حتّى من اللباس لأقف بين يديك عارياً، لأني لست في النهاية سوى ولدك الذي حملته يوماً بين يديك كما ولدته أمّه. ولكن ما جئتُ من أجله هو أمر آخر.

لم يجب الباشا، فأضاف البك:

ـ لا أعرف كيف تريدني أن أنتصر في الحرب إذا كنتَ لا تريدني أن أنتصر في هذه الحرب!

استفهم الباشا بنظرة استنكار فأوضح البك:

ـ لم أفق من صدمة صاحب المدفعية حتّى وجدت نفسي أعزلاً من السلاح ومن العقول التي تستخدم السلاح لأن فرمانك بشأن التفاوض قدّم هذه الذخيرة لقمة سهلة في فم التنّين!

استنكر الباشا:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أنّك أرسلتَ صفوة القوم لمفاوضة سيدي يوسف كأنّك نسيتَ أنّنا في حالة حرب، أو كأنّك نسيت من هو سيدي يوسف!

ـ لإثبات حسن النوايا لا بدّ من دفع الثمن!

ـ الوزير الأوّل، والكيخيا الكبير، ورئيس البحرية، والخازندار، ألا ترى أن هذه الكوكبة من أخيار الدولة هي ثمن باهظ سُقْتَه إلى يد سيدي يوسف بلا مقابل وبلا ضمان؟

تمتم الباشا:

ـ أنا أثق في سيدي يوسف، وقد تعمدتُ أن أبعث له بهذا القربان لأبرهن له على هذه الثقة!

فقد البك صوابه:

ـ أنت تثق بسيدي يوسف حقّاً، ولكن سيدي يوسف لا يثق بك!

ـ احترس!

ـ ولماذا أحترس؟ ألم يدلّل على ذلك مراراً؟ ألم يذهب به سوء الظنّ حدّاً عرض فيه عزلك عن العرش لأتولّى مكانك شرط أن يتولّى هو البكوية حتى يشبّ ابني؟ ألم يحتكم إلى السلاح عندما يئس ليرفعه في وجهك ووجهي؟

غمغم الباشا:

ـ لقد قلتُ لك مرّة أن رسالة الأبناء النكران، أمّا رسالة الآباء فالغفران. أنت أيضاً لست منزّهاً عن هذه الخطيئة.

سكت البك. ساد في البلاط سكون. يد المارد الممسكة بالبلطة الفظيعة فقط ارتجفت بعنف فارتدّ البك إلى الوراء خطوة. قال:

ـ ولكن لماذا، يا مولاي، لم تستشرني؟ ألسنا شركاء؟!

ـ لستُ مجبراً على استشارة أحد إذا كان الناموس الذي ورثناه عن أسلافنا يبيح لي ذلك.

سكت البك لحظة. تنقّل ببصره بين الباشا وبين أشباح العسس التي تطوّق عرشه كأنّهم ثالوث الجان. قال:

ـ إذا غدَرَ سيدي يوسف بالوفد فإنّي بريء من دمهم براءة الذئب من دم يوسف!

انحنى وانسلّ ليختفي وراء باب الخروج كأنّه يفرّ من محفل الأرواح الشريرة التي تلتفّ حول العرش.

## 41

في بيتها المشرف على امتداد البحر سألت للاّ زنوبيا وصيفتها العلجيّة:

ـ من الشقيّ الذي اختلق بدعة الحرب يا ترى؟

تطلّعت إليها الوصيفة العلجيّة بفضول قبل أن تجيب:

ـ قابيل يا مولاتي! الشقي قابيل هو أوّل من اختلق في الأرض حرباً يا مولاتي!

تمتمت للاّ زنوبيا وهي تتطلع إلى المرآة:

ـ اللعنة على قابيل!

تلألأت مقلتاها الكحلاوان بالدمع قبل أن تضيف:

ـ بسبب قابيل هذا يذبل الحُسْن في أركان الجدران عبثاً!

ـ بلى يا مولاتي! قابيل لم يقتل هابيل بتلك الطعنة، ولكنه قتل الجَمال!

ـ هذا ما يفعله قابيل هذا الزمان أيضاً!

حدجتها الوصيفة باستفهام قبل أن تهمس بسؤال:

ـ هل قلتِ قابيل هذا الزمان؟

أجابت للاّ زنوبيا بلا اكتراث:

ـ سيدي يوسف! أحمد بك يسمّي شقيقه قابيلاً!

كتمت العلجية ضحكة خبيثة. سكتت لحظة. قالت بعد قليل:

ـ الحرب دمية الرجال، كما الحبّ دمية الحسان!

تنحّت للاّ زنوبيا عن المرآة لحظة. سألت وصيفتها:

ـ ولكن اعترفي أن الحبّ هو الذي ينقذ ما تخرّبه الحرب!

أجابت الوصيفة:

ـ ولكن ماذا يفيد اعترافي يا مولاتي؟ الأَوْلى أن تقنعي معشر الرجال بهذا!

تمتمت للاّ زنوبيا وهي تلتفت إلى المرآة:

ـ الرجال بلهاء!

تلامعت الدموع على رموش عينيها مرّة أخرى. غمغمت بصوت تخنقه العَبرة:

ـ وإلى أن يفيق هؤلاء البلهاء من غفلتهم لا نملك إلاّ أن نجالس المرايا!

غابت الوصيفة في حجرة الداخل لقضاء الحوائج. حاورت مولاتها من هناك:

ـ ولكن الباشا حرّم علينا مجالسة المرايا أيضاً يا مولاتي!

أعقبت ملاحظتها بضحكة. في حنجرة للاّ زنوبيا تحوّلت العبرة إلى غصّة. كانت الدموع تبلّل وجنتيها عندما برطمت:

ـ اللعنة على الباشا! اللعنة على الرجال!

أقبلت العلجية. رمقت دموع سيّدتها فابتسمت. قالت على سبيل التعزية:

ـ ولكن مولاتي ما زالت أحسن حظّاً من كل نساء المملكة.

لم تتحوّل للاّ زنوبيا من مجاورة المرآة. لم تكفكف دموعها. لم تنبس. أضافت الوصيفة:

- سيدي محمّد يقف رهن إشارة مولاتي برغم الحرب، في حين يهلك أنبل رجال المملكة كل ساعة إمّا بسبب المكائد أم بنيران الحرب!

ساد صمت. قالت للاّ زنوبيا:

- من يسمعك يدرك أنّك لم تعشقي في حياتك رجلاً زمن الحرب!

تطلّعت إليها الوصيفة حائرة. تساءلت:

- الحقّ أني لم أفهم يا مولاتي.

شمخت للاّ زنوبيا بجيدها في غارة على المرآة. قالت:

- أنتِ لا تدرين أن الرجال لا يعودون رجالاً عندما تندلع الحرب. إنّهم يفقدون صوابهم ولا نفع لهم في المخدع!

- لا نفع لهم في المخدع؟

- بلى. الحرب تصيبهم بشلل يميت فيهم الحبّ!

- ماذا تقول مولاتي؟

- لقد أيقنتُ مراراً أن فريق الرجال الذي لا يحارب يمارس الحبّ أكثر من الفريق الذي يحارب، لأن الفريق الذي يخوض معمعان الحرب أكثر ظمأ إلى الحبّ من الفريق الآخر العاطل عن الحرب!

سكتت الوصيفة. كانت تقف وراء مولاتها بذهول فتبدو في المرآة الكبيرة التي تستولي على الجدار كلّه مثل تلك الأشباح التي يِقال أن المرايا تقتنصها عندما تجوس خِفْيةً في الديار. تساءلت:

ـ هل يكمن السبب في الوسوسة؟

ـ لا أحد يعلم سبب الدّاء، ولكن اليقين أن الحرب تصيب في هؤلاء الأوباش الرجولة!

تمتمت العلجية في وقفتها الغريبة وراء مولاتها:

ـ من حقّ مولاتي أن تشنّ على الحرب حملتها إذا كانت هذه الجنيّة تشلّ في الرجال الرجولة!

ولكن مسّاً أصاب للاّ زنوبيا، لأنها انتفضت فجأة لتصيح:

ـ لا تقفي ورائي!

فاستفهمت المسكينة بفزع:

ـ ماذا؟

صاحت للاّ زنوبيا:

ـ أنتِ تخيفينني عندما أراكِ تقفين ورائي على هذا النحو في المرآة!

استعجبت المرأة:

ـ أخيفكِ؟

ـ انظري إلى وجهكِ! ألا ترين أنه يشبه السعلاة؟

تراجعت الوصيفة خطوتين إلى الوراء. في سيمائها ارتسمت الدهشة. في مقلتيها التمع فزع. هتفت:

ـ اعتصمي بالتمائم يا مولاتي، فما أنا سوى وصيفتك، وما ترينه ما هو إلاّ مسوخ من صنع المرآة!

هبّت للاّ زنوبيا واقفة. كانت ترتجف عندما أزبدت:

ـ أنتِ تمسكين بسكين! لقد أرتني المرآة ما حجبته عيناي! لماذا تمسكين بالسكين أثناء وقوفك وراء ظهري؟

زعقت الوصيفة:

ـ السكين؟ عن أيّ سكّين تتحدّث مولاتي؟

هجمت للاّ زنوبيا على الوصيفة في نيّة لإخضاعها لحملة تفتيش. شيّعت الوصيفة يديها فوق رأسها وهي ترتعد. ولكن للاّ زنوبيا مدّت يدها إلى جيب جلبابها لتستخرج منه مدية. مدية حقيقية. مدية صغيرة بلسانين فظيعين. لوّحت بالمدية في وجهها وهي تزبد:

ـ هل هذه أداة للزينة؟

ثم أضافت:

ـ اعترفي أن سيدي البوني هو الذي استخدمك!

بدأت العلجية تنتحب. غمغمت وهي تشرق بدموعها:

ـ لبستُ جلباب الخدمة في الصباح ولا أعلم شيئاً عن المدية!

ـ هل تريدين أن تقولي أنّي أنا من دسّ هذا السلاح في جيبكِ؟

بدأت الوصيفة تبكي بصوت عالٍ. تفجّعت:

ـ إني أحمل السكاكين كل يوم دون أن تشكّ مولاتي في أمري..

قاطعتها الحسناء:

ـ سكاكين اليوم ليسوا كسكاكين الأمس! سكّين اليوم كشفته المرآة التي لا تكذب! سكين اليوم إلهام أوحت به الغيوب، فاعترفي أن البوني هو الذي سخّرك!

ثمّ انطلقت إلى الداخل وهي تحاول أن تنفّس عن جنونها:

ـ المرآة عدوّ الرجل، ولكنها حميم المرأة!

## 42

في بستان المنشية بدأت المفاوضات عقب وصول الوفد. ولكن الفريقين لم يتوصّلا لاتفاق حتّى الظهيرة. تبادل سيدي يوسف مع الفطيسي نظرة ذات معنى قبل أن يأمر برفع الجلسة على أن يستمر الإجتماع بعد تناول طعام الغداء. انفضّ المجلس وانتشر الرجال في البستان. أمّا سيدي يوسف فقد اختلى بالفطيسي في أحد أركان البنيان للتشاور. قال الشيخ:

ـ لا أظنّك تجهل ما يجب عمله الآن.

استفهم الأمير بإيماءة، ولكن الفطيسي لم يجب. ابتسم بغموض ثم دسّ يده في جلبابه ليستخرج قطعة جلديّة كئيبة اللون. قدّمها للأمير قائلاً:

ـ إذا أخفقتْ الحكمة فلا مفرّ من اللجوء إلى المكيدة!

طأطأ الأمير أرضاً فتكلّم الفطيسي:

ـ لم يبقَ إلاّ استخدام العُقار!

تمتم سيدي يوسف:

ـ ولكن استخدام العقار سوف يجلّلني بالعار إلى الأبد!

تضاحك الشيخ. قال:

ـ العار في توقيع وثائق الاستسلام لا في استخدام العقار!

ـ لا يليق بمريد السلطان أن يبدأ مسيرة المجد بتدبير الغدر!

حشرج الفطيسي بضحكة لئيمة قبل أن يحاجج:

ـ أنت تنسى أن الناس ينسون!

ـ ينسون؟

ـ النسيان ليس آفة كما يروّج البلهاء. النسيان ترياق! إنسان لا ينسى ليس إنساناً، ولكنه ربّ! والمريد الذي لا يتوكّل على هذه الهبة لا يفلح أبداً!

تناول الأمير الصرّة الجلدية. قلّبها بين يديه باشمئزاز. همس:

ـ لا أعرف لماذا تُشعرني هذه الجلدة بالقشعريرة!

قال الشيخ بتصميم:

ـ النسيان نعمة دائماً باستثناء مرّة واحدة: لا يجب أن ننسى في أيّ يوم أن قربان السلطان هو الدّم! من يتأفّف من سفك الدم ليس عليه أن يذهب في طلب السلطان!

تردّد سيدي يوسف لحظات. غمغم بلعنات مجهولة قبل أن يدسّ الصرّة المريبة في جيبه ويخرج من ركن البنيان كأنه يلوذ بالفرار.

## 43

في زاوية الدار تربّعت أمّ للاّ حوّاء. في حِجْرها رقد الوليد مغموراً بلفافات سخيّة من أثواب الخزّ. تترنّم بلحنٍ من لحون الأشجان وهي تحدّق في الفراغ فترتجّ الأرجوحة التي صنعتها لحفيدها بفخذتيها فلا يلبث الوليد أن يسبل جفنيه ليخفي عينين زرقاوين ملآنتين بروح

شقاوة ورثها عن أبيه يقيناً لا عن أمّه. تسرح الجدّة في رحاب لحن الحنين لحظات فتتوقّف الأرجوحة. يستنكر الوليد في الحال ليعلن عن احتجاجه بالتمطّي والشكوى بأصوات مجهولة. تستيقظ الجدّة من غفلتها لتهتزّ بجسدها استجابةً للحون الحنين. وفجأة فزّت! فزّت وهي تحتضن الحفيد فزعق الوليد فزعاً. أطلقت النداء دون أن تأبه لصراخ الوليد:

- حوّاء!

ردّدت النداء ثلاث مرات قبل أن تلبّي ابنتها النداء. دخلت للاّ حوّاء حاسرة الرأس، شعثاء الشعر فأمرتها بصرامة غير مألوفة:

- إليّ بسيدي يوسف!

احتجّت للاّ حواء:

- ولكنك تعلمين أن سيدي يوسف..

قاطعتها الأمّ بنفاذ صبر:

- إليّ بسيدي يوسف، في الحال!

بهتت الأميرة. سألت:

- ولكن ماذا حدث؟ ألا ترين أنّنا...

ولكن الأمّ انطلقت فجأة إلى الخارج حاملةً في حضنها الحفيد. قالت:

- أنا في طريقي إلى السطح. إذا لم يلتحق بي زوجك في الحال فإن الشرّ سوف يحدث!

صرخت الأميرة:

ـ الشرّ؟ أجارنا الله من الشرّ يا أمّاه..

توارت الأم فهرعت الأميرة إلى المطبخ. هناك أمرت الجارية أن ترسل في طلب سيدي يوسف.

عندما دخل سيدي يوسف كانت للاّ حواء ترتجف. سأل بلهجة تهدّد بغضبة:

ـ ماذا يجري في هذا البيت؟

تلعثمت الأميرة:

ـ لا أعرف ماذا أصابها. حملت الولد وخرجت إلى السطح. قالت إنّها لن تستطيع أن تدفع عنّا الشرّ إذا لم تلتحق بها في الحال!

تمتم الأمير:

ـ الشرّ؟

هرول خارجاً. فوق السطح وجد أمّ حوّاء تقتعد القرفصاء عند حافّة الجدار المفضي إلى الهاوية. تحتضن الوليد وترقب الحقول المزروعة بأشجار اللوز والبرتقال والزيتون. في عينيها لم يرَ بلبلةً ولا بلبالاً كما توقّع، ولكنه رأى تعبيراً أشبه بالتسليم الذي يعقب الصلاة. استوقفته بحركة من يدها. قالت:

ـ أنت تخطىء عندما تظنّ أنّك تستطيع أن تخدعني!

تمتم:

ـ لا أفهم.

ـ بل أنت تفهم.

تضاحك ببلاهة. تقدّم منها خطوة، ولكنها استوقفته محذّرةً:

ـ إيّاك أن تقترب خطوة واحدة أخرى إذا شئت ألاّ تندم إلى الأبد!

غادر التسليم مقلتيها وحلّ في المقلتين إيماء غريب كأنه الجنون.

سأل:

ـ هل تستطيعين أن تفهميني ماذا تريدين؟

ـ أنت تدري ماذا أريد.

ـ يعلم الله أني لا أدري!

قالت بتصميم:

ـ إذا كنتَ لا تريد أن تعترف فسأقول لك ماذا أريد: أن تهبني حياة الأضياف الآن!

ذهل الأمير:

ـ أهبك حياة الأضياف؟

لم تجب ففاض في قلبه الغضب. هتف:

ـ بأيّ حقّ أهبكِ حياة أضيافي؟

رمقته بنظرة حزينة. قالت:

ـ بحقّ ناموس الضيافة!

غمغم:

ـ ظننتك حمقاء دائماً، ولكني لم أظنّك قبل اليوم مجنونة!

ـ هل جنون أن أدعك تغدر بالأضياف في بيتي؟

سكت مذهولاً فأضافت:

ـ في ناموسنا العدوّ إذا دخل البيت فهو آمن، فكيف إذا دخل العدوّ رسول سلام إلى البيت؟

ـ لم أسمح يوماً لامرأة في أن تتدخّل في شأن من شئون الدنيا.

ـ هذا ليس شأناً من شئون الدنيا، ولكنه شأن من شئون الدّين. هل تريد أن تلطّخ سمعة ابنتي بالعار؟

زفر الأمير أنفاساً كالنار. قال:

ـ أنتِ تمتحنين صبري يا امرأة!

هبت في وجهه كاللبوءة وهي تلوّح بالوليد في الهاوية:

ـ بل أنت الذي يمتحن صبري!

زعق الطفل بصوت عالٍ فهرع إليه الأمير، ولكن العجوز أمسكت بالوليد من إحدى رجليه فتدلّى في الهاوية. صرخت:

ـ احترس أن تتقدّم خطوة إذا شئت ألاّ تفقده إلى الأبد!

تراجع الأمير إلى الوراء. صاح:

ـ أنتِ تنسين أنه ليس ابني وحدي، ولكنه حفيدك أيضاً!

زمجرت:

ـ أن أفقد حفيدي أهون من أفقد شرفي!

كان الطفل ما يزال يتدلّى في الهاوية عندما أقبلت الأميرة في لفيف من الجواري والخدم. ولولت بأعلى صوت ولكن الأمير أسكتها

بصرخة جنونية. انتحبت وهي تتوسّل أمّها بكلمات مبهمة. صاحت الأم:

- سوف تفقدين ولدك الوحيد يا حوّاء إذا لم تجبري رجلكِ على الامتثال!

غمغم سيدي يوسف:

- سوف أقتلك!

- تستطيع أن تقتلني، ولكنك ستفقد وريثك الوحيد!

أطلقت ضحكة شماتة. ضحكة جنونية في اللحظة التي ارتمت فيها للاّ حوّاء تحت قدميه لتحتضن ساقيه بيديها متوسّلة أن يفعل شيئاً لإنقاذ ولدهما الوحيد. صرخت أخيراً:

- إذا حدث له مكروه فسوف أقتل نفسي!

دبّ الأمير في أرض السطح بعد أن تحرّر من يديها. لعن الفطيسي في السرّ والعلن، في وقتٍ كان فيه وريثه الوحيد يصمّ أذنيه بالصراخ وهو يتدلّى في الهاوية.

ثمّ انهار فجأة ليركع على ركبتيه بجوار امرأته قائلاً:

- حسناً يا أمّاه! لقد كسبتْ امرأة الرهان وخسره سيدي يوسف!

## 44

بعد القيلولة أمر الباشا باستدعاء للاّ حلّومة. كان يتمدّد على الأريكة، يتلذّذ بالقهوة، عندما دخلت للاّ الكبيرة. ركعت عند قدميه وهي تقبّل يديه قبل أن يحدّق في عينيها بنظرة ذات معنى. قال:

ـ كيف حال المرآة!

طأطأت المرأة. تمتمت:

ـ انتظرتُ أن تسألني عن حال البنات لا حال المرآة!

حاججها:

ـ اعترف لكِ بأن الشرور التي تأتي من المرآة أهون مائة مرّة من الشرور التي تأتي من البنات ومن الأبناء!

زفر ثم أضاف:

ـ الأبناء لعنة!

انكمشت للاّ حلّومة حول نفسها ملفوفةً في لحافها. تمتمت:

ـ لقد انكسر قلبي يا مولاي حتّى أيقنتُ بخلوّ جوفي من القلب!

ـ أنتِ تجنين ما زرعتْ يداكِ. لقد جاهدتُ ببسالة لئلاّ تغرقيني بأفواج هؤلاء الأعداء، ولكنّكِ كابرتِ.

ـ ماذا أفعل يا مولاي إذا كان الخالق هو الذي خلقنا نساءً!؟ امرأة بلا ولد ليست بامرأة ولا برجل!

ترصّدها بنظرة ماكرة قبل أن يسأل:

ـ أما زالت للاّ فاطمة ترفض الزواج من فارس جورجيا؟

نكست المرأة رأسها لتخفي عينيها. قالت:

ـ أنت أعلم الناس بحقيقة للاّ فاطمة.

ـ ستقولين أني المذنب لأنّي دلّلتها في طفولتها. لا أنكر أنّي أحببتها أكثر مما أحببت أخواتها وربّما أكثر مما أحببت إخوتها أيضاً. ولكنّي لم أضع في رأسها الاستهانة بنواميس الأسلاف!

تساءلت للاّ حلّومة بصوت مكتوم:

ـ الاستهانة بنواميس الأسلاف؟

ـ ماذا نسمّي لهفتها لنيْل زوج من أبناء الرعيّة إن لم يكن ذلك استهتاراً بناموس ورثناه أباً عن جدّ؟

ـ ما كلّ ما نتمنّاه نجده. أنت تعلم.

ـ استهتارها لم يتوقّف عند حدّ الاستهانة بناموس السلف، ولكنها تستهين بناموس الله أيضاً!

استنكرت للاّ حلّومة:

ـ ناموس الله؟

ـ هل تظنّين أني أجهل غرامها بسيدي يوسف؟

عضّتْ المرأة على شفتها السفلى بقسوة. قال الباشا:

ـ لقد بلغني أنّها قامت بالأمس بتهريب الألبسة إليه في المنشية برغم التحريم.

سكتت للاّ حلّومة. أضاف الباشا:

ـ لم تُخفَ عليّ أيضاً رسائلها إليه. إنها جاسوس لرجلٍ يرفع السلاح في وجهي ويقصف دياري!

المرأة لم تنبس، فأعلن الباشا:

ـ إمّا أن تختار الرضوخ لمشيئتي وتحترم أسراري، إمّا أن تلتحق بهذا الشقيّ في المنشيّة!

جاهد الباشا لينهض إيذاناً بإنهاء المقابلة. قال مودّعاً:

ـ تذكّري، يا امرأة، أنّ عدوّاً في الظهر أسوأ ألف مرّة من عدوّ في الضاحية!

# القسم الثاني

# 1

الأَستانة صيف 1793م.

في بيتٍ مشيّد من طابقين، يتوسّط بستاناً سخيّاً مطلاً على مضيق الدردنيل، اجتمع شبحان متشابهان كحبّتي زيتون، بوجهين مربّعين، وبأحداق عيون تفيض نهماً وريبةً؛ أحدهما أكبر سنّاً يخضّب لحيته بالحنّاء ليحتال على الشيب، وثانيهما أصغر عمراً يداري الجشع في مقلتيه بإغماض عينيه. كانا متوّجين أيضاً بعمامتين مهيبتين. أوّلَهما القبودان باشا قائد أسطول الإمبراطورية العثمانية الذي أقبل على المملكة الطرابلسية يوماً في مهمّة مشبوهة فذهبت به نذور علي باشا القرمانلي التي نسي الإيفاء بها ما أن انجلت الكربة استجابةً لنداء الطبيعة البشرية. أمّا ثانيهما فهو شقيقه المدجّج بألقاب مريبةً بلغ تعدادها رقماً سحريّاً (بل شيطانياً) هو الستّة وهي: علي أفندي، وعليّ بن زول، وعليّ الجزائري، وعلي برغل، وعلي قراقوش، ولقب سادس سرّي تعمّد ذلك الداهية أن يخفيه عن الخلق على طريقة السحرة خشية أن يتمكّن منه الأعداء فيما لو انكشف، فظلّ مستغلقاً إلى اليوم الذي قررت فيه الأقدار أن تخذله في التصفية النهائية للحساب.

في زاوية من زوايا البيت المسقوف بقطع القرميد تكلّم القبودان باشا:

ـ الحكمة أن نتحلّى بالصبر وننتظر الفوز بالغنيمة بدل السعي للاستيلاء على الغنيمة استيلاءاً. ولكن البليّة هي أننا لا نحتكم إلى ساحة الحكمة إلاّ بعد فوات الأوان.

أغمض صاحب الألقاب المريبة عينيه حتى فزّ منهما الدمع. قال:

ـ لم أبخل على هؤلاء الأوباش بنصيبهم من الغنائم، يعلم الله، ولكنّي لم أجد بدّاً من التصدّي لجشعهم عندما يتمادون!

سدّد له الجليس نظرة عميقة قبل أن يقذف في وجهه بالاتّهام:

ـ أنت، يا عزيزي، جشع. ولن تُشفى من هذا المرض ما لم تعترف به!

شيّع صاحب الألقاب السحرية نظرة خيبة نحو شقيقه. تمتم:

ـ التجأتُ إليك بحثاً عن عزاء، وها أنت تسمعني توبيخاً!

ولكن الشقيق لم يرحمه:

ـ أنت لم تلتجىء إليّ طلباً للعزاء، ولكنّك جئتني طلباً للعون!

ـ فليكن لجوئي إليك طلباً للعون!

ـ هذه خطوة موفّقة في سبيل الاعتراف بالمرض. لقد قلتُ لك دائماً أن السرّ يكمن في التخلّي عن الاستكبار!

عاد صاحب الألقاب يغمض عينيه. غمغم:

ـ الاستكبار جرثومة تسري في دم عائلتنا. الاستكبار جرثومة تسري في سلالتنا. الاستكبار يقين في مسلك كل أهل الأناضول وكلّ من احتكّ بأهل الأناضول!

تطلّع القبودان باشا إلى شقيقه بفضول لحظات. ابتسم قبل أن يزفّ له البشارة:

ـ في جعبتي نبأ سارّ!

تلألأت مقلتا الشقيق بألق طاغٍ. ويبدو أن الانفعال غلب فلجمه الرجل بإغماضة العينين. فزّت الدموع من عينيه حتّى غمرت وجنتيه. تكلم بصوتٍ تخنقه العبرة:

ـ عجّل إذا أحسنت!

ـ أقنعتُ عدداً من تجّار طرابلس وأكابرها برفع مذكّرة تظلّم إلى الباب العالي، ففعلوا!

ـ مذكّرة تظلّم؟

ـ مذكّرة تتهم علي باشا القرمانلي بالضلوع في اغتيال ابنه البكر حسن بك أوّلاً، ثم اتّهامه بتسليم رقاب المسلمين ليد اليهود الذين سلبوا أموالهم بالربا ثانياً!

حدّق صاحب الألقاب في وجه شقيقه بعينين دامعتين نهمتين. قال بصوت مبلبلٍ بالفضول:

ـ وكيف كانت ردّة فعل الباب العالي؟

فرّ القبودان باشا ببصره إلى مياه الدردنيل وهو يداعب حبيبات مسبحته ويبتسم. قال:

ـ لقد أقنعتهم بالمطالبة بفرض باشا آخر مدعومٍ بأسطول الإمبراطورية، ولكن مولانا تحفّظ!

صرخ صاحب الألقاب:

ـ تحفّظ؟!

ـ السلطان في مثل هذه الأحوال لا بدّ أن يتحفّظ. وبرغم التحفّظ تفضّل جلالته فأرسل في طلبي!

ـ أرسل في طلبك؟

ـ استشارني فأبديتُ الشكوك أيضاً!

لم يحتمل صاحب الألقاب برود شقيقه ففاضت دموع الحنق في عينيه. سالت الدموع على وجنتيه بسخاء، ولكنه لم يغمض عينيه. حشرج:

ـ يستشيرك فتبدي شكوكاً؟ أنت تسخر منّي!

هبّ الشقيق في وجهه:

ـ وهل تريدني أن أبدي حماساً؟ هل تظنّني في حضرة داي الجزائر حتّى أكشف عن نواياي؟ أم أنّك نسيت أن المثول بين يدي الباب العالي خطر يستوجب الامتناع عن الإجابة بنعم كما يستوجب الامتناع عن الإجابة بلا؟

ـ الحقّ أني لا أفهم.

ـ من حقّك ألاّ تفهم، لأنّك لم تمثل بين يدي الباب العالي يوماً!

سكت. في عينيه العسليتين، الماكرتين، ومض وجع عابر.

أضاف:

ـ الوقوف في حضرة السلطان ألعن قصاص!

قال صاحب الألقاب بخيبة أمل:

ـ هذا يعني أن المسعى خاب!

رمقه القبودان باستخفاف. قال:

ـ صاحب الجلالة فهم تحفّظي كما يجب أن يُفهم، لأنّه أدهى من أن يقبله كتحفّظ. أعني أنه قَدَّرَ تحفّظي حقّ قدره لأنه الوحيد الذي أدرك مدى حرصي على صيت الإمبراطورية بهذا التحفظ. ولهذا السبب تنازل فكافأني!

هتف صاحب الألقاب المشئومة:

ـ كافأك؟

ـ كافأني على طريقته. كافأني كما يجب أن أُكافأ. ترك لي حريّة التصرّف شريطة ألاّ أورّط الإمبراطورية في متاعب!

ـ لا أفهم ماذا يمكن أن يعنيه هذا؟

أطلق القبودان ضحكة. عاد من رحلته إلى الدردنيل. قال:

ـ ليس غريباً ألاّ تفهم، لأن من قرّبته الأقدار من الباب العالي وحده يستطيع أن يفكّ طلسم المعنى في لغة صاحب الجلالة.

ثمّ نهض واقفاً فنهض صاحب الألقاب أيضاً. ذهبا للتمشّي في البستان المغمور بأشعة شمس المغيب. قال القبودان:

ـ لن أغامر بقطعة واحدة من قطع أسطول الإمبراطورية، ولكنّي سأحمّلك خطاباً إلى أصدقائي في شبه جزيرة «المورة» لتزويدك ببعض

القطع الحربية. سأكاتب آخرين في جزيرة «هيدرا» ليقرضوك المال باسمي ويمدّوك بالرجال. فيما يخصّ الذخيرة تستطيع أن تعتمد على نفسك كقرصان باسل. أنت تفهم ما أعني!

كان صاحب الألقاب يرتجف ويذرف الدمع وهو يستمع إلى شقيقه. تمتم كطفل:

- بالطبع أفهم. سأستولي على حاجتي من الذخيرة، بل ومن السفن الحربية أيضاً، في عرض البحر. كل ما أحتاجه هو سفينة أو سفينتين مزوّدتين بعدد كافٍ من المدافع ومن الرجال!

- حرّرتُ لك فرماناً يقضي بعزل عليّ باشا القرمانلي وتوليتك بدلاً له!

توقّف صاحب الألقاب. تساءل بدهشة:

- هل تريد أن تقول...

قاطعه القبودان:

- نعم، نعم. أريد أن أقول أن الفرمان مزوّر بالطبع، ولكنه سوف يفي بالغرض تماماً فيما لو حالفك التوفيق. أمّا إذا لم يحالفك الحظّ فسوف تتحمّل وحدك النتائج التي ستترتّب على الفشل. هذا هو ناموس الأستانة الخالد!

ساد بينهما سكون. تسلّلت غلالات العتمة لتحجب مياه الدردنيل، ولكن الأنفاس المنبعثة من البحر غزت أنفيهما بالرطوبة.

تساءل صاحب الألقاب:

ـ ولكن ماذا عن الشاوش السلطاني الذي سيتلو فرمان صاحب الجلالة؟

ابتسم القبودان باشا. قال:

ـ نعيم في متناول يدك! ألا يكفيك أن أتنازل لك عن أخلص خدمي؟

بهت صاحب الألقاب:

ـ العجوز نعيم؟

أطلق القبودان ضحكة:

ـ العجز في هذه الحال فقط فضيلة. شاويشيّة السلطان كلّهم عجائز!

ـ ولكنه لا يحسن القراءة ولا الكتابة، فكيف يتلو فرمان صاحب الجلالة؟

مضى القبودان يتضاحك:

ـ إذا غابت القراءة فهناك التلقين! أم أنّك نسيت أن التلقين ضروريّ لإتقان المهزلة؟!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ في طرابلس مهّدتُ لك الطريق. أرسلتُ خطاباً إلى بعض أشياخ البلاد ليعينوك ويحشدوا لمساندتك الأهالي. أمّا بشأن الدهاء فبوسعك أن تعتمد على الشيخ الفطيسي!

ـ الشيخ الفطيسي؟

ـ بلى. إنه أكثر الناس انتظاراً ليوم الانقضاض على ذلك المسخ الذي يتربّع على عرش هذه المملكة!

تساءل صاحب الألقاب ببراءة:

ـ هل بين هذا الفطيسي وبين علي باشا ثأر مّا؟

أجاب القبودان بلهجة غموض:

ـ بلى. بينهما ثأر لا يقارن إلاّ بالثأر القائم بيني وبين ملك المسوخ علي باشا القرمانلي!

## 2

في المدينة سئم الناس حملات الكرّ والفرّ إلى حدّ تمنّى فيه الكثيرون أن يفلح سيدي يوسف في اقتحام الأسوار والاستيلاء على المدينة برغم خوفهم من الفظائع التي سيرتكبها جنوده إذا وفى بوعده فأباحها لهم أياماً ثلاثة كما تقضي أعراف الحروب. وقد بلغ الاستياء بالناس حدّاً جعلهم يعبّرون عن هذا الاستياء جهاراً في الآونة الأخيرة بعد أن كانوا يتهامسون سرّاً طوال السنوات الماضية. تولّد هذا الوباء في نفوس الدهماء في البداية، ثم ترعرع لتنتقل عدواه مع الأيام إلى محافل الأكابر حتّى أن شيخ البلد نفسه لم يجد حرجاً في أن يحتكم إلى معجم الأمثال الشعبية للتعبير عن المحنة عندما قال في إحدى جلسات مقهى «الأعمدة الأربعة»: «الكوي بالنّار خيار فظيع، ولكنه ترياق إذا قورن بآلام الدّاء!». يومها تشجّع سيدي عبد القادر، أحد أثرياء المدينة، ليعبّر أيضاً عن رأيه: «أجل. حلول البلاء أرحم أحياناً من انتظار البلاء،

فلماذا لا نحاول إقناع سيدي يوسف بالتخلّي عن فكرة إباحة المدينة لهؤلاء اللصوص مقابل أن نفتح له أبواب المدينة؟». تبادل الأكابر نظرات الارتياب ثم حاولوا أن يخفوا خوفهم بارتشاف القهوة. قال شيخ البلد: «أظنّ أن هذا اقتراح جريء، ولكنه سابق لأوانه!». لحظتها تدخّل سيدي بركة تاجر الرقيق بعبارة اشتمّ منها الرجال محاولة لتبرئة الذمّة: «وضع البك يثير الشفقة. الكلّ في القصر على يقين أن قلب الباشا مع سيدي يوسف!». أيّده سيدي سليم كبير التجّار الذي عاد أخيراً من الأستانة بأنباء غامضة. قال: «لو انحاز الباشا إلى سيدي يوسف بقلبه وحده لهان الأمر، ولكنه ينحاز له بسيفه أيضاً!». تغامز الأعيان ثم تضاحكوا، ولكن سيدي عبد القادر ما لبث أن أضاف: «بالأمس عرض قنصل البندقية على الباشا التنازل له عن بحّارته الصقالبة للاستعانة بهم في استخدام المدفعية، ولكنه رفض!». سَرَت في الجمع همهمة استنكار قبل أن يعلّق شيخ البلد: «لو قبل الباشا عرض قنصل البندقية لاحترقت المنشية في عشية واحدة، ولما تبقّى من جيش سيدي يوسف محارب واحد. هؤلاء الصقالبة مردة في استخدام المدفعية!».

قال سيدي بركة: «لا أعرف إلى متى نقف مكتوفي الأيدي ونحن نرى بأعيننا كيف تختنق تجارة الذهب، وتتوقّف إمدادات الرقيق، وتلفظ أنفاسها الصفقات!». حاججه سيدي سليم كبير التجّار: «المملكة كلّها تلفظ أنفاسها لا صفقات الأسواق وحدها!». ساد صمت ثقيل قبل أن يتكلّم شيخ البلد: «روح المملكة من روح الأسواق: إذا لفظت

الصفقة أنفاسها لفظت الممالك أنفاسها!». عادوا يرشفون القهوة ويتبادلون النظرات خفيةً إلى أن قال سيدي سليم فجأة: «انتظروا الخلاص من الأستانة!». حدجه الجميع بنظرات الاستفهام، ولكن كبير التجّار دفن عينيه في قاع فنجانه ولم يستجب. قال شيخ البلد: «الأستانة غسلت يديها من هذا البلد منذ زمن بعيد!». تدخّل سيدي بركة صاحب الرقيق: «بانتظار الخلاص من الأستانة إنما نستبدل الغول بسلاّل العقول!». قال سيدي عبد القادر أمير الثّراء: «كلّ ما من شأنه أن يضع حدّاً للهو الصبية المميت هذا هو في رأيي نبيّ خلاص حتّى لو كان غولاً أو سلاّلاً لعقول!». غمغم المحفل بآهات الاستحسان فتشجّع سيدي سليم كبير التجّار مرّة أخرى ليعيد على الأسماع نبوءته الخفيّة: «انتظروا النجدة من الأستانة! لا خلاص لهذه البلاد من الخراب إذا لم تَهُبّ لنجدتها الأستانة!».

3

جلس الشيخ الفطيسي في بستان بيته في المنشية عندما جاءه أحد الخدم بنبأ مصرع سيدي البوني فانتظر حتى انصرف العبد ثمّ انطلق في ضحكة جنونيّة طويلة وهو يستلقي على ظهره. مسح دموعاً سخيّة نزّت من عينيه قبل أن يتمتم لنفسه: «ها أنت تفلح أخيراً يا عبد العبيد!». لم يكن المخلوق الذي خاطبه في خلوة ذلك اليوم بعبد العبيد سوى سليل الجان «غانم» الذي استخدمه سيدي يوسف في القضاء على شقيقه حسن بك مرتكباً خطيئة جسيمة في عرف القصر باقتحامه جناح الحريم

في ذلك اليوم المشئوم. ذلك أن سيدي يوسف كان قد وعد «غانم» هذا بنَيْل للاّ زنوبيا، أجمل امرأة في طرابلس، مكافأةً له على بطولته تلك، وذلك في اليوم نفسه الذي وعده فيه بحسناء الملّة اليهودية «ميزلتوب». ولكن سيدي يوسف انشغل بعد ذلك باستقطاب البدو وتنظيم حملات الكرّ والفرّ على المدينة فظنّ الأبله «غانم» أن الأمير نسي الوعد، فما كان منه إلاّ أن ذكّر مولاه في أحد الأيام. تطلّع إليه الأمير غائباً في ذلك اليوم، ثم تكلّم بعبارة غامضة عندما قال: «وكيف تريدني أن ألقي بك في مخدع امرأة وهي ما تزال في ذمّة رجل؟». وعندما لاحظ خيبة الأمل في سيماء العبد أضاف: «إذا خلّصتني من سيدي البوني اليوم زوّجتك امرأته في الغد!». أطلق الأمير ضحكة حسب رواية شهود العيان قبل أن يضيف بلهجة غموض: «سوف يسعدني أن أراك يوماً وقد أفلحت في استبدال جلدة سلالتك بفضل حسنها!». أطلق بعدها قهقهة مريبة لم يفهم لها أحد سبباً قبل أن يقفز على صهوة جواده وينطلق. بعدها جاء «غانم» لزيارته. أخرج من جيبه قطعاً ذهبية ووضعها بين يديه قبل أن يطلب منه أن ينجده بعقارٍ سحريّ مميت وسريع المفعول لأنه لا ينوي أن ينام ليلة واحدة قبل أن يقضي على سيدي البوني!

لا ينسى الآن لهفة سليل الجان ذاك في مواجهة تلك الليلة: كانت عيناه قانيتان، جاحظتان، جنونيتان. ازدادتا جنوناً برغم أن إيماء الجنون لم ينقصهما يوماً، بل «غانم» هذا لم يفز بلقب «سليل الجان» إلاّ بسبب سيماء الجنون التي تقفز من مقلتيه. كان يومها يرتجف أيضاً.

حول شفتيه المفلطحتين نزّت فقّاعات من الزَّبَد. بشرته ازدادت سواداً وغزتها طبقة من ألق البياض كما يحدث لجلدة الضبّ عندما يهرم ويبلغ من العمر عتيّاً. بعبارة صغيرة كان الرجل محموماً. كان الرجل عاشقاً!

في مواجهة تلك الليلة تطلّع إليه طويلاً قبل أن يقول له: «يحيّرني أن تأتي لتضع كنوزك بين يدي طلباً لعقار سحريّ هو بين يديك!». لم يفهم العبد، بل أساء به الظنون عندما همهم: «إيّاك أن تستخفّ بي!». رمقه ثم ابتسم. أشار إلى فوهة البندقية المنتصبة فوق منكبه قبل أن يوضح: «عقارك السحريّ يختبىء في هذه الفجوة!». أغمض صاحب الجنون عينيه لحظة. حول رموشه تلامع بلل. حشرج بصوت مخنوق: «ماذا تريد أن تقول؟». لم يجبه. حدّق في عينيه. قال له بعينيه كل ما لم يشأ أن يقوله بلسانه. ولكن الأبله لم يفهم. ساعتها أدرك أن الرجل الذي يجثو على ركبتيه أمامه ليس رجلاً ولكنه بالفعل عبد! لأن العبودية لم تكن يوماً دسيسة خبيثة في لون الجلد، ولكنها خلل في العقل. عطب في العقل يسمّيه الناس بلادةً، أو بلاهةً، أو غباء. بلى، بلى. روح العبودية وليدة لغباء. وسوأة هذه العلّة (الغباء) ليست في قدرتها على إرباك شئون صاحبها الدنيوية، ولكن في الإساءة إلى حَرَم الإيماء. في تعطيل لغة الإشارة باستخدام دنس اللسان. في قول ما لا يجب أن يقال إلاّ رمزاً. وهو ما يعني أن هذه العلّة في حقيقتها النهائية ما هي إلاّ خطيئة. أجل، العبودية رجس من عمل الشيطان لأنها خطيئته! وأيّ مخلوق أحقّ بإدراك سرّ الخطيئة سواه هو، سليل «شلم» الذي استعار

روحه يوماً من روح «وانتهيط» العظيم كما تروي الأساطير، فحقّ له أن يصير قريناً لأصحاب السلطان، وبطانة للملوك، ففاز بلقب «اللئيم» إلى جانب ألقابه الكثيرة الأخرى، لأن هذا اللقب هو الاسم الوحيد الذي يصلح نقيضاً للقب «الغبيّ»؟!

استفزّه يومها غباء العبد فاستشعر غضبة. مدّ يده ليستخرج من جيبه قطعة بارود. استخرج رصاصة ووضعها في كفّ سليل الغباء قائلاً: «لا سحر يعلو فوق سحر هذه القطعة!».

ثم نهض وتركه جاثياً.

واليوم عندما تلقّى خبر مصرع سيدي البوني برصاصة لم تخترق جمجمته من الأمام، من جهة العدوّ، ولكن من الخلف، تزعزع بضحكة لا تقلّ جنوناً عن جنون سليل الجان «غانم». ثم استغفر بصوتٍ مسموع قبل أن يتمتم: «أخيراً فهم العبد! لقد لمّح له الأمير برغبته في التخلّص من هذا التّيس الذي انضمّ إليه ليصير له معيناً، ولكنه انقلب في رقبته وزراً، ولكن العبد لم يفهم الإيماء في عبارة مولاه. أظنّ أن فضيلة زواجه من حسناء المملكة ليس في أن يبدّل بحسنها لونه، ولكن في أن يستعير عقلها في نسله!». عاد يتضاحك مرّة أخرى. استولت عليه نوبة جديدة من الضحك لأنه تذكّر وعد الأمير بأن يزفّه إلى أميرة الملّة اليهودية في اليوم نفسه الذي يزفّ فيه عبده «غانم» إلى ربّة الحُسْن الطرابلسي!

## 4

للاّ عويشة لم تعد من المنفى.

للاّ عويشة اغتربت عن حياة القلعة، بل عن حياة المملكة، بل عن الحياة الدنيا، منذ مصرع حسن بك، دون أن تستودع أهل القصر، ودون أن تُشعر أحداً بغيابها. انسحبت بهدوء فانشغل عنها الكلّ بحطام دنياهم وبصغائرهم وبمكائدهم، فلم يلبثوا أن دفنوها في قلوبهم قبل أن يدفنوها في مقبرة العائلة الملكيّة على الشطّ. تمدّدت في ضريح عزلتها بحثاً عن ترياق لفجيعتها (بل لفجيعتيها) في بداية الأمر، ولكنّها استمرأت عزلة الضريح لأنها لم تكتشف مزايا النوم في رحاب الضريح إلاّ بمرور الأيام. اكتشفت الفرجة. من كوّة الضريح راقبت مسرح الدنيا الذي ظنّته حياةً حقيقيّة في ذلك الزمان الذي تبسّمت فيه الحظوظ فأغرقتها البسمة المزوّرة في أحضان الحميم قبل أن تغرقها في ترف الرخاء فانطلت عليها الحيلة. انطلت عليها حِيَل الحظوظ الخالدة فنسيت وجود الوجه الآخر لبسمات الحظوظ الذي يروق لكهنة الصحاري ودراويش البلاد أن يطلقوا عليه اسم البليّة!

عبس الزمان فأطلق العنان لمارد القدر فابتليت لا مرّة واحدة بل مرّتين. فقدت الحميم بطعنات الغدر، ثم فقدت وريث الحميم بطعنة غدر أيضاً.

حدث كل شيء فجاءةً كأنه كابوس في حلم. حدث كل شيء دون أن تتزلزل الدنيا، ودون أن تشهد المملكة قيام القيامة. تزلزلت

دنياها في غمضة دون أن تتزلزل دنيا الأنام. قامت قيامتها دون أن تقوم قيامة الممالك أو قيامة رعايا الممالك. لا مبالاة الخلق زعزعتها فهرعت إلى السمّ لتنسى. أدركتها الجارية في آخر لحظة بحجّة أيقظتها: «لا تنسي، يا مولاتي، أن المرأة لم تُخلق لتحيا حياتها، ولكنّها خُلقت لتهب حياتها لأطفالها!». استخدمت الجارية هذه الحجة مرّتين: مرّة يوم مصرع البك، ومرّة يوم مقتل وريث البك.

لم يبقَ لها بعدها إلاّ الانسحاب إلى ظلمات الضريح إذا شاءت أن تحيي زنوبيا. زارت الأضرحة لتتأمّل سكينة الأضرحة. كانت تطوف أضرحة الأولياء في أيام كان فيه أهل القصر يتقاتلون قتالاً مميتاً دون أن تعير تناحرهم اهتماماً ودون أن تتساءل عن السبب. انسحبت من حياتهم فانسحبوا هم أيضاً من حياتها. تركت لهم دُماهم وألعابهم وكلّ ما رأوا فيه زينة لدنياهم فتركوها، وتجاهلوها، بل نسوها.

أدهشها أن يكون نيْل كنز جسيم كالحرية يسير وفي متناول اليد إلى هذا الحدّ. أغدقت على المساكين بالحسنات ولم تبخل على الأولياء بالنذور، لأنّ العزلة حقّقت لها ما لم تحلم بتحقيقه يوماً ولم تسمع بسيرته إلاّ من أفواه الدراويش وأهل الصحراء: الحريّة!

لم تعد تقلق إذا تأخّرت للاّ حلّومة، أو للاّ عائشة، أو للاّ حسنيّة، في القيام بزيارتها. بل صارت تستشعر سعادة غامضة كلّما غابت عنها نساء القصر لأن تلك الغيبات حقّقت لها أماناً خفيّاً لم تقف له في البداية على سرّ. ولكنّها أدركت مع الأيام أنه لم يكن في الحقيقة

سوى غيبة للبلبلة وحضور للخلوة. هذه الخلوة التي لم تكن سوى الأرجوحة التي تستدرج ذلك الحلم الذي يتطلّع إليه كلّ الناس، ولكنه لا يهب نفسه إلاّ للأخيار الذين أحاقت بهم بليّة: الحرية!

بالأمس نقل لها الخدم نبأ نعي السفير الحاج عبد الرحمن فتمتمت لنفسها: «هنيئاً للاّ آمنة!». لم تضف للعبارة: «..بالحريّة!» لئلاّ يسيء فهمها الخدم، ولكن الخدم أساءوا فهمها في كلّ حال، لأنها أبصرت إيماء استنكار في عيونهم. وهو إيماء اعتادت أن تراه منذ استمرأت حياة الضريح (كما تسمّيها) دون أن تخبر هؤلاء البلهاء بأن حياة الضريح تلك لم تكن حياة الحِداد على فقيديها كما ظنّوا، ولكنها حياة الحِداد على الدنيا كلّها. حياة الحداد عليهم أيضاً. لأن صاحب البليّة وحده يستطيع أن يتباهى بالحريّة. يستطيع أن يتباهى بالموت!

منذ يومين أخبروها أيضاً بهزيمة آغا مصراتة أمام قوّات سيدي يوسف بعد أن خذله الباشا فلم تملك إلاّ أن تعبّر: «هنيئاً لآغا مصراته بالهزيمة، والويل ثم الويل لسيدي يوسف!». تغامز الخدم خِفْية تشكيكاً في قواها العقلية ليقينهم بأن العكس هو الأصح، وحجّتها ضرب من جنون، لأنهم لا يدرون أن صاحب الهزيمة هو صاحب النصر في النهاية، أمّا صاحب النصر فيربّي في كمّه الهزيمة. المهزوم ينتصر بالبليّة التي تخفي في عبّها الحريّة، وصاحب الغلبة مهزوم بالعبودية المخفيّة في ثنايا رايات النصر!

لقد سمعتْ حميمها يردّد حكمة كثيراً ما تشدّق بها القادة تقول: «الويل للمهزومين!»، ولم تدرك إلاّ اليوم مدى خطأ هذا القول، لأن من جرّب حياة الضريح فقط يملك الحقّ في أن يقلب هذه الآية رأساً على عقب فيقول: «الويل للمنتصرين!».

**5**

بحر ليبيا. سواحل طرابلس. 29 يوليو 1793م.

مع حلول ضحى ذلك اليوم تبدّى في عرض البحر، قبالة شطآن المدينة، أسطول مريب مكوّن من ثماني قطع حربيّة، ترفرف في أعاليها رايات مهيبة، بل كريهة لأنّها لم تستظهر في يابسةٍ أو في يمّ إلاّ حلّ في ذلك المكان الخراب، وحاقت بأهل المكان البلايا: تلك هي رايات الإمبراطورية العثمانية!

في ضحى ذلك اليوم أيضاً تبلبل الناس الذين تجمّعوا عند المرفأ بالوساوس، وتوقّعوا بقدوم أسطول الأستانة شرّاً.

كان النهار مشمساً، ينذر بيوم قائظ. البحر ساكن كأنه بحيرة عظيمة من زيت، ولكنّه ازداد زرقة على نحوٍ مريب. السماء العارية من السحب ازدادت أيضاً زرقة كأنها في حلفٍ مع البحر الليبي العظيم، تستعير منه الزرقة حيناً، ويستعير هو منها زرقته أحياناً. ولكن سكينتهما اليوم استرعت انتباه حتّى الأطفال فكفّوا عن الهرج وطفقوا يرقبون الميناء من سطوح الدور.

أمّا الدراويش وأهل الرباط والكهنة الذين أقبلوا من خلوات

الصحراء فقد اندسّوا في الصفوف المتجمهرة على الأرصفة ليقرأوا في الأفق نبوءة تتستّر في وجوم الأعالي وسكوت الأسافل ممّا يوحي بميلاد فصلٍ جديد من المهزلة الخالدة التي يروق لهذين القرينين الخالدين (السماء والبحر) أن يتفرّجا على فصولها التي تتكرّر منذ أزلٍ ركب فيه ابن آدم البحر طلباً للرزق، ومنذ أمدٍ تطلّع فيه هذا السليل إلى السّماء طلباً للربّ.

اقترب الأسطول مسافة أخرى فرأى الناس كيف انطلق من المرفأ قارب المملكة الحربيّ متجهاً نحو الأسطول للاستفهام عن هويّة السفن. ولم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتّى رأى الناس كيف أحاطت القطع الحربية الغازية بالقارب الملكي فحاصرته. لم تكتفِ بمحاصرته، ولكن الناس رأوا بأعينهم كيف استنزلت السفن العثمانية قوارب حربية مدجّجة بالجنود لتحيط بالقارب. ثمّ رأى الناس أيضاً كيف وضع هؤلاء الجنود القيود في أيدي جنود القارب الملكي وساقوهم كالماشية إلى المعتقل!

ازداد السكون عمقاً. سكونٌ في السماء. سكونٌ في البحر. سكون بين الناس. ولكن الأسطول المتوّج برايات الإمبراطورية العثمانية مضى يقترب وسط شلل مميت في الضفّة الأخرى لليمّ. لم يحتجّ أحد على هذا الفعل العدواني. لم يرتفع صوت باستنكار لا في زحام الناس، ولا في أوساط البحرية الملكيّة. مضى السكون يستولي على كل شيء كأنه الموت. كأنّ القدر هو الذي يتقدّم في ركاب ذلك الأسطول المشئوم وليس مجرّد قطع بحرية أَلِفَ البحّارة الطرابلسية

الإغارة عليها وتدميرها وأسر ربابنتها وبحّارتها مراراً وتكراراً في عرض بحرهم الليبي العظيم الذي لم يطلق الأسلاف عليه هذا الاسم المهيب إلاّ اعترافاً ببطولات أهله التي كانت رحاب هذا البحر لهذه البطولات حلبةً دوماً. ولكن فرسان البحرية أصيبوا يومها أيضاً بالشلل، فطفقوا ينتظرون الجلاّد باستسلام الضحيّة.

لم يمضِ وقت طويل حتّى وقف الناس يشهدون كيف طوّق الأسطول الحربي العثماني منافذ الميناء ليبدأ إنزال الجنود. مئات من الجنود غمروا الساحل فيما كان رجل عجوز، أحدب الظهر، موسوم بالتجاعيد، ادّعى أنه شاوش السلطان، ينهمك في قراءة ركيكة لوثيقة قال أنها فرمان سلطاني يقضي بعزل علي باشا القرمانلي عن عرش طرابلس وتولية علي باشا بن زول دايا على هذه الإيّالة بديلاً عنه.

في تلك اللحظة كان صاحب الألقاب المريبة يأمر باستدعاء أعيان المدينة، فيما كان رئيس البحرية الطرابلسية يُقْبل عليه لتقديم فروض الولاء للعلم العثماني في الظاهر، ولكن لتنفيذ مهمّة استعلامية كلّفه بها الباشا في الخفاء. ما حدث بعد ذلك نزل على جموع الناس نزول الصاعقة. فقد رأى الناس بأعينهم كيف أمر ذلك المارد ذو السحنة الشيطانية المربّعة باعتقال رئيس بحريّتهم أمام أعينهم ليساق كالمجرم مسلسلاً في الحديد!

في القلعة كان الباشا يتربّع على عرشه ويسبّ داء النسيان بأعلى صوت، لأنه رأى في هذه الآفة سبب البليّة:

ـ القبودان باشا! هذه مكيدة من القبودان باشا! لقد أجارتني الأقدار من شرّه يوماً مقابل نذر بإطعام المساكين وتحرير سجناء وعتق عبيد، ولكنّي كنت أنسى الإيفاء بهذا النذر كلّما تذكّرته!

دخل البك للمرّة الثانية على الباشا في ذلك اليوم ليتلو تقريراً لجلالته عن البليّة الجديدة التي تنسج الأقدار خيوطها عند الميناء. استمع الباشا لتفاصيل كثيرة مغمض العينين. وعندما انتهى البك من سرد روايته تمتم الباشا:

ـ القبودان باشا!

استفهم البك فأضاف الباشا:

ـ أقصفوا القراصنة!

شلّ الذهول لسان البك. ردّد بلا وعي:

ـ نقصف القراصنة!

فتح الباشا عينيه. كانتا داميتين. في مقلتيهما تصميم لم يعهده فيهما البك. صاح:

ـ تلك عصابة قراصنة بعث بها اللئيم قبودان باشا ولا صلة لها بالباب العالي! إذا لم تقصفهم بالقنابل الآن فأخشى أن يفوت بعدها الأوان!

تابعه البك بدهشة. تابعه بعجز. تابعه بيأس. قال:

ـ بماذا تريدنا أن نقصفهم يا مولاي؟

استفهم الباشا بنظرة استنكار فأضاف البك:

ـ لقد استنفدنا كلّ ذخيرتنا في الحرب مع سيدي يوسف!

ـ استنفدنا ذخيرتنا في الحرب مع سيدي يوسف؟

ـ لقد توسّلتك مراراً أن تهبني بعض المال ولو على سبيل الدَّيْن، ولكنك رفضت لأنك لا تريد أن تكسر قلبك الذي يحاربك من المرج!

ـ احترس!

قرع جرساً بجواره ثم أضاف:

ـ أنت تضيّع وقتي كعادتك في الجدل!

دخل أحد العسس. أمر الباشا:

ـ إليّ بالعلج «دزي»!

تبادل الحارس مع البك نظرة. قال البك:

ـ لن يستطيع أحد يا أبي أن يأتيك بالعلج «دزي»!

استفهم الباشا:

ـ ماذا تقول؟

أجاب البك بخيبة أمل:

ـ لقد انضمّ «دزي» هذا إلى صفوف العدوّ!

ـ ماذا تقول؟

ـ هل نسيتَ يا مولاي أن «دزي» جورجيّ الأصل؟ هل نسيت أن القرصان الذي استولى على الميناء منذ قليل جورجيّ الأصل أيضاً؟

سكت الباشا. أغمض عينيه. أضاف البك:

ـ يقال أن بينهما صلة قرابة. كما أشيع أن «دزي» هذا لم يكن منذ البداية سوى أحد الجواسيس الذين مهّدوا لهذه الحملة!

تمتم الباشا مغمض العينين:

ـ أريد رئيس البحرية! أحضروا رئيس بحريّتي الآن!

لم يرحمه البك:

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات يا مولاي!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ رئيس البحرية وقع في يد القراصنة منذ قليل!

فتح الباشا عينيه فرأى فيهما البك إيماءاً ماكراً برغم المحنة. قال الباشا:

ـ لماذا لا نستنجد بسيدي يوسف؟

لم ينتظر جواب البك. أمر الحارس:

ـ افتحوا بوابات المدينة لجحافل سيدي يوسف في الحال!

تردّد الحارس. استنجد بالبك ببصره. قال البك:

ـ لقد استولى رجال القرصان على البوابات يا أبي!

ذهل الباشا:

ـ استولى رجال القرصان على البوابات؟

ـ لقد مكّنه الأهالي من ذلك يا مولاي!

ترجرج بدن الباشا في عرشه. حاول أن ينهض، ولكن البدن خذله. حشرج:

ـ خيانة! هذه خيانة. كلّكم خونة!

أوضح البك:

ـ أهل المدينة يظنّون أنّك أنت من خانهم يا مولاي لا هم!

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ فضلّوا أن يسلّموا بوابات المدينة للغزاة لأنّهم أرحم من جيوش سيدي يوسف!

ـ أرحم من جيوش سيدي يوسف؟

ـ ألم يَعِدْ سيدي يوسف جيشه باستباحة مدينتهم ثلاثة أيام إذا دخلها؟

ـ اللّعنة!

لفظها الباشا كأنه يلفظ بصقه. صاح:

ـ جئوني بالأعيان! جئوني بأعضاء الديوان الآن!

ـ هيهات يا مولاي! أعضاء الديوان نسوا منذ زمن بعيد أنّهم أعضاء ديوان لأنك لم تجتمع بهم منذ سنوات. أمّا الأعيان فقد شوهدوا وهم يتقاطرون على مقصورة القرصان يتقدّمهم الشيخ الفطيسي!

تمتم الباشا:

ـ هل قلت الشيخ الفطيسي؟

أوضح البك:

ـ شيخ البلد، وكبير التجّار، وسيدي عبد القادر، وسيدي بركة، وشيخ الزور الفطيسي على رأسهم!

غمغم الباشا:

ـ ولكن الفطيسي مريد سيدي يوسف حسب علمي. أيعقل أن يكون سيدي يوسف على صلة بالقرصان؟

ـ جواسيسنا يجمعون أن الفطيسي هو الجاسوس!

تمتم الباشا:

ـ لقد أيقنتُ أن ذلك الوغد يخفي سرّاً منذ جادلته بشأن المرايا!

ابتسم البك باستخفاف. قال الباشا:

ـ أيعني هذا أن الفرار هو المفرّ؟

سكت البك. أضاف الباشا:

ـ الفرار ليس جبناً. الفرار أحياناً شجاعة!

أغمض عينيه قبل أن يبذل جهداً بطوليّاً كي ينهض على قدميه. تمتم وهو يتخلّى عن عرشٍ لم يحسب يوماً أنه سيتخلّى عنه:

ـ من لم يهب الأقدار قرباناً ممّا ملكت يداه، صيّرته الأقدار لها قرباناً!

## 6

طرابلس. الساعة الحادية عشر وعشرة دقائق قبل منتصف الليل من يوم 29 يوليو 1793م.

تسلّل الباشا من أبواب القلعة الخلفيّة في تلك الليلة كما يتسلّل اللّص. رافقته في تلك الرحلة فلول الحاشية كأحمد بك والكيخيا الكبير وبك بنغازي والوزير الأوّل وعائلاتهم وخدمهم، في حين استجارت للاّ حلّومة بإحدى دور الرعية بسبب المرض ترافقها حفيدتها للاّ زنوبيا سليلة الفقيد حسن بك، وللاّ عائشة قرينة رئيس البحرية، وللاّ فاطمة أرملة بك بنغازي.

ويروي أصحاب حوليّات ذلك الزمان أن الباشا هرب مرفوقاً بما يزيد على الألف والمائتين من الأتباع في طريقه إلى تونس قبل أن يعترضه في زوارة فرسان قبائل النوائل (الذين عوّل على عونهم كثيراً) فنهبوا كنوزه وأمتعته وحتّى دوابه وخيوله، قبل أن يدرك مدينة صفاقس حيث استقبل بفتورٍ كان أقسى عليه من فراره ومن محنته كلّها. وقد تناسى البك حمّودة (صاحب تونس) عداواتهما القديمة فمنح الباشا حقّ اللجوء. إلاّ أن أجناس الهوان التي اعترضته أصابته بجرح في القلب ظلّ ينزف إلى آخر يوم في حياته.

بعد مغادرة الباشا للقلعة بدقائق هدرت فوق القلاع قذائف المدافع فَهَمْهَمَ الناس بآيات التوحيد التي اعتادوا أن يردّدوها ترحّماً على أولئك الذين نالتهم المنيّة. في تلك الليلة سهروا الليل انتظاراً لمثل هذه الإشارة. وما أن انطلقت المدافع حتّى ردّدوا بعد أن ترحّموا: «هذه إشارة لتعرّض ضبّاط الباشا ورئيس بحريّته للموت خنقاً!»، فيما كان سلطان القرصنة المتوّج بسلسلة الألقاب السحريّة يخرج من مقصورته في الميناء مع بزوغ قبس السَّحَر متجهاً إلى القلعة في حاشية من الأعوان، فاستُبدلت جميع الرايات الملكيّة الطرابلسيّة برايات الإمبراطورية العثمانية، ورُفع العلم القرمزي بهلاله الذهبيّ فوق السراي والمراكب البحرية، والدور الرسمية.

تقدّم الموكب انطلاقاً من باب البحر متجهاً صوب القلعة، تتقدّمه الفرقة الموسيقية التي تقدّمت موكب الباشا مراراً، وكذلك موكب البك،

بعدد أفرادها من الشاويشية أنفسهم، نافخةً في الأبواق اللحون ذاتها، في وقتٍ كان فيه الجنود الأتراك (الذين احتلّوا كل زوايا المدينة منذ البارحة) يهرعون لاستبعاد العمّال اليهود (الموكلون بنظافة المدينة) من الطرقات كأنّهم يهشّون أسراب ذبابٍ يمكن أن يصيب سيّدهم بالوباء. ولكن أناساً كثيرين أوتوا علماً برطانات الأناضول سمعوهم وهم يفضحون السبب الذي لم يكن سوى تطيّر الباشا الجديد من هذه الملّة، لأنها لم تعترض طريقه يوماً، بل لم يقع بصره يوماً على فردٍ من أفرادها، إلاّ وناله سوء. وقد أكّد البعض أنهم سمعوا هؤلاء الجنود يتهامسون بالويل الذي ينتظر أبناء هذه الملّة الشقيّة.

بعد قليل، مع طلوع فجر يومٍ جديد، هو الـ30 من شهر يوليو من عام 1793م، حتّى تزعزعت أبنية المدينة بقذائف المدفعية من السفن التركية، وكذلك الطرابلسية الراسية في الميناء، ومن فوهات المدافع الجاثمة فوق الحصون، إعلاناً بتنصيب صاحب الألقاب المريبة سلطاناً على عرش طرابلس.

7

في ذلك اليوم توقّف القتال في الضاحية. أمر سيدي يوسف بسحب قوّاته وتلهّف للفوز بالأنباء. أخبره «غانم» باختفاء الشيخ الفطيسي فتبسّم وأمره أن يتنكّر في جرود البدو ويذهب إلى المدينة ليستطلع. في ذلك الوقت كان حاج أحمد ساعد البك الأيمن يتنكّر أيضاً ويدخل المدينة ليستطلع بأمرٍ من البك في وقتٍ كانت فيه الحاضرة

تُستباح من قِبل عصابة القراصنة: طيّرت نشوة النصر عقل المغامرين فأطلقوا لشهواتهم العنان مستنصرين بجهالة صاحبهم الظّامىء للمال والعنف وإراقة الدماء. ساروا في شوارع المدينة المهجورة في عصابات مخمورة، يتسلّون بإطلاق النار في الهواء حيناً، وعلى السابلة حيناً، وعلى بعضهم البعض أيضاً. في الليلة الأولى حطّموا أبواب الحانات ليتزوّدوا بحاجاتهم من الخمور. وفي الليل الثانية حطّموا أبواب البيوت واقتحموا الدور ليبدأوا حملة النهب التي استمرّت ثلاثة أيام كأنّ نيّة سيدي يوسف في نهب المدينة لأيامٍ ثلاثة قد راقت لهم فقرّروا أن ينفذوها نيابةً عنه. لم تكتفِ الشراذم المخمورة بسلب الأهالي، ولكنّها اغتصبت النساء أيضاً. بل وقتلت كل من قرّر أن يدافع عن عرضه أو حرمة بيته. هرع الأكابر إلى القلعة للاستجارة بعروتها الوثقى يتقدّمهم سيدي سليم كبير التجّار وشيخ البلد، ولكن الباشا الجديد تنكّر لهم وعاملهم كما يعامل الغزاة. فبدل أن يستقبلهم ليسمع تظلّمهم بالاقتصاص من جنده كما يليق بكل قائد حكيم، أصدر أوامره باعتقالهم، بل وبقرع أرجلهم بالفلقة.

ويُروى أنه جمع أعوانه بعدها ليسمعهم وصيّة تقول حرفيّاً:

«عدوّي هو من خان عدوي، لا من خانني!». وعندما استفهموا عن معنى هذه الأحجيّة أضاف: «هؤلاء الأكابر باعوا مليكهم ووطنهم يوم ساعدوني في امتلاك بلادهم فأيّ أحمق سأكون إذا آمنتُ ديّوثاً؟». تجاسر أحد أعوانه البلهاء فاستفسر عن معنى كلمة «ديّوث» في سياق

الوصيّة، فما كان من الباشا إلاّ أن رمقه بروح التسامح قبل أن يجيب: «الديّوث هو كلّ من يتنازل لك عن امرأته لتنالها نيابةً عنه!». ثمّ.. ثمّ تبسّم بغموض قبل أن يستصدر أمره باستنزال القصاص بالخونة. أمر بشنق كل من ساعده في الاستيلاء على المملكة. في تلك الليلة تمّ شنق سيدي سليم كبير التجّار ومصادرة ثرواته كما تمّ خنق سيدي عبد القادر أمير الثراء وصودرت أمواله. أمّا سيدي بركة تاجر الرقيق فقد صُلِبَ على باب هوّارة بعد مصادرة ممتلكاته سواء الثابتة في صورة عقارات، أو المنقولة في صورة عبيد. أمر الجلاّد يومها بالقضاء على أخيارٍ آخرين، ولكن الناس لم تعترف لأيّ منهم بمأثرة أو بطولة كما اعترفت لسيدي بركة الذي اعتبرته شهيداً لأنه الوحيد الذي جاهر بنبوءته القديمة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة: «بانتظار الخلاص من الأستانة إنما نستبدل الغول بسلاّل عقول!».

وفي الوقت الذي انطلق فيه مردة «سلاّل العقول» هذا بحثاً عن خونة حقيقيين وآخرين مزعومين في زوايا المدينة المشلولة، كان صاحب الأسحار يتربّع في عرشه بالقلعة، ويمسّد لحيته المربّعة ويترجرج بالضحك. ضحك طويلاً قبل أن يستصدر سلسلة من الفرمانات الجنونيّة يقضي أوّلها بالاستيلاء على أموال الملّة اليهودية متستّراً بعبارة غامضة وردت في حيثيات الفرمان يقول حرفها: «نظراً لضرورة تحرير رقاب المسلمين من مرابيي الجالية اليهودية.. إلخ»؛ ثم تلا هذا الفرمان فرمان آخر استهدف الجالية النصرانية هذه المرّة نصّ

على نزع ملكيّة كل من احتكر تجارة الخمور من أبناء الأمم المسيحية طوال السنوات الماضية. أمّا الفرمان الثالث فكان من نصيب قناصل الدول الأجنبيّة المعتمدين لدى المملكة، حيث نصّ في أحد بنوده على ضرورة خلع القناصل لأحذيتهم قبل الدخول على الباشا، كما نصّ في بندٍ ثانٍ على ضرورة «تقبيل يد جلالته»، وفي بند آخر حرّم دخول القناصل عليه متمنطقين بأسلحتهم كما اعتادوا أن يفعلوا في عهد القرمانلي الغابر. ويقول المؤرخون أن قناصل الأمم النصرانية رفضوا كل ما ورد في هذا الفرمان نصّاً وروحاً في اجتماع طارىء عقدوه بالمناسبة لم يتغيّب عن حضوره سوى القنصل الهولندي الذي كان في ذلك الوقت في طريقه إلى القلعة للاحتجاج على استيلاء قراصنة القرصان على سفينة تجارية هولندية كانت في طريقها لتفريغ حمولتها في ميناء مصراته. ولكنه فوجىء بزبانية إبليس الزمان هذا ينقضّون عليه ما أن دخل القاعة ليسحبوه من ذراعيه عبر البلاط حتّى ألقوا به عند أعتاب عرش مولاهم الذي أمرهم بتجريده من سيفه مهدّداً بأن يكسره على رأسه إذا تجاسر وظهر في حضرته مسلّحاً مرّة أخرى. ثم أمر الزبانية أن يجرجروه خارجاً ليلقوا به على قارعة الطريق كأنه كيس قمامة!

في اليوم التالي (وهو الثالث لاستيلاء عصابة القراصنة على المدينة) أفلح الزبانية في القبض على جاسوسين خطرين بعونٍ من أولئك الأعوان الذين نعتهم صاحب الزبانية بالخيانة وأمر الأحراس

بالبحث عنهم وقطع دابرهم. جاء أوّل الجاسوسين من جهة الغرب مبعوثاً من البك هو حاج أحمد، وأقبل ثانيهما من جهة الشرق مبعوثاً من سيدي يوسف وهو العبد «غانم». أمر صاحب القلعة بتعذيبهم لنزع الاعترافات، ثمّ فاز حاج أحمد بالموت خنقاً مع حلول المساء. في حين كان حظّ «غانم» أسوأ لأنّ الزبانية سلخوا جلده قبل هلاكه، بل وقطعوا أطرافه إرباً إرباً لشكوكهم في صواب اعترافاته من جهة، وبسبب حقدهم على مملوكٍ ابتسمت له الحظوظ ففاز بأجمل نساء المملكة لا لبطولة حقّ له أن يتباهى بها، ولكن جزاء خيانةٍ كان يجب أن يستحي منها. ويقال أن الزبانية انتزعوا خصيتيه وجرّدوه من إحليله وهم يتندّرون بالقول أنه ليس عليه أن يخشى على حسنائه من هذه الخسارة، لأنّهم سوف يتولّون تعويضها هذه الخسارة بأنفسهم عندما تقع في أيديهم في القريب. ولكن العبد الفظيع وجد في نفسه القوّة برغم الآلام الرهيبة ليلقي في وجوههم بعبارة كأنها وصيّته الأخيرة: «الأبطال يزولون، ولكن الأنذال هم الذين يرثون. أنا سأموت اليوم، ولكني سأحيا إلى الأبد بذريّتي التي استودعتها بطن حسنائي ومولاتي!».

8

في بلاط القلعة سأل صاحب الألقاب الشيخ الفطيسي:

ـ أريدك أن تجيبني على سؤال يتوقّف عليه مصير!

الفطيسي: آمل أن تلهمني العناية الإلهية جواباً يروي فضول مولاي.

صاحب الألقاب: أي جنسٍ من الرجال هو سيدي يوسف هذا؟
الفطيسي: سيدي يوسف مريد سلطان يا مولاي.
صاحب الألقاب: كلّنا نريد سلطاناً!
الفطيسي: ولكنه من الجنس الذي يتسلّح باليقين في إرادته للسلطان يا مولاي.
صاحب الألقاب: إذا أنعمنا عليه بالسلطان على بنغازي، فهل يقبل؟
الفطيسي: عسير أن يتكهّن إنسان بمسلك مريد سلطان يا مولاي.
صاحب الألقاب: هل تعتقد أنه سيرفض؟
الفطيسي: لا أعتقد أنه سيرفض، ولكنّي أشكّ أن يقبل أيضاً.
صاحب الألقاب: ما معنى هذه الأحجية؟
الفطيسي: أردت أن أقول أنه سيراوغ، ولكنه لن يجاهر بالرفض!
صاحب الألقاب: إذا أرسلتك لمفاوضته فهل تملك حجّةً لإقناعه؟

سكت الفطيسي. عضّ على شفته السفلى فيما كان صاحب التكوين المربّع يتطلّع إليه بعينين دامعتين قبل أن يحثّه بالقول:

ـ لا أملك الوقت لانتظار الأجوبة طويلاً لأنّي في عجلة من أمري!

تكلّم الفطيسي:

ـ الحجّة حجّة مولاي لا حجّتي.

صاحب الألقاب: ماذا تريد أن تقول؟

الفطيسي: أردت أن أقول آنّي أشكّ أن يقبل من فمي حجّة بعد أن خذلته!

صاحب الألقاب: تريد أن تقول بعد أن خنته. لماذا لا تسمّي الأشياء بأسمائها؟

عاد الفطيسي يعضّ على شفتيه. تمتم:

ـ بعد أن خنته، إذا شاء مولاي!

صاح صاحب الألقاب:

ـ أنت من شاء، لا أنا!

سكت الفطيسي. قال صاحب الألقاب:

ـ من أنت؟

غزا الشحوب وجنتي الشيخ. في عينيه لمع ألق مريب. لاحظ صاحب الألقاب كيف ارتجّت لحيته المفلفلة برعشة خاطفة. أغمض عينيه قبل أن يجيب:

ـ أنا الفطيسي!

ساد سكون. اشتكى صاحب الألقاب من ضيق الوقت مرة أخرى قبل أن يضيف:

ـ ماذا تريد؟

رمقه الفطيسي بنظرة خاطفة ولكنه أخفق في قمع إيماء الكراهة في تلك النظرة. غمغم:

ـ لا أريد إلاّ ما يرضي مولاي.

ثم استدرك بسرعة ليضيف:

ـ أقصى ما أريد خدمة الباب العالي!

أشاح صاحب الألقاب عنه بوجهه قبل أن يأمر:

ـ تستطيع أن تنصرف.

انحنى الشيخ بوقارٍ أمام النصب المهيب الذي أيقن أخيراً أنه إمام أبالسة حقّاً وخطا نحو الباب مشياً إلى الوراء. ولكن الإمام الرهيب استوقفه قبل أن يدرك المدخل ليقول:

ـ عندي لك بشارة: لقد اخترتك لتكون رسولاً لي إلى الباب العالي!

التفت ليستطلع تأثير البشارة في سيماء الفطيسي، ثم أضاف:

ـ تستطيع أن تنطلق منذ الغدّ!

## 9

فيما كان شيخ الزور يخرج من القلعة وهو يسبّ إمام الأبالسة في سرّه، ويمنّي نفسه بتحقيق حلمه الخالد في الوصول إلى سدّة الباب العالي ليصير أخيراً بطانة باطنة لسلطانٍ لا يحكم الدنيا إلاّ في الظاهر، كان إمام الزبانية يفرّك يديه ويبتسم بخبث الأبالسة قبل أن يبدأ مراسم «التفرّغ للغنائم» كما راق له أن يعبّر مراراً. قرع الجرس فدخل العسس. أمر أوّلاً باستصدار مرسوم يقضي بتعيين سيدي يوسف عاملاً على بنغازي، ثم عاد فأمر باستحضار الغنائم على أن يبتدئوا بالساحرة. وعندما استفهم الحاجب عن هذا اللّقب هبّ الإمام الرهيب في وجهه:

- إليَّ بملكة الملّة اليهوديّة يا ابن الزِّنا!

غاب الأحراس فأغمض عينيه حتى فاضتا بالبلل. كان ينشغل بالتفكير في أمر الفطيسي ويذرف الدموع بسخاء عندما عاد الزبانية بإستير مغلولةً في سلسلة حديديّة وصفتها المسز تولّلي في حوليّاتها الشهيرة بنعوتٍ فظيعة حتّى أن ابن أخت «الملكة» لجأ إلى القنصلية الإنجليزية بحثاً عن سلسلة تقليدية سبق له أن رآها هناك لتكون بديلاً للآلة الشيطانية التي قيّد بها زبانية إمام الأبالسة إستير لحملها على الاعتراف بالمكان الذي أخفت فيه ثرواتها.

كانت المرأة شاحبة، أفقدتها الصدمة وزنها الذي صار منذ زمن مضرب الأمثال فأنكرها الأقرباء ناهيك عن الغرباء حتى أن الزبانية سمعوها تسبّ اليوم الذي تخلّفت فيه عن الخروج في ركب حاطوم، فما كان منهم إلاّ أن أخبروا إمامهم الذي قرّر أن يبدأ في استجواب الشقيّة ابتداءاً من هذه النقطة بالذّات:

- قيل لي أنّك لا تملّين استنزال الشتائم على رأسك مقابل كيل المديح للمدعو حاطوم وتعترفين له بالحكمة، فمن حاطومكِ هذا؟

تعرّت وجنتا إستير من الشحوم في أيام فلم يعد يعجزها أن ترى بوضوح. كما انقشعت اللفافات التي كانت تغزو يديها فتنفخ فيهما من روح المجهول لتجعل لهما شبهاً برغيفين منفوشين من الخبز. أمّا بدنها فتداعى وتضعضع وتدلّت منه الشحوم بعد أن فقدت تماسكها بفعل النكبة، فنجحت البليّة في أن تنجز في أيّام ما أخفقت الحميّة في إنجازه في أعوام.

رمقت إستير جلاّدها بنظرة مطفأة، وربّما متعبة، قبل أن تقول:

ـ قبل أن أجيب على سؤال مولاي أرجو أن يحقّق لي رجاء!

حدجها صاحب الألقاب باستفهام قبل أن تضيف:

ـ آمل أن تسمح لي بالجلوس لأني لست سوى امرأة!

حدّق فيها بدهشة. أغمض عينيه قبل أن يقول بصوتٍ مكتوم:

ـ هل أنتِ أسيرة بين يديّ أم محظيّة في حضني؟

فتح عينيه ففزّ منهما دمع سخيّ. حشرج ساخراً:

ـ أخشى إذا أذنتُ لكِ بالجلوس على هذا المقعد أن تتمادي فتطلبي الجلوس على هذا (وأشار بيده إلى إحليله) ظنّاً منكِ أنّكِ ما زلت في حضرة علي القرمانلي لا في حضرتي!

أطلق بعدها ضحكة حتى استلقى إلى الوراء. زمجر:

ـ اعلمي أيّتها الشقيّة أنّكِ في حضرتي لستِ امرأة، بل أسيرة. لستِ حتّى بالأسيرة، ولكنّك متّهمة بجريمة تضليل السلطات بإخفاء ثروات المسلمين التي جنيتيها لا بعرق الجبين، ولكن بابتزاز القرمانلي المصاب بالشذوذ مستخدمةً في ذلك جسدك المريض!

سكت. ولكن أنفاس الغضب تلاحقت في صدره. أضاف:

ـ والآن أجيبي على أسئلتي قبل أن أفقد صوابي فأذيقك صنوف عذابٍ لم تسمع بها أذن، ولم ترها عين، ولم تخطر ببال بشر!

كانت إستير ترتجف وترنّح وتذرف الدموع. قالت وهي تختنق بدموعها:

ـ حاطوم ابن الملّة الذي . .

ولكنّها فوجئت بالجلاّد يقطع عليها الطريق مستخدماً عبارة بذيئة لم تسمع لها مثيلاً يوماً:

ـ إيّاك أن تكذبي إذا شئتِ ألاّ أمزّق فرجكِ بصولجاني هذا!

أطلقت إستير صوتاً كالعواء وهي تنهار أرضاً فتوعّدها الجلاّد:

ـ يحسن بكِ أن تكفّي حالاً لأنّكِ ما زلتِ تُعاملين في سجوني كأميرة لا كأسيرة كما يجب أن تعاملي!

تمالكت إستير نفسها في النهاية. برطمت:

ـ لقد سألتني عن حاطوم . .

ـ بلى، بلى. يحسن بكِ أن تسرعي لأنّ الوقت هو عدوّي الأبدي!

ـ حاطوم حثّني على الانضمام إليه يوم أخرج أهل الملّة من المدينة عندما فتك بهم الطاعون . .

ـ لا يهمّني خروج حاطوم، المهمّ هو إلى أين خرج حاطوم.

ـ حاطوم خرج إلى الجبل.

ـ إلى الجبل؟

ـ يقال أنه هجر الجبل أيضاً وعبر إلى الصحراء. أنا لم أره منذ ذلك اليوم.

التفت صاحب الألقاب إلى أحد أعوانه. قال:

ـ هل سمعت يا «زمزوم»؟ المتهمة تقول أن حاطوم لجأ إلى

الجبل ثم إلى الصحراء. أريدك أن ترسل في أثره لأن حاطوم لن يفرّ من الطاعون إلاّ محمّلاً بالكنوز!

عاد يلتفت إلى إستير. سأل:

- ماذا فعلتِ بشأن الفدية؟ أما زلتِ ترفضين الكشف عن كنوزكِ وتصرّين على انتظار الأموال من يهود توسكانيا؟

كفكفت إستير دموعها ويبدو أنها استعادت نصيباً من روحها الملكيّة الغابرة. قالت:

- ليس لديّ أموال مخفيّة، ولكن الفدية ستصل من «ليفورن» خلال ثلاثة أيام!

- المبلغ لن يقلّ عن المائة ألف قطعة ذهبيّة فلا تنسي، لأن صاحب الأستانة لا يطيق الانتظار طويلاً مثلي!

جعجعَ بضحكة شيطانية خارت لها قوى الأسيرة المسكينة.

## 10

خرجت المسز تولّلي، صاحبة الحوليّات الشهيرة، من بنيان القنصلية الإنجليزية مطوّقةً بكوكبة من الأحراس. إلى جوارها سارت سيّدة نصرانية. خلف المرأتين سارت جاريتان زنجيتان. أمّا العسس فانقسموا إلى فريقين.

سار فريق في المقدمة ليهشّ الفضوليين ويفسح الطريق، في حين سار الفريق الآخر وراء الركب حيناً وفي ميمنة الركب أو ميسرته حيناً آخر. كان الأحراس مسلّحين ببنادق تنتصب على مناكبهم، مطوّقين

بأحزمة تتدلّى منها السيوف. أمّا في أيديهم فيمسكون بحرابٍ منكرة، فيبدون كأنّهم في طريقهم لصدّ غزوةٍ، أو للاشتراك في حرب، لا لحراسة امرأتين نصرانيتين خرجتا في نزهة، أو لقضاء حوائج، أو للقيام بزيارة. ولكن قنصل الإنجليز ضاعف أعداد العسس استجابةً لوصايا أخيار المدينة الذين أكّدوا له أن طرابلس التي كانت إلى وقت قريب مضرب الأمثال في الأمان انقلبت اليوم ساحة قيامة يحتاج فيها المرء لطوائف الأحراس حتّى إذا خرج لقضاء الحاجة، فكيف إذا خرج لقضاء الحوائج؟

كانت شمس الصبح قد ارتفعت فوق سطوح الأبنية أشباراً، ولكن السكون ما زال يخيّم على شوارع المدينة الخالية من المارّة، في حين تتبدّى بين مسافة وأخرى أشباح زبانية الزعيم ملتمّةً في أزواجٍ أو أثلاثٍ أو أرباع، يترنّحون مخمورين، يتحدّثون بأصوات غاضبة كأنهم يتنابزون بالألقاب، حتّى إذا وقعت أبصارهم على موكب القنصلية تناسوا السباب ضد بعضهم البعض، والتفتوا إلى المرأتين بنظراتٍ تمتزج فيها الشهوة بالكراهية بآيات الإعياء قبل أن يقذفوهما بالشتائم التي اعتادوا أن يلفظوها برطانتهم التركيّة كلّما وقعت أبصارهم على أحد أفراد الأمم المسيحية.

يومها ابتسمت المسز تولّلي ما أن وقعت السبّة البذيئة في أذنها وهي التي ميّزت دائماً سباب البذاءة في كلّ اللغات بما في ذلك اللغتين التركية أو العربية حتّى قبل أن تبدأ في تعلّمهما. حدّثت رفيقتها:

ـ من كان يظنّ أن تنقلب الآية في طرابلس بين يومٍ وليلة؟
ابتسمت رفيقتها النصرانية. مدّت يداً عاجيّة اللون، نحيلة الحجم، لتعدل وضع قبعتها على رأسها. قالت:

ـ ما زالت هذه المدينة في محنتها أرحم ألف مرّة من مدن الجزائر أو تونس أو حتّى مراكش. هناك إذا لم يجد العقلاء سبيلاً لإلحاق الأذى بالمسيحيين يلجأون إلى السفهاء من الأطفال والدراويش ليسلّطوهم عليهم فيرمونهم بالحجارة، أو يكشفوا لهم عن عوراتهم إذا كان صاحب السبيل امرأة. لا تصدّقيني إذا قلتُ لكِ أن أحدهم ألقى تحت قدمي ثعباناً فظيعاً في الجزائر. أمّا الدرويش في طنجة فقد حاول اغتصابي على قارعة الطريق دون أن يهرع أحد لإنقاذي برغم استغاثاتي!

قطبت المسز تولّلي جبينها باشمئزاز. قالت:

ـ بعد أيام ستنقضي السنة العاشرة من وصولي إلى هذه المدينة التي اعترف لكِ أنّي أحببتها أكثر مما أحببت مدينتي لندن. ربّما لأني عشت فيها أعواماً أسعد من الأعوام التي عشتها في لندن. في طرابلس لم أشعر يوماً بأني نصرانية باستثناء المرّات القليلة التي غامرنا فيها بزيارة الدواخل.

أشاحت رفيقتها بوجهها فراراً من مرأى أحد جنود الغزاة وهو يتبوّل صوب الجدار. قالت:

ـ لا أعرف كيف يستطيع الإنسان أن يكون سعيداً في مدينة. لا أعرف كيف يستطيع الإنسان أن يكون سعيداً في مكان!

ابتسمت المسز تولّلي. قطبت جبينها تلك التقطيبة الفاتنة التي تفقد الرجال صوابهم. تغنّت:

We are Such Stuff,

as dreams are made of;

and our little life,

is rounded with sleep.

تمازحت رفيقتها:

ـ كي تصرعيني لا بدّ أن تحتكمي إلى ساحة المعلّم، لأنّك تعلمين أنّه نقطة ضعفي!

ـ لا أحتكم إلى ساحة شكسبير لأنه نقطة ضعفكِ، ولكن لأنه المعلّم كما اعترفتِ منذ قليل.

سكتت لحظة. في عينيها الزرقاوين طاف حزن. أضافت:

ـ أنتِ طيف يا مسز غاردن. والطيف لا يكون سعيداً في أي مكان.

أفضى الشارع إلى ساحة ينتصب سجن النصارى في ناحيتها اليمنى، وتنتصب كنيسة الإرسالية المسيحية في جانبها الآخر. سلك العسس الشارع المؤدي إلى أعلى. تمتمت المسز تولّلي كأنها تهمس لنفسها لا لرفيقتها:

ـ المعلّم نقطة ضعفنا جميعاً!

ثم استدركت لتتحدّث عن مسلك الزمان:

ـ لو قلتِ لأهل هذه المدينة أن التغيير الذي حلموا به دائماً، وانتظروه طويلاً، سيجلب لهم نكبة لرجموكِ بحجارة أسوأ من الحجارة التي رجمكِ بها أطفال الجزائر.

قالت المسز غاردن:

ـ لا أظنّ أنّي في حاجة للاحتكام إلى ساحة المعلّم كما فعلتِ منذ قليل كي أبرهن لكِ أن الأمس أفضل من اليوم، واليوم أفضل من الغد!

قطبت المسز تولّلي جبينها. قالت:

ـ من يصدّق أن الزمان يمكن أن يمكر بالباشا وعائلة الباشا إلى حدّ تختبىء فيه للاّ حلّومة في أحد الجحور كأنها فأرة وتنتظر أن تنجدها المسز تولّلي ببعض القهوة وقوالب السّكّر كأنّها متسوّلة تتلقّى الإحسان؟!

ـ في ناموس الزمان أجناسُ مفاجآتٍ أسوأ!

ـ أنتِ لم تدركي مجد هذه الملكة. لقد ابتنت الفنادق من حُرِّ مالها ليسكنها الأغراب بأثمانٍ رمزية. ولم تبخل على كلّ من لجأ إليها سواء لسداد ديْن أو لطلب التدخّل لدى الباشا لاستصدار عفو. أنتِ لا تدرين أنّها استطاعت أن تستبدل قصاصاً كان سائداً منذ ألف سنة يقضي بحشر الطرابلسية إذا زَنَتْ مع أحد النصارى في كيس مشدود بحجارة، والإلقاء بالشقيّة في مياه البحر!

في اللحظة التي انعطف فيها الطريق يساراً للدخول إلى الزقاق الخانق الذي أقامت للاّ حلّومة في أحد بيوته، علت هرجة. ظلّت

الهرجة تعلو كلّما اقتربوا من الزقاق. في الردهة تبدّى المكان. كانت حفنة من الزبانية الأتراك يعاندون طائفة من النساء ما أن أبصرتهن المسز تولّلي حتى أطلقت شهقة فزع. غزا وجهها الشحوب حتّى أن تقطيبة جبينها فقدت فتنتها فجأة. تمتمت:

ـ جواري للاّ حلّومة!

كان الزبانية يلتفّون حول امرأة لم تتبيّنها المسز تولّلي في زحام الأوغاد، في حين تكأكأت الجواري حول عصابة الأتراك وهنّ يولولن ويحاولن انتزاع المرأة الشقيّة من بين أيديهم. استمرّ الصراع زمناً. من فوق سطوح المنازل أطلّت رؤوس أهل الفضول: أطفال، أشياخ، عجائز. من الشبابيك المطوّقة بعيدان الأخشاب حدّقت أعين الطرابلسيات. من كوكبة حرس القنصلية انطلق أحد العسس ليستطلع.

أفلح الزبانية في اختطاف المرأة بعد أن احتكموا إلى البنادق فانهالوا بكعوبها على رؤوس الجواري. ألقوا بالمرأة بين يدي فارس يمتطي صهوة جواد فانطلق وانطلقوا خلفه. تابعتهم المسز تولّلي حتى تواروا في زاوية الزقاق، ولكن عويل الجواري علا أكثر مما مضى. عاد رجل الاستطلاع ليخاطب المسز تولّلي:

ـ خطف أعوان الطاغية للاّ زنوبيا!

هتفت المسز تولّلي:

ـ للاّ زنوبيا حفيدة الباشا؟

ولكن رجل الاستطلاع عاند لسانه الألثغ طويلاً قبل أن يفلح:

ـ للاّ زنوبيا ابنة حسن بك وحفيدة الباشا!

في تلك اللحظة لم تفقد تقطيبة المسز تولّلي سحرها فحسب، ولكنها استعارت قبحاً، في حين أضاف رجل الاستطلاع بعد كفاحٍ آخر مع عطب اللسان:

ـ قيل أن الطاغية قرّر أن يتخذها محظيّةً!

**11**

ـ من دلّني على حيلة لانتزاع كنوز هؤلاء المرابين أجزلتُ له العطاء!

العبارة قالها الزعيم عملاً بوصيّة أناضوليّة قديمة تقول: «لا يُنال المال إلاّ بالمال!» فأسالت لعاب الجميع بما في ذلك بعض أبناء الجالية اليهودية أنفسهم كما يُروى. وقد انهالت المقترحات على رأس صاحب الزبانية حتّى أصيب بالدوار وفرّ إلى الخلوة. ولكن إنساناً واحداً ارتاب في أمره العقلاء برغم أنهم اعترفوا له جميعاً بأجناس الدهاء اقتحم القصر في تلك القيلولة واستأذن الأبالسة للمثول بين يدي إمامهم لأمرٍ عاجل. ولكن كآبةً خفيّةً عصفت بصاحب الألقاب ما أن وقع بصره على الشيخ الفطيسي حتّى أنه لم يجد حرجاً في أن يعبس في وجهه:

ـ لا أعرف لماذا تهاجمني السويداء كلّما وقفتَ في وجهي، فهل أنت صاحب نحوس؟

سرت قشعريرة في بدن الشيخ، ولكن سيماء وجهه اعتصمت بالبرود. ابتسم، ثم ما لبث أن استنكر:

ـ صاحب نحوس؟

ـ أن تكون صاحب نحوس يعني أن تجري في عروقك دماء الملّة، فهل فهمت؟

حدّق الفطيسي في فراغ البلاط الذي حاجج فيه يوماً الباشا بشأن المرايا. ابتسم بغموض قبل أن يجيب على السؤال بسؤال:

ـ هل بلغتْ مولاي عنّي وشاية؟

تهكّم الزعيم بضحكة مفتعلة:

ـ لو كنتُ أعير انتباهاً للوشايات لما وقفتَ أمامي اليوم لأنّي لم أكن لأفلح في دخول هذه القلعة يوماً. هل تدري لماذا؟

سكت الفطيسي فأضاف الإمام:

ـ لأني استغنيتُ عن سماع ما يقوله الناس يوم أحسنتُ الاستماع إلى ما يقوله قلبي.

أغمض عينيه فجأة فنزّ منهما دمع. قال:

ـ ولكنّك لم تجب على سؤالي.

داعب الفطيسي لحيته المفلفلة بأصابعه قبل أن يجيب:

ـ لو استطاع مولاي أن يؤكّد لي يقيناً دماء أيّة ملّة تجري في عروقه لأجبته على سؤاله.

تطلّع إليه صاحب الألقاب الستّة طويلاً. تمتم:

ـ صدقت. الخبثاء يقولون أن في عروقي تجري دماء كل الأمم، أمّا أعدائي فيذهبون إلى أبعد عندما يروّجون الشائعات التي تقول أن في دمائي تجري دماء الأبالسة أيضاً!

ابتسم الفطيسي بغموض. غمغم بغموض أيضاً:

ـ الأبالسة أيضاً مخلوقات من صنع الله، والإنسان الذي لا يجتمع فيه ضدّان لا يفلح!

أنصت الزعيم مغمض العينين فتذكّر الفطيسي علي باشا. بالأمس جلس في هذا العرش رجل بإسم عليّ يحمل لقب باشا، يروق له أن يجادل الناس بعينين مغمضتين. واليوم يجلس في جوف العرش ذاته رجل بإسم عليّ يحمل أيضاً لقب باشا، يروق له أن يجادل الناس أيضاً بعينين مغمضتين، فما معنى هذه الأحجية؟ هل هي سخرية ما يسمّيه معشر البلهاء أقداراً، أم أن الزمان يريد أن يخبرنا على طريقته بأن اليوم لا يختلف عن الأمس، والليلة هي صورة منسوخة من البارحة؟

قال الداهية:

ـ هل لك أن تعيد ما قلت؟

ردّد الفطيسي:

ـ الإنسان الذي لا يجتمع فيه ضدّان لا يفلح.

ـ أحسنت! من لم يعرف إبليس لم يعرف الله، كما أن العكس صحيح!

صفّق بيديه بحركة مريبة. ثم فرّكهما لحظات قبل أن يقول:

ـ أنا الآن في انتظار البشارة!

نظر الفطيسي في عينيه دون أن تفارق بسمة الغموض (التي تحوّلت الآن بسمة خبث) شفتيه. قال:

ـ البشارة، يا مولاي، دائماً في يد من ينتظر البشارة!

ـ دعك من الأحاجي وحدثني بلسان البلداء لا بلسان العرّافين!

ـ أردت أن أقول أن الحيلة التي ينتظر مولاي سماعها من أفواه الأغيار هي أقرب لمولاي من حبل الوريد!

أغمض الداهية عينيه فأضاف الشيخ:

ـ المكيدة!

ردّد الزعيم بدهشة:

ـ المكيدة؟

ـ لقد تعرّض أبناء الملّة لحملة رأوا فيها ظلماً. والإنسان عندما يُظلم (سواء أكان ذلك عن حقّ أم عن باطل) لا بدّ أن يفتّش عن حيلة للدفاع عن النفس!.

تابعه الزعيم بعينين مغمضتين يفزّ منهما الدمع. أضاف الشيخ:

ـ والإنسان الذي لا حول له ولا قوّة لا يملك إلاّ المكيدة سلاحاً لاسترداد الحقّ المفقود!

هيمن صمت قصير. قال صاحب الألقاب:

ـ أعتقد أنّي فهمت.

تبادل مع الفطيسي نظرة. تمتم الزعيم:

ـ تدبير المكيدة خيانة تستوجب قصاصاً أقسى من مصادرة الأموال، فلماذا تريدني أن أفني أبناء الملّة بتهمة خطيرة كهذه مع علمي بارتباطك بأبناء الملّة برباط نكاح؟!

ابتسم الفطيسي. داعب لحيته المفلفلة بأصابعه الكثيبة. قال:

- نزلتُ هذه المدينة مهاجراً فلم أعرف من أهل الملّة أحداً. أمّا ميزلتوب فقد نلتها هديّة من الأمير المخلوع يوسف نظير مشورة كهذه!

تساءل الزعيم:

- هل قلت نظير مشورة كهذه؟

- بلى!

- وماذا تنتظر منّي اليوم جزاءاً؟

- لا أنتظر من مولاي جزاءاً قبل أن يختبر مفعول الوصيّة!

- هل تثق في مفعول الوصيّة إلى هذا الحدّ؟

سكت الفطيسي لحظات. حدّق في فراغ البلاط. قال:

- لا يكشف الإنسان عن مخابىء الكنوز إلاّ في اللحظة التي يرى فيها شبح الهاوية التي لا خير فيها!

ردّد الداهية غائباً:

- شبح الهاوية التي لا خير فيها..

ساد السكون. نهض زعيم الزبانية. قطع البلاط بخطوات واسعة. وقف قبالة الشباك المطلّ على البحر. صلب يديه على صدره وراقب مملكته القديمة. مملكته الأبدية. في الميناء تزاحمت السفن. في الأفق البحري البعيد تراءت سفن أخرى. قال:

- لقد وعدتك مرّة بجائزة. أتذكر؟

أجاب الفطيسي:

ـ وهل ينسى الرعايا وعود الملوك يا مولاي؟

انتظر الزعيم لحظة. قال:

ـ ما رأيك أن أجمع الجائزتين في جائزة فأبعث بك سفيراً للمملكة لدى صاحب الجلالة في الأستانة؟

هتف الفطيسي:

ـ الرعايا يؤمرون فيطيعوا، يا مولاي، ولكنّهم لا يُستشارون!

## 12

في اليوم التالي تمَّ القبض على حاييم زعيم الملّة اليهودية مع ثلاثة من أبنائه وصودرت أموالهم جميعاً بتهمة الضلوع في تنفيذ مؤامرة لاغتيال الباشا. ثمّ جاء دور أكابر الجالية ليذوقوا نصيبهم من كأس العذاب. ويروي كتّاب حوليات ذلك الزمان كيف عاث الزبانية في حارة اليهود فساداً بعد أن أصدر الباشا الجديد مرسوماً يستبيح الحارة لجنوده ثلاثة أيام كاملة عقاباً لهم على الضلوع في المؤامرة المزعومة. داهم هؤلاء الوحوش البيوت فاغتصبوا النساء، وانتهبوا الممتلكات، ونزعوا الحلي من أعناق الصبايا بعد أن افتضّوا بكاراتهنّ أمام أعين آبائهن الذين اقتيدوا إلى الساحات ليخضعوا لصنوف تعذيب لم تشهد لها المدينة مثيلاً في تاريخها كلّه. فبعد أن صودرت كل الثروات والممتلكات رأى زعيم الزبانية أن يستهلّ فصول ذلك الجحيم بشنق حاييم بودو سبّاك المعادن الذي كان وكيلاً للمملكة لتزويدها بحاجاتها من رصاص البنادق، فصار المسكين أوّل الضحايا. ثم اقتيد عشرين يهودياً فصلبوا على باب زنّاتة حتّى الموت. بعدها امتدّت أيدي هؤلاء الأبالسة إلى

وكلاء القنصليات الأجنبية من التجّار اليهود فلم يكتفوا بإبادتهم، ولكنّهم تفنّنوا في التمثيل بجثتهم. بدأوا بحرق أشهر الأثرياء «كوهين» أمام باب المدينة في مهرجانٍ دعوا لحضوره الباشا نفسه وأعوانه وبعض الأشياخ يتقدّمهم الفطيسي. تمّت دعوة القناصل الأجانب أيضاً لحضور هذه الحفلة الوثنية، ولكنّهم اعتذروا جميعاً متحجّجين بأعذارٍ شتّى. ثم بدأ الطقس بأهازيج منكرة اعتاد الزبانية أن يردّدوها كلّما أسروا إحدى السفن زمن القرصنة البحرية قبل أن يشعلوا النار في كوم الحطب. احترق الرجل على نارٍ هادئة كأنّه شاة أُعدّت للشواء. لم تنتهِ الوليمة عند هذا الحدّ، ولكن الباشا المزعوم أمر بإحضار زوجته الحسناء التي لم يمضِ على عرسها سوى بضعة أيام لتشهد طقوس تحويل بدن قرينها إلى فحم، ثمّ لتجد نفسها فجأة محظيّة في أحضان أحد أعوان الطاغية الأرناؤوط بعد أن وهبها له مولاه أمام الملأ. وكان على أبيها أن يستدين ليشتري حريّة ابنته من ذلك الجلف.

أمّا وكيل القنصلية الهولندية التجاري فقد كواه الزبانية على رأسه بحلقة حديدية ملتهبة بعد أن نزعوا أظافره وصودرت أمواله. ثمّ دقّوا في قدميه حدوتي حصان بالمسامير قبل أن يصلبوه على باب هوّارة.

أمّا «أبراهام» فقد دفع مبلغاً خرافياً يزيد على الأربعين ألف سكين بندقي لتحرير ولديه الوحيدين من أيدي الزبانية ليكتشف في النهاية أنه إنما دفع هذه الثروة عبثاً، لأن القتلة كانوا قد خنقوا الولدين حتّى الموت بمجرّد استلام الفدية.

ولكن القبيلة القديمة التي احترفت العبور فراراً من المذابح حيناً،

واحترافاً للمنافي حيناً آخر، وعشقاً للحريّة حيناً ثالثاً، لم تنكسر هذه المرّة أيضاً. بل أضافت إلى رصيدها من الألم نصيباً جديداً خلّدته في تلك الأغاني الفاجعة التي توارثها أبناء الملّة فتغنّوا بها في ذكرى البليّة من كل عام تحت اسم «آبل - برغل» حيث يصومون، وينوحون، ويتعزّون بذكر ضحاياهم.

## 13

عادت المسز تولّلي لزيارة للاّ حلّومة بعد أيام فوجدت في جرم الملكة المخلوعة امرأة أخرى. حوّلتها النكبة شبحاً في بضعة أسابيع حتّى أنّها أنكرتها عندما أدخلتها عليها الجارية فوجدتها تقبع في ركن دارٍ بضيق زنزانة، هزيلةً، شاحبةً، في مقلتيها نظرة فزع كأنها تتأهّب للفرار. كان اللحاف الكئيب الذي ارتدته يكشف خصلات شعرٍ تدلّت على الجبين خذلها المجهول بغتةً فوسمها بختم تلك الآية المهيبة التي اعتاد ظهورها أن يزعزع حتّى الأبطال، فكيف بملل تعوّل على السيماء كالنساء إذا مسّهن المجهول بهذا الوشي الخفيّ المسمّى في لسان الأمم شيباً قَرَأنَ في العلامة رسالة الوداع؟

استولت على بدن المسز تولّلي قشعريرة كأنّ عدوى الآية انتقلت إليها حتّى أنها ما لبثت أن فكّرت: «البلايا أقوى من الزمان، لأن الزمان قد يتسامح معنا فيمهلنا، أمّا البلايا فلا تميتنا فحسب، ولكنّها أسبق في بصم أرواحنا بالشيب!».

يومها ابتسمت في وجهها. بسمة فاجعة لم يُقدّر للمسز تولّلي أن

تنساها إلى الأبد. لأنها لم تكن بسمة للتعبير عن لقاء، ولكنها بسمة للتعبير عن فراق. تحيّة وداع!

أومأت لها بالجلوس، ولكن المسز تولّلي لم تجلس. طافت أركان الزنزانة الكئيبة المشبعة بالفقر والرطوبة واليأس فلم تجد كرسياً تجلس عليه. في النهاية اكتشفت أن للاّ حلّومة تريدها أن تجلس بجوارها على السرير الذي تجلس عليه هي أيضاً. سألتها عن حالها باللهجة الطرابلسية التي أتقنتها بفضل للاّ حلّومة وعائلتها بالذّات فأجابتها بصوتٍ واهن:

ـ كما ترين! ما زلت أتنفّس!

غابت الجارية فاستولى على المسز تولّلي إحساس طاغٍ بالعزلة. الإحساس المريب الذي يستشعره إنسان وجد نفسه وحيداً مع إنسان يحتضر، فقرّرت أن تقول شيئاً لا لتعزية المرأة، ولكن دفاعاً عن النفس:

ـ المرض مثلنا عابر سبيل. إن لم نعبره عَبَرنا!

ثم استدركت بعد أن اكتشفت أنها قالت ما لم ترد أن تقوله:

ـ أعني أننا سوف نشفى منه عاجلاً أو آجلاً.

ولكن المرأة تشبّثت بتلابيب العبارة الأولى:

ـ وإذا لم نستطع أن نشفى منه فسوف يشفى هو منّا!

ابتسمت مرّة أخرى فاستجابت المسز تولّلي لابتسامتها بوخزة وجع. أضافت للاّ حلّومة:

ـ مثله في ذلك مثل صاحبه الموت!

فكّرت المسز تولّلي: «ما أعسر أن نحاور إنساناً يموت!». قالت وهي تستنجد بالمعلّم أبيقور:

ـ إذا كان المرض رسول، فإن الموت سلطان محتجب بدليل أننا لا نلتقيه لا في حياتنا ولا في مماتنا. إذا حضر هو اغتربنا نحن، وإذا حضرنا نحن غاب هو!

ابتسمت للاّ حلّومة. قالت:

-«to be or not to be, this is the Quation»

ـ أليس هذا ما أراد معلّمك أن يعبّر عنه بعبارته هذه؟

تمتمت المسز تولّلي:

ـ كل ما يقوله شكسبير دواء!

قالت للاّ حلّومة:

ـ لقد قرأتُ الكتاب الذي استعرته منك، فهل تدرين ماذا اكتشفت؟

مدّت يدها لشدّ اللحاف حول رأسها فتبدّت اليد للمسز تولّلي نحيلةً، عارية من اللحم. كانت ماسورة من عظم. أضافت:

ـ الباشا عليّ هاملت هذا الزمان!

تعجّبت المسز تولّلي:

ـ هاملت هذا الزمان؟

ـ بلى. لولا تردّده الأبدي لما هلك وأهلكنا معه. إنه رجل لم يحسم أمره يوماً، ربّما لأنه لم يؤمن بشيء يوماً!

تمتمت المسز تولّلي:

ـ ظننته حازماً، أو هذا ما تبدّى لي!

ـ ظننتيه حازماً؟ أظنّ أنه لم يرث ذرّة حزم واحدة لا من أبيه ولا من جدّه!

عادت المسز تولّلي تتعجّب:

ـ يُقال أن أباه محمد باشا كان مسالماً.

ـ محمّد باشا كان وليّاً صالحاً، ولكن الولاية حزم أيضاً كما تعلمين. أمّا أحمد الأكبر فهو الحزم مجسّماً!

ثم مالت نحوها لتهمس كأنها تخشى أن تسمعها الجواري:

ـ هل تدرين أنه أمر بقصف جنود الدّعيّ ثلاثة عشر مرّة ثم عاد فتراجع في كلّ مرّة؟

استغربت المسز تولّلي:

ـ ما أعلمه أنه أصدر الأوامر مراراً، ولكن الأعوان هم الذين خذلوه!

ـ لولا ما عرفه الأعوان عنه من تردّد لما خذلوه!

سكتت لحظة قبل أن تضيف:

ـ من ينشغل بالتسديد طويلاً لا يصيب طريدة أبداً!

مالت نحوها مرّة أخرى قبل أن تهمس:

ـ هل تدرين أنه أغمي عليه ثلاث مرّات قبل أن يبلغ باب زناتة ليلة الفرار؟

قالت المسز تولّلي:

ـ سوف يستعيد الباشا عرشه، وسوف..

قاطعتها للاّ حلّومة:

ـ عليّ باشا هاملت. وهاملت لا يصلح لعرش!

زفرت بإعياء قبل أن تسأل:

ـ كيف حال المسز غاردن؟

ـ إنّها تستعد للسفر، وقد رافقتني في زيارتي السابقة التي لم تتم.

ساد سكون. قالت للاّ حلّومة:

ـ تصوّري للاّ زنوبيا سبيّة في براثن ذلك التنّين! كدتُ ليلتها أفقد عقلي لو لم يهرع حسن بك لنجدتي!

استفهمت المسز تولّلي:

ـ هل قلتِ حسن بك؟

ـ بلى. زارني في الرؤيا فطمأنني!

ـ طمأنكِ؟

ـ بلى. أيقنتُ منذ زمن بعيد أن كلمة الأموات أصدق من وعود الأحياء!

سكتت المسز تولّلي. قالت:

ـ صدقتِ. الحقيقة من نصيب الأموات، لا الأحياء!

دخلت إحدى الجواري تحمل طبقاً تعلوه أكواب المشروبات.

قالت للاّ حلّومة:

ـ بلغني أنّكِ تتأهبين للسفر أيضاً.

تمتمت المسز تولّلي:

ـ وضع الجالية المسيحية لم يعد يُطاق في طرابلس كما تعلمين!

ـ بلى. طرابلس لم تعد طرابلس، والنهاية سيفٌ مسلّط على كل شيء كما يبدو.

التفتت نحوها فرأت أن الإيماء الفاجع قد اشتدّ في مقلتيها البائستين. قالت:

ـ ألن أراكِ مرّة أخرى؟

غمغمت المسز تولّلي التي لم تطق يوماً وداعاً:

ـ حتماً سأراكِ. قرّرنا أن نغادر، ولكن الوقت لم يحن بعد.

لم تغفر المسز تولّلي لنفسها هذه الكذبة، لأنها عندما تركت صديقتها القديمة في ذلك الجُحْر في ظهيرة ذلك اليوم كانت تدري أن بصرها لن يقع على للاّ حلّومة إلى الأبد. فقد غادرت هي إلى جبل طارق بعد لقائهما بيومين لتتلقّى خبر وفاتها ما أن استقرّ بها المقام فوق تلك الصخرة التي صارت لها وطن غربتها الجديد.

## 14

في القلعة طلب مقابلة الباشا الجديد رجل غامض قال أنه مرابط عابر أقبل من جهة الغرب في طريقه لأداء فريضة الحجّ مفصحاً للزبانية عن رغبته في لقاء «وليّ الأمر»، حسب تعبيره، لأمرٍ هام.

نقل الزبانية الرسالة لأهل الحجاب، ونقل أهل الحجاب الرسالة

لمولاهم في عبارة تقول: «وليّ، يا مولانا، من أولياء الله يريد لقاء وليّ الأمر»، فما كان من الزعيم إلاّ أن انتهرهم: «ألا ترون أنّي مشغول بإعداد الهدايا لجلالة السلطان؟ وليّ الله يستطيع أن ينتظر، ولكن ولي النعمة لا يستطيع أن ينتظر!».

كان صاحب الولاية ذاك قد اختار وقتاً لزيارته ليس مناسباً بالفعل. ذلك أن الزعيم كان قد تلقّى منذ صباح اليوم نفسه نبأ فرار للاّ زنوبيا حفيدة الباشا قبل أن يجد الوقت لافتراعها فقرأ في هذا الخبر نبوءة نحس. استدعى ساعده الأيمن مصطفى كاره وكلّفه بأن يحرث المدينة شبراً شبراً للعثور على العذراء. ولكن قائد زبانيته هذا لم يفلح في العثور على أثر للأميرة، فما كان منه إلاّ أن أصدر أمره بتطهير المملكة من سلالة القرمانلي. وعندما استفهم قائد الجند عن الطريقة التي يريده بها أن ينفّذ حملة التطهير هذه بصق في وجهه قبل أن يقول: «انحروهم من الوريد إلى الوريد!». ولكن البصقة لم تربك مصطفى كاره، بل شجّعته على إبداء ملاحظة جسورة في حضرة الإمام كان لها مفعول السحر في قلب خطط الرجل رأساً على عقب عندما قال: «لا أظنّ، يا مولاي، أن عملاً كهذا يمكن أن يرضي الباب العالي. بل سيراه جواباً سيّئاً على قفطان تنصيبكم ملكاً على طرابلس!». ويبدو أن تذكيره بالقفطان السلطاني (الذي تسلّمه قبل يومين) أعاده إلى صوابه، فما كان منه إلاّ أن استبدل قصاص الإعدام بعقاب المنفى. لحظتها بارك القائد مصطفى هذا الخيار قائلاً: «أعتقد أنّ هذا عقاب مناسب». ولكنّ

الشكوك عادت فافترسته من جديد فتساءل: «ولكن إلى أين ننفيهم يا مولانا؟». سكت لحظة ثم أضاف: «إذا دفعنا بهم إلى الدواخل ألّبوا علينا القبائل. وإذا دفعنا بهم إلى الغرب نحو تونس فسوف يكسبون عطف القبائل أيضاً!». حدّق فيه الزعيم بعين الغضب قبل أن يزأر: «تتحدّث وكأننا في جزيرة معزولة بالمياه!». هنا ابتسم مصطفى كاره ليقول: «صدق مولانا. طرابلس هذه كانت دائماً جزيرة معزولة ليس بالماء بالطبع، ولكن بالصحراء، ولا سلطان لمن يحكمها على ما حولها من أمم!».

ويبدو أن الحديث عن الجزر قد أوحى للداهية بفكرة أَمَرَ في تنفيذها في الحال: «حسناً. إدفع بالحثالة إلى عرض البحر. ألا ترى أن البحر أنسب منفى؟». قائد الجند استحسن الفكرة أيضاً. خرج من هناك فأعدّ للسلالة المخلوعة مركباً استأجره من أحد قراصنة مرسيليا شحن فيه ما تبقّى من أعضاء العائلة القرمانلية المنكوبة ودفع بهم إلى البحر بلا مؤنة وبلا مياه وبلا اتجاه أيضاً على أمل أن يهلكوا ظمأً فإن لم يهلكوا ظمأً هلكوا جوعاً، فإن لم يهلكوا جوعاً هلكوا تيهاً. ولكن ملّة القراصنة التي تمتلك السلطان على البحور في ذلك الزمان كانت أرحم على أفراد العائلة الشقيّة من صاحب الألقاب المريبة، لأن أحد هؤلاء السلاطين البحريين التقط المركب الضائع في عرض البحر فزوّده بالأطعمة والألبسة والماء. ولم يكتفِ بهذا العمل النبيل، ولكنه أعاره ربّاناً وبحّارة قادوه إلى برّ الأمان حتّى أن أحداً من أفراد العائلة المسكينة لم يصدّق الفوز بالنجاة ساعة رسا المركب في مرسا تونس!

أمّا زعيم العصابة في طرابلس فقد انهمك في تحضير الهدايا لصاحب الأستانة إكباراً له على تشريفه بالقفطان الملكي عندما اقتحم عليه الحاجب خلوته برغبة صاحب الولاية في مقابلته، فهمّ في البداية بطرده شرّ طردة، ولكنه تراجع عندما تذكّر أنّ النبوءة لا تسير إلاّ في ركاب هذه الملّة البلهاء. وما أحوجه في مثل هذا اليوم المشئوم إلى خلاصٍ مبثوثٍ في نبوّة علّها تفلح في إصلاح النّحس الذي أتى به الصباح.

أمر الحاجب أن يستبقي الوليّ إلى حين يفرغ من بعض الأعمال الدنيوية (حسب تعبيره) التي لا تحتمل التأجيل، ثم أرسل في طلب ابن الزنا (كما يسمّيه) المدعو زمزوم.

جلس في جوف العرش ليتلذّذ بمشاهدة صندوق القطع الذهبية لآخر مرّة قبل أن يغلقه ويختم عليه بأختامه. مائة ألف قطعة من الذهب الإبريز سوف تتسرّب اليوم من بين يديه لتصبّ في يدي إنسان هرمٍ، خرفٍ، لم يهرق في سبيل نيلها قطرة دم، بل لم يسفح في سبيلها نقطة دمع، ولا حتّى قطرة عرق، فأين عدالة الله التي يتشدّق بها أئمّة المساجد؟

سمع بعض النصارى مرّة يقولون أن الذهب ليس ذهباً، ولكنه الروح مجسّدةً. أمّا الروح فليست سوى الذهب إذا تبدّد. فهل يدع روحه المجسّدة تتبدّد من بين يديه لتصير روح إنسانٍ آخر ليس في حاجة إليها، لا لأنّه يملك ما يغنيه عنها فحسب، ولكن لأن الشيخوخة لن

تتيح له الفرصة كي يفعل بها ما يجب أن يُفعل؟ هل عدل أن يحيا هو في قبضة الأخطار، بل في قبضة الموت، ليل نهار، الأعوام والأعوام، ويتدرّب على اغتيال الضمير الأعوام تلو الأعوام، كي يفلح مرّة واحدة في الفوز العسير بقطعة من هذه القطع، ثم يضطرّ أن يتنازل عن غنيمة العمر في ليلة لمخلوقٍ ليست من حقّه لمجرّد أن الحظوظ الغبيّة رأت بطبيعتها الفاسدة أن تنصّبه على أمّة شقيّة كأمّة المسلمين سلطاناً؟

كانِ يلعن الحظوظ بأعلى صوت عندما دخل زمزوم. دخل زمزوم، ولكن القرصان العتيد الذي تنازل عن ضميره يوماً في صفقة العمر كان ما يزال يتأمّل القطع الذهبية المكوّمة في جوف الصندوق المطروح على منضدة أمام العرش. قال دون أن يتخلّى ببصره عن كنوزه:

ـ الآن سأستودعك قلبي يا زمزوم! أنت تعلم ما يعنيه أن تحمل قلب علي برغل في سفينة متجهة إلى مضيق الدردنيل!

تقدّم زمزوم ليقبّل نعليه، ولكن صاحب الألقاب استوقفه بإشارة ضجر. أضاف:

ـ قلبي في عنقك أمانة. هذا يعني أنّك لا يجب أن تنام لحظة قبل أن تضعه في يد ولي النعمة حفظه الله!

همّ زمزوم أن يتكلّم ولكن الباشا استوقفه مرّة أخرى ليقول:

ـ أمّا الجواري والعبيد فسوف تبيعهم في الأسواق بأعلى الأسعار علّني أستطيع أن أستعيد بأثمانهم نصيباً من قلبي المفقود!

ركع زمزوم حتّى كاد أن ينكفىء على الأرض فأضاف صاحب الألقاب:

ـ أمرتُ بإعداد سفن الحراسة أيضاً. كما سيرافقك في الرحلة الشيخ الفطيسي سفيرنا الجديد لدى بلاط الباب العالي. أريدك أن تحيطه بمراسم الرعاية التي يستحقّها!

ثمّ رفّت على شفتيه ابتسامة غامضة. مدّ يده ليستخرج رقعة ممهورة بالختم من أحد الأدراج. أغمض عينيه ففزّ منهما دمع قبل أن يلوّح بالرقعة في وجه زمزوم. قال مغمض العينين:

ـ هذه رقعة يتوجّب عليك أن تخفيها جيّداً، وألاّ تقرأ فحواها إلاّ بعد أن تغيب عنك اليابسة. ستخبرك الرقعة بما ينبغي عمله!

## 15

ما أن وضع صاحب الولاية قدمه على البلاط حتّى تلقّاه صاحب الألقاب بعبارة:

ـ آمل أن يكون صاحب الولاية قد جلب لنا في جعبته بشارة!

كان الزائر ملفوفاً في البياض من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه: العمامة بيضاء، وكذلك الجبّة والثوب الفضفاض، والسروال وحتّى الخفين. سحنته لوّحتها شموس الخلاء فتبدّت بلون النحاس. ولكن في عينيه الكحليتين إيماء خفيّ لم يدرك له صاحب البلاط تفسيراً.

جلس على الأريكة في مواجهة العرش وهو يبتسم بيقين غريب كأنه صديق قديم. تكلّم فسمع الباشا صوتاً بحيحاً:

ـ إذا فتحت لك الحظوظ في السرداب سبيلاً، فلا تتردّد في اقتحام الأبواب!

تأمّله الباشا لحظات باسماً، ثم مدّ يده الضخمة ليمسّد لحيته المربّعة قبل أن يتساءل:

ـ هل هذه نبوءة؟

أجاب صاحب الرّباط في الحال كأنه توقّع هذا السؤال:

ـ رؤيا!

ـ وماذا يمكن أن يعنيه تأويل هذه الرؤيا في رأي مولانا؟

ـ لو فكّر صاحب السلطان المبجّل قليلاً لما احتار في تأويل الرؤيا.

أغمض صاحب السلطان عينيه. من الرموش نزّ الدمع. قال:

ـ لم أبدّد وقتي يوماً في فكّ طلاسم الرؤى!

ظلّ الضيف يبتسم ويحدّق في صاحب العرش بعينين يتلألأ فيهما الغموض. قال بذات الصوت البحيح:

ـ لو جرّب وليّ الأمر التأويل يوماً لما تخلّى عنه أبداً. التأويل أحلى من الاختلاء بحسناء في المخدع، وألذّ من اعتلاء العروش!

هتف صاحب الألقاب بعجب:

ـ حقّاً؟ ظننت أن الله خلق لهذه الحرفة أهل البطالة الذين يسمّيهم الناس عرّافين!

ـ كلّ إنسان عرّاف إذا شاء أن يصير عرّافاً، ولكن العلّة دائماً في الخمول!

ـ العلّة في الخمول؟

ـ الخمول أرذل خصال الإنسان قاطبة!

جعجع صاحب الألقاب بضحكة مفاجئة. أضاف الزائر:

ـ لو قرّر صاحب السلطان المبجّل أن يضحّي بغمضتين من وقته النفيس لاكتشف أن الحظوظ قد فتحت له الأبواب بعد يأس بالفعل. ولولا بسمة هذه الحظوظ لما تربّع الآن على هذا العرش. وقد أنجدتكم بعد محنة أنتم بها أعلم، وهو ما عبّرت عنه الرسالة بالسرداب. أمّا اقتحام الأبواب..

قاطعه صاحب العرش بنفاذ صبر:

ـ عن أيّة محنة تتحدّث؟

تطلّع إليه صاحب البياض بنظرة غريبة. كانت عميقة إلى حدّ استشعر صاحب الألقاب بسببها قشعريرة. قال العابر بصوت أكثر سكينة وأعظم بحّةً:

ـ وهل هناك محنة أسوأ من العار؟

تعجّب صاحب الألقاب:

ـ العار؟!

ـ بلى. العار الذي لحقكم في الجزائر!

أدار إمام الزبانية مقلتيه في محجريهما فرآهما الزائر كحدقتي حرباء. زمجر بغضبة توشك أن تفلت من عقالها:

ـ ما أدراك عن العار الذي لحقني في الجزائر؟

ـ صاحب السلطان المبجّل ينسى أن صاحب الولاية لا يختلف عن صاحب السلطان، لأن الطير هو جاسوسهما المفضّل الذي يأتيهم بالأنباء.

سكت صاحب الألقاب على مضض. آثر أن يغمض عينيه ويتجرّع دموعه حتّى لا يأمر بقطع رأس هذا الدّعيّ. قال الضيف:

ـ أمّا عن اقتحام الأبواب الذي أشارت له الرؤيا فإنما يعني أن الوقوف في منتصف الطريق حماقة علاوة على كونه اكتفاء بنصيب من الغنيمة، لا استيلاء على الغنيمة برمّتها!

استمرّ صاحب العرش ساكناً في عرشه، يغمض عينيه، ويختنق بالدمع. قال أخيراً:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

أجاب العابر بالصوت المكتوم:

ـ الرؤيا أرادت أن تقول أن طرابلس ليست سوى جزء من الغنيمة، أمّا نصفها الثاني..

تلكّأ الضيف فاستعجله صاحب العرش:

ـ نصفها الثاني؟ أين يمكن أن يحتجب نصف الغنيمة الثاني؟ إيّاك أن تحدّثني عن كنوز الصحراء كما فعل الكثيرون!

ازدادت البسمة على شفتي العابر وضوحاً، كما ازداد إيماء الغموض تألّقاً. قال:

ـ في غرب هذه البلاد تستلقي تلك الأرض التي أطارت صواب الصّحابيّ!

ـ عن أيّ صحابي تتحدّث؟

ـ عقبة بن نافع الذي أنار قلب هذه البلاد بالإسلام. لقد أدهشه سخاء أرضها، فتزوّد من أهلها بخراجٍ أغرق الخلافة كلّها بصنوف رخاء منقطع النظير فقرّر أن يعرف السرّ فسأل يوماً أحد أبناء أهلها: «من أين لكم بهذه الكنوز التي لا تنفذ برغم كل ما نلناه منها؟»، فما كان من سليل هذه الأرض أن أخرج من جيبه حبّتين: حبّة زيتون وحبّة قمح، قدمهما للصحابي قائلاً: «كل ثرواتنا التي لا تنفذ ننالها من هاتين الحبّتين!».

أنصت إليه الزعيم جاحظ العينين. تمتم:

ـ أين أستطيع أن أعثر على هذه الأرض الخرافية؟

سكت العابر لحظات. قال:

ـ تلك أرض استقطعت من غرب هذه البلاد كما استقطعت منها أراضٍ كثيرة من الجنوب، ومن الشرق، وما عليك إلاّ أن تستعيدها إذا شئتَ الفوز بهذه الكنوز!

تململ صاحب الألقاب في عرشه. مال إلى الأمام. قال بفضول:

ـ أيّ أراضٍ تدّعي استقطاعها في غرب البلاد؟

ـ تلك أراضٍ لم تكن لتخفى على أحد يوماً: أوّلها جربة، ثم صفاقس، ثم المنستير، ثم سوسة، وحتّى الحمّامات!

ساد سكون قبل أن يتمتم صاحب العرش:

ـ لقد سمعتُ أحدهم مرّة يتحدّث عن هذا، ولكنّي لم أصدّقه!

تململ مرة أخرى. تساءل:

ـ وأيّة أراضٍ استقطعت في شرق البلاد؟

أجاب العابر بسكينة تفضح يقيناً:

ـ كلّ الأراضي التي تستلقي شرقاً حتّى الإسكندرية!

ـ هل في جعبتك برهان؟

ـ بالطبع!

ـ ومن الجنوب؟

ـ كل الأراضي التي تستلقي جنوباً حتّى «كانو» المتاخمة للأدغال، وكل الأراضي التي تستلقي جنوب الغرب حتّى «تامنغست» في قلب الصحراء!

عاد صاحب الألقاب يتململ ويردّد:

ـ عجباً!

ولكن العابر ما لبث أن اقترح:

ـ وصيّتي لك أن تبدأ بالجانب الأضعف!

تأمّله صاحب الألقاب غائباً. تمتم:

ـ الجانب الأضعف؟

أجاب صاحب الرؤيا بوشوشته البحيحة:

ـ بالاستيلاء على جربة!

استنكر صاحب العرش:

ـ جربة؟

ـ جربة مستودع لكنوز الحبّتين الخالدتين: القمح والزيتون!

انتصب بينهما صمت. هبَّ صاحب العرش أوّلاً فهبّ صاحب الولاية أيضاً. قال زعيم الزّبانية:

ـ سأُقلّب الأمر، ولكن إيّاك أن تطمع في نيل الجائزة قبل الفوز!

## 16

أقلع زمزوم بسفينته مدجّجاً بثلاثة قوارب حربية في يومٍ صحوٍ شهد بلبلة في المرفأ منذ الفجر. وعندما تساءل الشيخ الفطيسي عن سرّ هذه القيامة المبكّرة أقترب منه زمزوم ليهمس في أذنه:

ـ ستسمع قريباً بالأمجاد التي ستتحقّق بفضل شجاعة مولانا!

سكت الشيخ لحظات. كان يقف في الممرّ ويتطلّع إلى امتداد البحر الهامد كبركة مياه. قال:

ـ الشجاعة بلا حكمة لا تحقّق مجداً.

رمقه زمزوم بشكّ. عاد يرقب امتداد البحر. قال:

ـ ستشهد لمولانا بالحكمة أيضاً عندما تأتيك أخبار الاستيلاء على جربة!

التفت إليه الشيخ بحدّة. في مقلتيه أينعت سيماء الدهشة. صاح:

ـ الاستيلاء على جربة؟!

تبسّم زمزوم بمكر. أجاب:

ـ الاستيلاء على الجزيرة لن يكون إلاّ بداية!

تطلّع إليه الفطيسي بذهول. هتف:

ـ لا أخالك فيما تقول جادّاً.

ولكن القرصان مضى يتلو مزاميره كأنه يقرأ أحلاماً مدوّنة في قرطاس:

ـ بعد جربة سيأتي دور صفاقس، ثمّ المنستير، ثم سوسة، ثمّ الحمّامات.. ها ـ ها ـ ها..

تنحّى الفطيسي جانباً كأنه يتجنّب الإصابة بعدوى جنون أصاب رفيقه فجأة. تمتم:

ـ أنت تهذي بلا شك!

ولكن زمزوم قطع شوطاً أبعد في مناجاة أحلامه:

ـ هذا عن الحملة في طريق الغرب، أمّا عن الحملات الأخرى فسوف تتجه إلى الشرق، ثم إلى الجنوب، ثم إلى الجنوب الغربي. ها ـ ها ـ ها..

كانت ضحكة جوفاء تطيّر منها الفطيسي في ذلك الصباح.

سكت زمزوم فعلّق الفطيسي:

ـ لماذا لا تستكمل مزحتك وتحدّثني عن الحملة المزمعة نحو الشمال؟

أجاب الرجل ببرود:

ـ لا وجود في الخطّة لحملة على الشمال، لأن حدود الوطن تنتهي عند البحر!

حاججه الفطيسي بحماسة مفاجئة:

ـ أخطأت يا صديقي. حدود هذا الوطن لا تنتهي عند شطآن البحر جنوباً، ولكنها تمتدّ لتشمل شطآن هذا البحر شمالاً، ولولا ذلك لما أطلق عليه قدماء النصارى بحر ليبيا!

ولكن زمزوم تشبّث بموقفه:

ـ هذا ما لم أسمعه من لسان مولاي. ولو سمع منك هذه الفتوى لأدرج في الخطّة الحملة على الشمال أيضاً!

سكت لحظة. سأل فجأة:

ـ أيعقل أن تكون مالطا يوماً جزيرة ليبيّة؟

أجاب الشيخ بحماس:

ـ مالطا لم تكن ليبيّة في الماضي فحسب، مالطا ما زالت إلى اليوم ليبيّة. ألم تسمع رطانة أهل هذه الجزيرة التي لم تكن يوماً رطانة؟

ـ صدقت. المالطيون يتكلمون اللّسان الطرابلسي!

ـ ليست مالطا الجزيرة الوحيدة التي اغتربت عن شطوط طرابلس، ولكن صقلية أيضاً، وجزر كثيرة أصغر حجماً!

تعجّب زمزوم:

ـ لو صدق ما تقول فإن حدود البلاد يجب أن تنتهي عند نابولي!

ـ بلى. حدود القارّة تنتهي في شطوط نابولي، فهل ينوي مولانا الاستيلاء على بحر ليبيا ليستردّ كل الجزر حتّى نابولي؟

اقتنص زمزوم في لهجة رفيقه نبرة سخرية، ولكنه تعمّد أن يتجاهلها عندما أجاب:

ـ لو أوتي مولانا علماً بما تقول لأدرج هذه النيّة في الخطّة. أنا على يقين!

سأل الفطيسي فجأة:

ـ هل أنت تركي يا زمزوم؟

التفت إليه القرصان بدهشة:

ـ لماذا تُسمعني هذا السؤال؟

أجاب الشيخ ضاحكاً:

ـ لأن الأتراك فقط يعتقدون أنهم يستطيعون أن ينالوا النجوم لمجرّد أنهم يرون النجوم!

تأمّله القرصان لحظات. ويبدو أنه لم يدرك المعنى إلاّ بعسر، لأنه لم ينطلق ضاحكاً استجابةً للمزحة إلاّ بعد مضي وقت طويل:

ـ ها ـ ها.. هذا يروق لي! ها ـ ها.. هؤلاء هم الأتراك بالفعل. أنا أشعر بالفخر لأن الله خلقني تركيّاً!

ساد سكون. ولكن مع ارتفاع الشمس تنفّس الشمال بنسيم بدأ ضعيفاً في البداية، ولكنه كان كافياً ليستجيب له الماء بغضونٍ تبدّت كالسيوف التي ترسمها رياح الصحراء على الرمل. غضون تبشّر بالشّعر، برغم أنّها لا تعترف بغير الحركة، بغير الأنفاس المجهولة، برهاناً على استمرار الوجود: وجود اليمّ، ووجود الصحراء كقرينة أزليّة لليمّ، ووجود كلّ كائن حيّ.

مضت أنفاس الشمال تسطّر على قرطاس المياه أشعارها الخفيّة

قبل أن تتحوّل، مع تمادي الأنفاس، أفواج أمواجٍ تتلاحق لترتطم بقاع السفين فتتكسّر بيسر تعبيراً عن هشاشتها، ولكنها تثابر لتبرهن على قوّتها.

قال الفطيسي:

ـ وراء الأكمة ما وراءها!

عبثت الأنسام بذيل طربوش القرصان التركي. قال:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

الفطيسي: الإنسان الذي أوصى مولانا بالحملة لا يريد بمولانا خيراً!

زمزوم: ماذا تقول؟

الفطيسي: القيام بحملة على جربة في هذه الظروف حماقة!

زمزوم: كيف تجرؤ على وصف عمل انتواه مولانا بالحماقة؟

الفطيسي: مولانا أحسن لي كما لم يحسن لي صاحب سلطان من قبل. لهذا السبب أريد به خيراً، لا شرّاً!

سكت القرصان. تأمّل موج البحر طويلاً قبل أن يعترف:

ـ منذ أيام أقبل على مولانا مرابط عابر. الكلّ يظنّ أن هذا الغريب هو الذي دسّ في رأس مولانا النيّة في الاستيلاء على جربة!

داعب الفطيسي لحيته المفلفلة بأصابعه الكثيبة قبل أن يقول:

ـ لو استشرتموني في أمر هذا الغريب لما سمحت له بالدخول على مولانا!

ـ حتّى لو كان مرابطاً؟

ـ حتّى لو تبدّى في جرم ملاك!

سكت ثم أضاف:

ـ ليس وليّاً ولا مرابطاً من يتشدّق بانتمائه إلى هذه الملّة، وأنتم لا تعلمون كما أعلم كم من الأدعياء يجوبون هذه الأنحاء متنكّرين في ثياب الزهّاد والنسّاك والمرابطين وهم قطّاع طريق يخفون نوايا الشياطين!

أطلق القرصان ضحكة خبيثة. وعندما تساءل الشيخ عن سببها تردّد زمزوم لحظات قبل أن يجيب:

ـ تذكرت رجلاً لم يتردّد في رجمك بمثل هذه النعوت التي رجمتَ بها الأدعياء الآن! ها ـ ها..

سكت الفطيسي لحظة. سرح في خلاء الماء باسماً. قال:

ـ النميمة تاج على صدري. هذا شعاري!

تمتم زمزوم:

ـ الحكمة الأناضولية تقول: «إذا خَلَتْ حياتك من أعداء فهذا دليل على أنّك أحقّ إنسانٍ بالرثاء!». البرهان على النجاح في كثرة الأعداء لا في كثرة الأصدقاء!

ثمَّنَ الفطيسي على حكمة الأناضول بالقول:

ـ لأن الأصدقاء في هذه الحال أيضاً أعداء يتخفّون في أثواب الأصدقاء!

انتصف النهار. اشتدّت أنسام الشمال. أقبل عليهما الربّان معلناً حلول موعد الغداء. ولكن زمزوم انتهز فرصة انشغال الفطيسي في حديث مع الربّان فتسلّل إلى ركن في السفينة ليقرأ الوصيّة كما أمر مولاه.

استخرج الرقعة من جيبه وبدأ يقرأ. قرأها مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات قبل أن يفهم الفحوى. طوى الرقعة بعناية قبل أن يعيدها إلى جيبه. انضمّ إلى الفطيسي في مقصورة الطعام فوجده يقهقه بضحكة منكرة استجابةً لملحة من مُلح الربّان الذي نال صيتاً بفضل موهبته في تجميع النكات من أفواه القراصنة وبحّارة السفن.

لم يستنكر زمزوم، ولكنه قرّر أن يمازح الفطيسي:

ـ الضحك لا يليق بشيخ يحمل لقب سفير!

هرع إليه الربّان بتأييد:

ـ سيّما إذا كان السفير ليس مجرّد سفير، ولكنه سفير فوق العادة لدى بلاط صاحب الأستانة!

تضاحكوا جماعيّاً. أقبل البحّارة بأصناف المأكولات، خاطب زمزوم الربّان:

ـ هل تدري يا «بهجت» أن سعادة السفير يشكّك في الحملة على جربة ويقول أنّها مكيدة من صنع الجنّ؟

كان الربّان رجلاً في العقد الرابع، أشقر الشعر، بعينين زرقاوين، ووجه مستدير متوّج بشاربٍ كثّ معقوف الطرفين إلى أعلى.

قال وهو يتفحّص الأطعمة في أطباق المائدة:

ـ بماذا أجيب؟ يُقال أن ارتداء القفّاز لا يطعم خبزاً.

تبادل زمزوم مع الفطيسي نظرة خاطفة. تكلّم زمزوم:

ـ أنا لا أفهم لغة الإستعارة.

تولّى الشيخ الفطيسي ترجمة العبارة من لغة الاستعارة:

ـ بهجت إنّما احتكم إلى المثل الذي يقول: «من لا يجازف لا ينال» أو شيء من هذا القبيل.

قال زمزوم بخيبة أمل:

ـ لم أسمع بهذا المثل.

ثم هجم على شرائح اللحم. تدخّل الربّان:

ـ يقال أيضاً: «من يرتدي قفّازاً لا يسلخ ذبيحة!»، فهل أوضحت؟

تمتم زمزوم:

ـ هذا أفضل. ولكن..

عرقلت اللقمة القول في فم القرصان، فابتلعها بلا مضغ استجابةً لشهوة القول التي تفوق النهم إلى الطعام. قال:

ـ كدت أنسى سؤالي عن الضحك. لا أعرف لماذا ترى القبائل في ضحكة العقلاء إثماً عظيماً!

مسح الفطيسي عن فمه الدهون. قال:

ـ كل الأمم ترى خطراً في ملء الأشداق بالضحك.

تساءل بهجت:

ـ أترى الأمم في الضحك خطراً أم رذيلةً؟

ولكن زمزوم لم يتح للشيخ فرصة الإجابة على السؤال عندما دخل إلى الساحة بسؤال جديد:

ـ ما مدى صحّة الحكمة القائلة بأن ثمن الضحك كآبة؟ هل شعر سعادة السفير باكتئاب بعد ضحكته الأخيرة؟

تمهّل الفطيسي. كان يلوك الطعام بخمول من يُتْقِن التلذّذ بالمأكولات. قال:

ـ أعترف أنّي استشعرت الكآبة ما أن وقع بصري عليك!

رمقه القرصان بفضول. قال بعد لحظات:

ـ تريد أن تقول أنّك شعرتَ بالكآبة ما أن توقفتَ عن الضحك؟

أجاب الفطيسي بعد مهلة:

ـ تستطيع أن تقول ذلك. هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر جواب القرصان. أجاب:

ـ لأنّي لم أتوقّف عن الضحك إلاّ في اللحظة التي رأيتك!

تبادلا نظرة مزمومة. نظرة استرعت انتباه الربّان فاستجاب لها بسيماء الاستنفار. توقّف ثلاثتهم عن المضغ قبل أن يتمازح زمزوم:

ـ جوابك يا سعادة السفير يدلّ على أنّك أدهى مخلوق قابلته في حياتي!

ولكن أحداً لم يستجب للنكتة، ربّما لأن الجليسين لاحظا وسم الشحوب الذي غزا وجنتي زمزوم ساعة نطق بالعبارة. قال الفطيسي:

ـ وسؤالك يا حضرة الرسول يقطع بأنّك لستَ بالبلاهة التي يظنّها رفاقك في القلعة!

دفنوا شكوكهم في أطباق الأطعمة لحظة. تبادلوا النظرات خلسةً. العدوى انتقلت إلى الربّان أيضاً فاكتأب واختبأ في قوقعته. قال زمزوم:

ـ سمعتُ بسيرة القبائل الصحراوية التي يقال أن رجالها يعلنون الحداد ثلاثة أيام إذا سمعوا أحد عقلائهم يرفع صوته بضحكة!

وافقه الفطيسي:

ـ أهل الصحراء يقولون: من ملأ فمه ضحكاً اليوم ملأه غداً دموعاً!

تدخّل الربّان:

ـ معهم حقّ. لقد أجمعت كل الأمم أن القدَر حسود إذا سمعك تتشدّق بضحكة انتقم منك ببليّة!

ابتسم زمزوم. قال:

ـ هذا يعني أننا لا نتطهّر بخطيئة الضحك إلاّ بتلقّي البليّة.

تمتم الفطيسي:

ـ ما أشقاك أيها الإنسان: تضحك اليوم كأنّك لا تدري أنّك ستموت غداً!

تبادل مع القرصان نظرة شكّ. النظرة المزمومة ذاتها. نهض القرصان. غاب زمناً. عاد برفقة ماردين مخيفين. أحدهما زنجي مفتول

العضلات، جهم السيماء، أفطس الأنف، بعين حولاء. وثانيهما نصراني، بدين، أقصر قامة، مسبوك البدن. وقفا فوق رأس الفطيسي في حين بدأ القرصان في قراءة صحيفة الإتّهام:

ـ الآن فقط تستطيع يا سعادة السفير أن تحدّثنا عمّا إذا كنت في حياتك الزائلة سعيداً لأنّك سوف تتطهّر من إثم ضحكتك بعد قليل.

انتصب في المكان سكون. كان الربّان يبتسم ظنّاً منه أن القرصان قرّر أن يتسلى بتمثيل فصل في مسرحيّة هزلية كما يروق له دائماً أن يفعل. ولكن السيماء التي رآها في مقلة الفطيسي أفزعته فهبّ واقفاً. أومأ له القرصان فتنحّى جانباً. تمتم الفطيسي:

ـ هل هذه أحجية أخرى؟

أخرج القرصان الرقعة من جيبه. لوّح بالرقعة في الهواء قبل أن يتساءل:

ـ ألا يقال أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف عمّا إذا عاش حياته سعيداً إلاّ في اللحظة التي يقف فيها أمام حبل المشنقة؟

في مقلة الفطيسي لمع إيماء غريب كأنه الوجع، ولكنه استعاد حضوره فابتسم بحزن. قال:

ـ فهمت!

ثم تبادل مع جلاّده نظرة قبل أن يقول:

ـ ولكن ألا يهب الناموس الحقّ في تحقيق الرغبة الأخيرة؟

تبادل القرصان مع الربّان نظرة سريعة. قال القرصان:

ـ عجّل!

قال الفطيسي:

ـ الموت رمياً بالرصاص!

أفلتت من فم القرصان ضحكة. صاح:

ـ هل هذه خدعة أم رغبة؟

استنكر الفطيسي:

ـ خدعة؟

زأر زمزوم:

ـ هذه خدعة لن تتكرّر، لأنّك سبق واستعملتها مرّة مع الدرويش أحمد بك!

غمغم الفطيسي:

ـ اللعنة!

أومأ القرصان للماردين فتقدّما من الضحيّة. أخرج المارد الزنجي من جيبه أنشوطة حريرية بديعة الجمال. ألقى بها حول نحر الفطيسي في حين هجم المارد الثاني ليجثم على صدره.

أشاح الربّان بوجهه. تقدّم منه القرصان وأخذه من يده. ذهبا إلى الممرّ المشرف على البحر. كانت الريح قد تمادت قليلاً فتدافع الموج في كثبان متوّجة بالشيب مردّداً أغنيته الخالدة.

وقفا صامتين حتّى تقدّم من القرصان المارد البدين ليهمس في أذنه بعبارة مقتضبة. أومأ له بهزّة من رأسه فانصرف. ولكنه ما لبث أن

عاد حاملاً جثمان الضحية على منكبه الأيمن. ألقى بالبدن على العارضة. تركه هناك لحظات. ثمّ دفعه بسبّابته فهوى البدن إلى اليمّ.

قال القرصان:

ـ ستذهب يا صاحب النحس سفيراً للمملكة في بطون الحيتان!

ولكن لا القرصان، ولا ربّ القرصان القابع في بلاط القلعة، خمّن المفاجأة التي خلّفها لهم صاحب النحوس وصيّةً مزروعة في رحم امرأته. لأن شهوراً لم تنصرم على هلاكه حتّى أنجبت له ميزلتوب من جوفها وريثاً كئيباً موسّماً بتلك البصمة الأبدية التي طبعت ذريّته بعلامة مميّزة أطلقت عليها الأجيال اسم: «لون اللّعنة»!

## 17

اختلف الرواة في عدد السفن الحربيّة التي سخّرها إمام الأبالسة في حملته على جربة. ففي حين يجزم بعض أصحاب الحوليات أن عددها ستّة سفن يؤكّد أحد شهود عيان ذلك الزمان أن عدد قطع هذا الأسطول كان مكوّناً من سبعة قطع حملت إلى شواطىء الجزيرة ما يزيد على الألف جندي مرتزق استأجرهم صاحب الألقاب المريبة مستعيناً بتفاصيل الخطّة نفسها التي نفّذ بها مغامرته في الاستيلاء على طرابلس.

أمّا الرواية الثالثة فتقول أن عدد السفن التي جمعها قائده كاره مصطفى كانت سبعة قطع بالفعل في البداية، ولكن إمام الزبانية استبقى إحدى هذه السفينة بمرفأ المدينة لا لحاجة ماسّة إليها، ولكن تطيّراً من الرقم السابع في حساب العدد، وتيمناً بالرقم السادس. وهي رواية تبدو

أقرب إلى الحقيقة إذا صدّقنا ما تردّد في البداية من إخفاء زعيم عصابة القراصنة هذه لإسمه السادس (اسمه الحقيقي) على طريقة السحرة خوفاً من سوء الطالع.

بلغ كاره مصطفى شطآن الجزيرة بعد منتصف ليلة سكنت في أجوائها الرياح وغاب من سمائها القمر.

استكمل استنزال جنوده قبيل الفجر في مرفأ «رأس الرملة» الذي يسمّيه أهل الجزيرة «حومة السوق» بحذاء برج عالٍ، مهيب، ناصع اللّون، متوّج في قمّته العليا بهيكل مثلّث الأضلاع. وعندما سأل جواسيسه الذين استخدمهم في تزويده بأحوال الجزيرة قبل وصوله بشهور قالوا له أن البنيان ما هو إلاّ معبد يرجع إلى عهود الجاهلية أخفق الفتح الإسلامي في هدمه، ويسمّى في رطانات أهل البلاد القدماء «أغرّاس». استفهم عن معنى هذه الكلمة الغريبة فأفادوا بأنها مجهولة المعنى بالعربية، لأنها كلمة مستعارة من لسان البربر الذي لا يتقنه اليوم سوى عدد قليل من أهل جربة، وهم بقيّة من تلك الأمّة.

ولكن القرصان التركي الذي اعتاد أن يقرأ نبوءة في كل شيء، ويتطيّر من كل شيء، تربّع فوق رابية تقع في مواجهة المعبد ذي الاسم الخفيّ، وطلب من الأعوان أن يستعينوا بالجواسيس ويفتّشوا الأحياء المجاورة شبراً شبراً عن مخلوق من أهل الجزيرة الأوائل يستطيع أن يفكّ طلسم هذه الكلمة. حاول بعض الأعوان أن يقنعوه بعدم جدوى هذا البحث علاوة على خطورته لأنّهم أقبلوا لغزو الجزيرة لا لنزهة

للفرجة على معالم المدينة وفكّ رموز أطلالها البائدة. ولكن روح السلالة التركية سرعان ما استيقظت في وجدان القرصان فسبّ الأعوان وتوعدهم بأسوأ أجناس القصاص إذا لم يأتوه بترجمانٍ من أهل القبيلة الزائلة يستطيع أن يفكّ طلسمان العبارة المجهولة في مهلة لا تتجاوز الساعة.

لم يحالف الأعوان الحظ في العثور على الترجمان في بحر الساعة، ولكنهم عادوا بعد ساعتين بشبحٍ هزيل، محنيّ الظّهر، غائر الوجنتين، محفور الوجه بالغضون، قدّموه لمولاهم كآخر إنسٍ ينتمي إلى الأمّة المندثرة ويستطيع أن يفكّ طلاسم اللغة المنسيّة.

تأمّله القرصان في سَحَر الفجر لحظات. سأل بلهفة من ينتظر الفوز بموقع كنز:

ـ ما معنى كلمة «أغراس» في رطانات البربر؟

شيّع العجوز يداً نحيلةً كالعود، محروثةً بالتجاعيد، ملفوفةً بعروقٍ نافرة كأنها الحبال المفتولة من ألياف المسد، تبدّت للقرصان بوضوح برغم غياهب الفجر. جرّ الشيخ إبهامه النحيل على نحره في إشارة غامضة، ولكنه لم ينبس. حاول القرصان أن يتبيّن الإيماء في عينيه، ولكنه أخفق. سأل الأعوان:

ـ هل هو أخرس؟

لحظتها جاهد الشبح طويلاً قبل أن يلفظ الكلمة همساً مبحوحاً:

ـ المذبح!

ساد السكون لحظة قبل أن يستوضح قائد الجند:

- هل تريد أن تقول أن معنى كلمة «أغراس» في رطانتكم هو المذبح؟!

هزّ الشبح رأسه إيجاباً، ولكنه لم ينبس. أغمض القرصان عينيه في حين اكتسحت وجنتيه سيماء احتقان. كان شحوباً كئيباً رآه الأعوان بوضوح برغم عتمات الفجر فاكتأبوا أيضاً لا تطيّراً من النّبوءة، ولكن خوفاً من الجلاّد الذي تلقّى النبوءة. تمتم القرصان:

- اللعنة!

حاول أحد الأعوان أن يهوّن عليه:

- المذبح يا مولانا ما هو إلا اسم المنبر إذا ترجمناه من لغة عبدة الأوثان إلى لغة أهل الإسلام!

ولكن العبارة لم تهوّن على القرصان محنته، لأنه ما لبث أن ترنّح كأنه درويش ليردّد:

- هيهات! لقد واجه أعظم أبطال الدنيا مصيراً مشئوماً يوماً خَتَمَ بطولاته بهزيمة كانت الأولى والأخيرة في حياته كلها. كان عائداً من فتوحات حطّم بها إمبراطوريات تستلقي على الشطّ الآخر من هذا البحر، لها صيت الأساطير، ولكنه عندما أدرك شواطىء إمبراطوريّته التي صنعها بسيفه قرّر أن يستجوب الحظّ الخؤون فأمر أحد بحّارته أن يصعد الصاري ليخبره ما الذي يتبدّى، أوّل ما يتبدّى، على يابسة الشاطىء. استطلع البحّار قبل أن يصرخ مخاطباً القائد الأسطوري: «إنّي

أرى حجارة المقبرة القديمة يا مولاي!». لحظتها رفع أعظم القادة على الإطلاق كلتا يديه إلى السماء ليخاطب ربّة الأرباب «تانيت» قائلاً: «عليك يا قرطاجنّة السلام!». وبالفعل كانت تلك آخر معارك بطل الأبطال هانيبال في حربه الطويلة مع أباطرة الروم، وكانت هزيمته في تلك المعركة بداية النهاية لأعظم إمبراطورية قامت في هذا الجانب من بحر ليبيا العظيم. فهل قرأتم الرسالة كما قرأتها أنا أيها البلداء؟

انطلق أحد الجواسيس يتمتم بآيات من سورة: «الناس»، ألحقها بترديد بعض التعاويذ المجهولة التي ترجع بمفرداتها إلى اللّغة المنسيّة ذاتها التي استعار منها كاهن الأمّة الزائلة ذاك نبوءته، في حين وسوس قرصان الأناضول:

ـ قلبي يحدّثني أن الحملة على هذه الجزيرة فخّ!

هبَّ أحد الأعوان مرّة أخرى:

ـ ألم يخطىء مولانا في التأويل؟

هبّ لنجدته أحد الجواسيس:

ـ الرجل على حقّ. الذبح سيكون اليوم في نحور جنود الباي حمّودة، لا في نحور جنودنا!

ولكن قائد الجند لم يقتنع كأنّه لم يسمع. مضى يترنّح يمنةً ويسرةً غائباً. قال:

ـ الأقدار لا تخاطب من أقام، ولكنها تخاطب من أقبل. لو صحَّ ما تقولون لكانت الغلبة لهانيبال في معركته مع الداهية «سيبيون» بعدما نصبت الأقدار في وجهه أنصاب الأموات!

## 18

استولى القرصان على الجزيرة دون أن يضطرّ إلى إطلاق قذيفة واحدة من فوهة مدفع، ولا رصاصة واحدة من فوهة بندقيّة.

لقّن النذير وصيّةً تدعو الناس إلى الاجتماع في ساحة السوق لأمرٍ هامّ، ثمّ أقبل عليهم ليقرأ قرطاساً مشبوهاً قال أنه فرمان صادر من دار الخلافة في الأستانة يبشّر أهل جربة بالخلاص من جور الباي حمّودة وجشع أعوانه الذين استعملهم على الجزيرة. ثمّ هنّأ القوم بضمّ الجزيرة إلى المملكة الطرابلسية معبّراً عن ذلك بجملة غامضة أثارت الدهشة تتحدّث عن «عودة الابن الضّالّ إلى ربوع الأهل». قال أيضاً أن هذه الخطوة ليست سوى بداية لاسترداد بقيّة الأغنام إلى حظيرة القطيع وسوف يأتي اليوم الذي ستشهد فيه الدنيا عودة فرع اسمه تونس إلى شجرة أمّ اسمها طرابلس بعد أن شاء الأغراب لهذا الفرع أن يغترب طويلاً عن رحاب الأصل، وذلك بفضل حكمة صاحب الباب العالي وشجاعة خادمه الأمين علي باشا بن زول عاهل طرابلس!

لم يكتفِ كاره مصطفى بزفّ بشارة الخلاص (حسب تعبيره) لأهالي جربة ولكنّه لم ينزل المنصّة إلاّ بعد أن أضاف إلى هذه البشارة بشارة أخرى تمثّلت في ندائه في الناس بالأمان، في وقتٍ كان فيه قراصنته ينحرون خدم عامل الباي حمّودة على الجزيرة حميدة بن عيّاد وينهبون بيته، بعد أن تمكّن صاحب جربة هذا من الفرار إلى صفاقس، ومنها إلى تونس، حيث نقل إلى البلاط خبر الاستيلاء على الجزيرة.

ويروي أصحاب حوليات ذلك الزمان على ألسنة بعض أفراد حاشية البلاط التونسي أن الباي الذي اشتهر بالحِلْم لم يره أحد غاضباً كما رآه أهل هذا البلاط في ذلك اليوم الذي تلقّى فيه نبأ العدوان. فقد قيل أنه اعتزل في مكتبه بعدها ساعات قبل أن يأمر بعقد جلسة طارئة لأعضاء ديوانه تحدّث فيها فقال أنه صبر طويلاً على استفزازات القرصان الدّعيّ المدعو علي بن زول برغم أنه كان أعلم الناس بحقيقته عندما كان هذا الوغد آمراً لبحريّة داي الجزائر، حتّى أنه لم يدرك أنه أخطأ مرّات بالسكوت على فظائعه: مرّة لأنه وقف مكتوف اليدين وهو يراه يغتصب عرش آل القرمانلي بفرمان مزوّر دون أن يحرّك ساكناً وهو الذي يعلم كما لا يعلم الكثيرون كيف رفض أحمد الأكبر مؤسس هذه الأسرة عرضاً من الأستانة مرّة يقضي بغزو تونس وضمّها إلى طرابلس، وعرضاً آخر في مرّة أخرى من صاحب جربة نفسها يقضي بضمّ الجزيرة إلى سلطان هذه المملكة. ثمّ سكت مرّة ثانية عندما استولى هذا الأفّاق على إحدى سفن تونس التجاريّة في عرض البحر ونهب حمولتها بعد أن أسر بحّارتها. فهل يسكت في المرّة الثالثة أيضاً بعد أن كشف هذا الوقح عن وجهه الحقيقي بهجومه الغادر على جربة؟

سكت الباي في حين تعالت صيحات الاستنكار من حناجر أعضاء الديوان. أسكتهم بإشارة من يده قبل أن يضيف:

ـ هذا حميدة بن عيّاد عاملي على جربة يقف أمامكم الآن بعد أن حدّثني منذ قليل عن أطماع أخرى يخفيها هذا المخبول لا تكتفي

بالاستيلاء على جربة، ولكنها تتحيّن الفرصة للانقضاض على صفاقس، ثم المنستير، ثم سوسة، ثم الحمّامات!

صاح أحد الأشياخ بأعلى صوت:

ـ هذا يعني أن قاطع الطريق هذا يريد الاستيلاء على تونس بأكملها!

أيّده الباي:

ـ أجل. تونس كلّها اليوم في خطر!

ضجّ البلاط بالعبارات التي تنادي بالتصدّي للعدوان وتطهير جربة من شراذم القراصنة.

استمع الباي حمّودة في ذلك اليوم لهتافات أعضاء ديوانه فلاذ بالصمت حتّى سكنت الغضبة في صدور الأشياخ، ثم قال:

ـ لا يكفي أن نطهّر جربة من دنس القراصنة، ولكن لا بد أن نلقّن نبي الزور درساً!

ساد البلاط سكون جليل قبل أن يضيف الباي:

ـ سأوجّه له جيشي لأنكّل به في عقر داره!

ولكن أحد الأعضاء ما لبث أن عبّر عن شكوكه في صواب هذا الإجراء بسؤال:

ـ ولكن هل من الحكمة يا مولانا أن نغزو طرابلس دون إذنٍ من الباب العالي؟

ابتسم الباي بتسامح قبل أن يجيب:

ـ وهل نال برغل النّحس تفويضاً من الباب العالي عندما احتلّ أرضنا؟

سَرَتْ في المجلس همهمة استحسانٍ فانتهز الباي الفرصة ليضيف:

ـ لا تنسوا أن في حوزتنا تميمة لو أحَسَنّا استعمالها لأبطلنا بها سحر المسخ الكريه القابع في بلاط طرابلس في عدّة أيام!

ضجّ البلاط بالأصوات التي تتساءل عن طبيعة هذه التميمة فما كان من الباي إلاّ أن أعلن:

ـ آل القرمانلي!

## 19

كلّما اجتمع عليّ باشا القرمانلي بابنيه في منفاه بتونس راق له أن يردّد: «فرّقتنا النعمة، فجمعتنا النقمة!»، ثم يختلس إليهما نظرات ذات معنى قبل أن يضيف: «العروش حسان، والحسان فتنة!».

لم يعد الباشا يخاطب الجلساء بعينين مغمضتين كما اعتاد أن يفعل في بلاطه بطرابلس. ولم يعد يجد عسراً في معاندة بدنه أيضاً عند القيام أو الجلوس: النعاس النهاري هجر العينين بسبب الإقلاع عن السهر ومعاقرة الخمور. والبدن أيضاً نحل وتحرّر من أوزار البدانة؛ فكان يروق له أن يتندّر ساخراً فيقول لنفسه: «صرعتني النعمة فأنقذتني النقمة!»، ثمّ يتمتم: «اللعنة على العروش وأصحاب العروش» قبل أن يتناول عكّازه وينطلق للنزهة على شاطىء البحر.

كان بيت الضيافة الذي هيّأه له الباي حمّودة قصراً أنيقاً مشيّداً على قمّة سيدي بوسعيد المطلّة على بحره الحميم الذي لم يحدث مرّة أن نظر إليه إلاّ واحترقت مقلتاه بدمع أحرّ من ماء النّار. فهل هو حنين إلى الوطن المفقود أم هو حنين إلى البحر الذي لم يكن له يوماً إلاّ وطناً؟ لقد أدرك في أعوام المنفى هذه أنه لم يمتلك من ليبيا إلاّ طرابلس، ولم يمتلك من طرابلس إلاّ القلعة، ولم يمتلك من القلعة إلاّ النافذة المشرفة على البحر الليبي العظيم.

اكتشف بالبليّة أنه لم يمتلك شيئاً في مملكته. لم يمتلك حتّى بدنه الذي لم يكن له يوماً إلاّ عبثاً. لم يمتلك حتّى نفسه لأن هذه النفس هي التي امتلكته فنكّلت به لا بعلل الجسد فحسب، ولكن بعلل أسوأ ألف مرّة من علل البدن: نكّلت به بعلل بحث لها عن اسم طويلاً قبل أن يكتشف أنها هي ما يسمّيه أولياء الأضرحة ودراويش الطرق الصوفيّة: «أمراض الروح»، فكان من نتيجة ذلك أن أدرك أن في بدنه الذي لم يعرفه لغزاً اغترب عنه دائماً اسمه: الروح! لأن الروح هي السرّ الذي لا بدّ أن يحتجب عن تلك المخلوقات المنذورة منذ طفولتها للعروش. ولكن مرأى البحر كان يصيبه دائماً بالمسّ. ولو أوتي نصيباً من علم الدروشة لقال أن هذا الضرب من المسّ هو ما يسميه أهل الحضرة: الوجد!

كان يرمقه كلّما حاقت به بليّة من بلايا المملكة التي لا تنتهي فيصير له بلسماً. يطفىء غضباته الجنونية ويمتصّ الهمّ.

ليس هذا فحسب، ولكنه كلّما رحل عبر امتداده الأبدي أيقظ فيه إنساناً مجهولاً اشتهى دائماً أن يعرفه، ولكن زور دنيا المملكة كان يتدخّل في كلّ مرّة ليفسد عليه بحثه كما أفسد عليه حياته. ولم يكتب له أن يفوز ببغياه إلاّ عندما حاقت به البليّة فوجد نفسه في المنفى فحقّقت له الخلوة في أشهر ما أخفق العرش في تحقيقه في سنوات. رأى في إحدى نزهاته على الشطّ رؤيا: البحر هو الروح، والروح ما هي إلاّ بحر. البحر والروح لغزان لا تنكشف هويّة أحدهما إلاّ بعونٍ من هويّة ثانيهما؛ ربّما لأن البحر ماء، والماء ما هو إلاّ الروح إذا عَنَّ للروح أن تتجسّد. كما أنّ الروح ماء إذا عَنَّ للماء أن يتخفّى، أن يتبدّد، أن يتحرّر. ويذكر أن أحد أعوانه من أعلاج النصارى قرأ عليه أنجيلاً من كتاب الأمّة النصرانية يتحدّث عن اقتران الماء والروح. العلج قال أيضاً أن هذا هو السبب الذي يجعل قساوسة النصارى يعمّدون الأبناء بالماء في الكنائس.

وفي خلوة أخرى على الشاطىء مَنَّ عليه البحر بإلهامٍ آخر. كان قد تسكّع حتّى حلول المساء. فوق الماء ارتفع قمر كاد أن يستوي بدراً. على الماء سطع ضياء غامض. كان انعكاس الضوء على الماء مزعزعاً كأنّ القمر ينهمك مع البحر في حوار. حوار بين الأعالي اللانهائية والأسافل الأبديّة. بين السماء وكلّ ما حوته السماء وبين الأرض وكلّ ما حوته الأرض. ولم يكن القمر والبحر في هذه الأغنية الشجنيّة المجبولة بالحنين إلاّ بمثابة رسولين حميمين. في هذه اللحظة

فقط أدرك كم كان عليّ باشا القرمانلي مغترباً عن عليّ باشا القرمانلي.
في اللحظة التي تماهى فيها مع أنشودة الكون الخالد أدرك (بل تلقّى) هبة ربوبيّة هي الحرية! أدرك أن البحر لم يكن سوى حريّة، وما يقظة الحنين في قلبه كلّما تأمّل هذه الأعجوبة إلاّ حنيناً إلى الحريّة. ليس البحر وحده حريّة، ولكن قرينته الروح أيضاً حرية. فإنسان لم تستيقظ فيه هذه العنقاء الأسطورية إنسان مغترب عن نفسه، مغترب عن لغز الروح، مغترب عن الحقيقة!

في اللحظة التالية تزعزع بشرر وَحْيٍ آخر أسال الدموع من عينيه بغزارة. شرر الإلهام قال له بوضوح أن الحرية ليست روحاً فحسب، ولكن الحريّة هي شيء أعظم شأناً حتّى من الروح، الحرية هي.. الله!

انهار ليلتها على صخرة عند الشاطىء وبكى كالطفل. بكى وهو يردّد: «الحريّة هي الله! الحريّة هي الله! كيف لم أستطع أن أدرك ذلك من قبل؟». شيّع رأسه إلى أعلى فتلألأت دموع البعث في عينيه. كان سعيداً بالدموع في عينيه. كان سعيداً بدموع الميلاد الثاني حتّى أنه ما لبث أن تكلّم بصوت عالٍ: «هذا يعني أن الفردوس لم يكن كذبة! هذا يعني أن الفردوس هو الحريّة!».

## 20

رأى عليّ باشا القرمانلي في تلك الرؤيا نبوّةً فقرّر أن يتحرّر. قرّر أن يؤمن (كما راق له أن يعبّر)، قرّر أن يحيا، قرّر أن ينال فردوساً حرمه منه السلطان الذي لم يعرف إلاّ الآن أنه لم يكن سوى فخّ،

مكيدة، أكذوبة. اكتشف أن العرش حجب عنه الحقيقة طوال هذه الأعوام. حجب عنه فردوسه الذي كان في متناول يده. حجب عنه نفسه. حجب عنه الله. يكفي العرش خطيئةً أنه حجب عنه ربّه!

قال في نفسه ليلتها أن الإنسان لا يتحرّر حقّاً إلاّ عندما يقرّر أن يتحرّر، إلاّ عندما يريد أن يتحرّر.

ليلتها لم ينم.

ذهب إلى مكتبه وحرّر خطاباً إلى مضيفه الباي. في الخطاب طلب من سعادته الغفران لأنه أساء به الظنون دائماً عندما كان ملكاً على عرش طرابلس. قال في الخطاب أيضاً أن البليّة التي أحاقت به وبأسرته لم تكن بليّة، ولكنها رسالة إلهيّة لتلقينه درساً نبيلاً، لأنّه لم يستردّ بصيرته الضائعة وينال الخلاص إلاّ اليوم. وما طلبه للغفران من سعادته إلاّ برهان أوّل على ذلك. أضاف في خطابه قائلاً أن المحنة فقط تستطيع أن تصنع من الإنسان خلاً بعد أن خلناه عدوّاً. كما تصنع من الخلّ عدوّاً بعد أن خلناه صديقاً. عبّر في رسالته للباي عن عظيم امتنانه لسخائه في إيواء أسرته، وكرمه في الإنفاق عليه وعلى أفراد أسرته حتّى أن أحداً منهم لم يشعر مرّة بأنه فَقَد، بل نال أكثر ممّا توقّع أن ينال. بعدها ختم الخطاب بأمنية تمثّلت في رغبته في أن يتكرّم سعادته بنقله إلى بيت أكثر تواضعاً على أن يطل على معشوقه البحر، وأن يعفيه من العسس استجابةً لمشيئة الأقدار التي حرّرته من الحاجة إليهم، وكذلك من الخدم والجواري والعبيد، والاكتفاء من هذه الحشود بامرأة تطهو له طعامه وتغسل له لباسه ورجل لقضاء الحوائج.

في اليوم التالي أقبل الباي لزيارته بنفسه ليعبّر له عن دهشته بما أورده في خطابه. ثم حاول إقناعه بالتراجع عن نواياه. ولكن الباشا أصرّ على موقفه. فما كان من الباي إلاّ أن أمر له ببيت أنيق يقوم على مرتفع يجاور البحر. أمر أيضاً بتخفيض عدد الخدم، ولكنه احتال فيما يتعلّق بالعسس. فقد تظاهر بقبول الاستغناء عن الأحراس، ولكنه أوكل لهم مهمّة القيام بالواجب نحو الباشا عن بُعْد. ظلّوا يلاحقونه أينما ذهب، ويقتفون أثره في كلّ مكان حتّى أثناء نزهاته على ساحل البحر. كان كثيراً ما ينتهرهم قائلاً: «لماذا تتبعونني؟ هل أنتم عسس لحمايتي أم جواسيس عليّ؟ إذا كنتم عسساً فأنا لا أحتاج إلى عسس لأنّي لم أعد عليّ باشا القرمانلي ملك المملكة الطرابلسيّة، ولكنّي مجرّد عليّ. عليّ بن محمد بن أحمد القرمانلي. أمّا إذا كنتم جواسيساً عليّ فمن المضحك أن تقتفوا أثر إنسان لا يريد من الدنيا إلاّ أن يروي عينيه من ماء البحر!».

ولكن الأحراس لم يتوقّفوا عن السعي في أثره، فكان ينازعهم كثيراً إلى حدّ أن قائدهم الذي نصّبه الباي رئيساً عليهم جادله مرّة بحجّة تتحدّث عن ضرورة حضورهم إلى جواره لأن القرصان عليّ برغل سخّر جواسيساً قد تشكّل خطراً على حياته، فما كان منه إلاّ أن أطلق في وجوههم ضحكة سخرية ليقول: «ليته يفعل!».

لم تنصرم أسابيع على فوزه باللقية (كما راق له أن يسمّي الحرية) حتّى عقد صداقات مع صيّادي الأسماك في المرفأ فقام بمجازفة مع

أحدهم مرّة فركب معه البحر. في هذه المغامرة فقد طربوشه الأحمر الذي تتدلّى من طرفه الخلفي حزمة الخيوط المنسوجة من الحرير فتتبدّى كأنها منسأة أو ذيل حصان، وكاد يفقد عكّازه الحميم الذي صار له أنيساً في جولاته الأخيرة.

وما أن عاد من رحلة ذلك اليوم حتّى فوجىء بوفد العائلة يقف على رصيف الساحل في انتظاره يتقدّمه أحمد بك وسيدي يوسف فاكتأب في الحال لأن الكوكبة ذكّرته باليوم الذي أقبلوا فيه لينقلوا له خبر رحيل للاّ حلّومة. حدّث نفسه فقال أن أهل العروش لم ينقلوا لأحد يوماً بشارة. كانوا قد نقلوا له منذ أسبوع خبر استيلاء على برغل على جربة ونيّته المبيّتة في الاستيلاء على تونس كلّها فاستولت عليه نوبة كآبة أيضاً ثم ابتسم لهم قائلاً: «يبدو أن بال هذا المسخ لن يهنأ ما لم يفز برأسي، فلماذا لا تسمحوا لي بالذهاب إليه لأضع رأسي بين يديه؟». ولكنه فوجىء في هذه المرّة بوجود وزير الباي مصطفى خوجة بين أعضاء الوفد. أبصر أيضاً أحمد بك ينفصل عن الجمع ويهرع لاستقباله. وقف في وجهه ليقول بصوتٍ مكتوم حتى لا يسمعه أحد:

ـ هذا لا يليق يا أبي!

سأل بلا اكتراث:

ـ ما الذي لا يليق؟

ـ أنت لا تعلم أن الكثيرين بدأوا يشكّكون في قواك العقليّة في الآونة الأخيرة!

ابتسم باستخفاف. قال:

- هل في ركوب البحر ما يدعو للتشكيك في القوى العقليّة؟

هزّ البك رأسه بيأس:

- ليت الأمر وقف عند حدود ركوب البحر!

ثم أضاف فجأة وهو يخطو إلى جواره:

- تأبى يا أبتي إلاّ أن تضيف فصلاً جديداً كل يوم لغرابة أطوارك!

جادله الأب بلهجة استخفاف:

- هل غرابة أطوار أن يتحرّر الإنسان؟

تطلّع إليه البك. استوقفه:

- أتوسّل إليك أن تكون جادّاً ولو لمرّة يا أبي، لأن الوزير لم يقبل عليك إلاّ للتباحث في أمر شديد الخطورة هذه المرّة!

تمتم قبل أن يواصل المسير:

- لم يعد يبدو لي أيّ شيء أمراً شديد الخطورة. وبرغم ذلك فسأستقبل جناب الوزير بما يليق به من حفاوة لا إكراماً لك، ولكن إكباراً لسعادة الباي!

حاول البك أن يعترض سبيله:

- هل تسمح لي أن أسأل أين طربوشك؟

تطلّع إليه الأب بدهشة. مرّر يده على صلعة رأسه قبل أن يقول:

- لقد أضعته!

أشار البك إلى عكّازه أيضاً قبل أن يستفهم:

ـ ماذا أصاب عكّازك؟

الباشا تلقّى هذا العكّاز هديّة من البك في الأيام الأولى للبعث. كان عكّازاً مطعّماً بحبيبات جوهرٍ محفورةٍ في الخشب على هيئة حيّة تلتفّ حول الساق في زحفها نحو المقبض كأنّها تتحيّن الفرصة للانقضاض على اليد التي تمسك بالمقبض. كرهها فقرّر أن يتخلّص منها بعد ليلة سمع فيها من فم أحد عبيده السودان حكاية تروي كيف كتم الأفعوان أنفاس رجلٍ في إحدى قرى الأدغال لأنه اعتاد أن يعلّق في رقبته تميمة في صورة أفعى!

تناول سكيناً وشرع في تجريد العكّاز من بدن الحيّة حبّةً حبّةً. تخلّص من الجرم الملفّق من أحجار الجوهر، ولكن الأثر ظلّ محفوراً في ساق العكّاز كأنّه سيماء مختومة بلسان النّار لا بأحجار الجوهر. ويبدو أن البك لم يلحظ التخريب الذي لحق بعطيّته إلاّ في لقاء ذلك اليوم فحدجه خطفاً قبل أن يبرّر عبثه بالعطيّة:

ـ ما أحوجك أن تشكرني لأني حرّرت عطيّتك من الخطيئة التي كانت السبب في حرماننا من الفردوس!

استفهم البك بلهجة استغراب:

ـ الخطيئة؟

ـ الحيّة!

ثمّ أضاف:

ـ لا أعرف كيف يبيح الناس لأنفسهم تجسيد الحيّة بعد كلّ ما فعلته بنا!

تابعه البك بإشفاق ممزوج بسيماء الحزن. أدركا محفل الوفد. في عيني الوزير مصطفى خوجة لمح البك إيماء استخفاف فاستبدّ به بلبال. ويبدو أن الوزير لاحظ أوجاعه فحاول أن يهوّن عليه. تنحّى به جانباً ليهمس في أذنه:

ـ كلّنا مرضى بوسواس اسمه الفردوس!

في العربة التي أقلّتهم إلى المدينة قال الوزير خوجة:

ـ يسعدني يا سعادة الباشا أن أنقل لكم من أخيكم الباي رسالةً تتضمّن بشارة!

تمتم الباشا بقلق:

ـ بشارة؟

كان يستشعر حرجاً بسبب غياب الطربوش فيداريه بتمرير يده على صلعة رأسه بين الفينة والأخرى. يرمق الوزير الذي جلس في مواجهته إلى جوار سيدي يوسف، ثم ينتقل ببصره إلى يوسف كأنه يستنجد به. في مقلتيه قلق ثعلب وقع في فخّ.

قال الوزير:

ـ سعادته قرّر توجيه حملة لتحرير طرابلس!

ساد صمت قبل أن يردّد الباشا:

ـ سعادته قرّر توجيه حملة لتحرير طرابلس..

ـ وقد كلّفني للقيام بهذه المهمّة بعد الانتهاء من تحرير جربة!

ردّد الباشا وراءه كأنه تلميذ يتلقّى درساً من أستاذه:

ـ كلّفكم بهذه المهمّة بعد الانتهاء من تحرير جربة. .

واصل الوزير:

ـ وقد مثلتُ بين أيديكم طلباً لعونكم في إنجاح الحملة.

تدخّل سيدي يوسف فجأة:

ـ سعادة الباي يريدكم أن تتنازلوا عن العرش للبك قبل بدء الحملة!

هجم سكوت مزموم تبادل فيه الجميع النظرات. الباشا وحده لم ينظر في عين أحد. قال:

ـ أظنّ أني تنازلت عن العرش منذ سنوات. .

صحّح له سيدي يوسف:

ـ ذلك كان إنزال عن العرش يا أبتي ولم يكن تنازلاً عن العرش!

ابتسم الباشا. ابتسم الوزير أيضاً. رمق الباشا سيدي يوسف قبل أن يقول:

ـ ما رأيك أنت؟

ابتسم له سيدي يوسف. أومأ له برأسه علامة الموافقة. قال الباشا:

ـ يسعدني أن تنقل للباي امتناني لنجدته أهل طرابلس، كما يسعدني أن ألبّي نداءه في التنازل عن العرش.

أوضح الوزير:

ـ سعادة الباي يرى أن التنازل عن العرش للبك في صالح الحملة لأن من شأنه أن يستقطب حولنا القبائل.

تمتم الباشا:

ـ تستطيع أن تنقل لسعادته سعادتي بالتنازل عن عرشٍ لم يعد عرشي منذ أُنزلت عنه في الزمن البعيد!

تململ الوزير. رمق البك الذي جلس قبالته بجوار الباشا قبل أن يقول:

ـ الحقّ أن سعادته أبلغني رسالة أخرى.

تبادل الباشا مع سيدي يوسف نظرة خاطفة. ابتسم له سيدي يوسف وأومأ له بهزّة من رأسه. قال الوزير:

ـ سعادة الباي يأمل أن ترافقنا في الحملة على طرابلس!

أفلتت من الباشا ضحكة. سأل دون أن ينظر في عين أحد:

ـ إذا كنتُ قد تنازلت لكم عن العرش، فما حاجتكم بي؟

أجاب الوزير بتصبّر إنسانٍ يحاور طفلاً أو مجنوناً:

ـ ذلك ضروري لإنجاح الحملة.

اختلس إلى البك نظرة قبل أن يضيف:

ـ أهل طرابلس لن يصدّقوا أنكم دفنتم خلافاتكم القديمة في ربوع تونس إلاّ إذا اجتزتم حدود مملكة أجدادكم ثلاثتكم!

داعب الباشا عكّازه. مرّر أصابعه في الجوف الذي خلّفته الحيّة الزائلة. قال:

ـ قلْ لصديقي الباي أنّي سأكون في غاية السعادة لو مكّنني من دخول معبودتي طرابلس شريطة أن يجد لي في ربوعها قبراً يجاور البحر!

طأطأ الأخوان أرضاً. أمّا الوزير فاحتجّ:

ـ صديقك الباي كلّفني أن أعيدك لتقيم في قصر لا في قبر، وما التنازل عن العرش سوى حيلة اقتضتها ظروف الحملة!

ابتسم الباشا باستخفاف. تشبّث بعكّازه بكلتا يديه. قال:

ـ هل رأيت هذا العكّاز؟ هل ترى العلامة المحفورة في ساق العكّاز؟ هذا الأثر كان محشوّاً بالجوهر. هذا الجوهر هو الذي أفسد على العكّاز الأمر ففقد هويّته كعكّاز لأن الناس في الطرقات لا يرونه في يدي عكّازاً بل كنزاً. فهل يدري جناب الوزير ما معنى أن تحمل في يدك كنزاً؟ هذا يماثل أن تحمل في عبّك أفعى. بلى، بلى، أفعى! ألا يقال أن الحيّة حارسة كنوز؟ لهذا السبب طردتُ الجوهر من العكّاز. طهّرتُ العكّاز من الخطر. طهرتُ العكّاز من الكنز، فتحررت من الخطر. الحيّة في العكّاز الآن تحرسني حقّاً بعد أن كنت أحرسها عندما كانت محشوّة جوهراً. الحيّة الآن، بدون كنز، تميمة حقّاً، والعكّاز عاد عكّازاً. هل تفهمني يا جناب الوزير؟ ما يقال عن العكّاز المحشوّ بالجوهر يقال عن العروش!

تطلّع إليه الوزير طويلاً في ذلك اليوم قبل أن يتمتم:

ـ أفهمك يا سعادة الباشا. أفهمك تماماً!

## 21

جزيرة جربة. في اليوم الثامن والخمسين للاحتلال من عام 1794م.

كان كاره مصطفى منشغلاً بتعذيب أحد أشقياء الأهالي الذين أخفوا عنه كنوزهم عندما أقبل عليه أحد الأعوان حاملاً نبأ زحف جيوش الوزير مصطفى خوجة على الجزيرة.

كان القرصان قد تراجع عن وعد الأمان الذي منحه للأهالي عقب احتلال الجزيرة فاستباحها لجنوده فجأة، ونهب ثروات الأهالي، واغتصب النساء، وقرع أرجل الرجال بالفلقة. ولم تسلم من نهم بطانته حتّى أوقاف المساجد ودور العبادة وأضرحة الأولياء. ويقال أن سبب الحنث بالوعد كان استجابةً لرؤيا رآها القرصان بعد البلبلة التي أصابته بها نبوءة عجوز البربر (الذي لم يكن في حقيقة الأمر سوى كاهن معبد الربّة «تانيت») تقول أن الحيلة الوحيدة لاجتناب المذبحة المسلّطة على رقبته هو ارتكاب مذبحة من جنود العدوّ عملاً بالوصية التي تؤكّد أن ما يهمّ الخفاء إذا تنبّأ بالدّم هو أن يرتوي بالدّم، لا هويّة الدّم. وفي رواية أخرى أن حملته الجنونية لم تكن بسبب رؤيا، ولكنها كانت تأويلاً من قبل أحد الأعوان للنبوءة الأولى المبثوثة في كلمة «أغراس» المشئومة؛ لأن القرصان بعدها أصيب بنوبة مسّ فأمر بجلب أكوام الحطب التي حشرها في البرج ثم أشعل فيها النار. ألقى في ذلك الموقد الرهيب مئات الأبرياء الذين أتهمهم بالتواطؤ سرّاً مع خصمه بن عيّاد عامل الباي على الجزيرة، ثم لقّن النذير بوصيّة طاف بها الأحياء تقول: «من لم يشترِ نفسه بقربان من حطام الدنيا، صارت نفسه قرباناً بدل حطام الدنيا!». ولكن أهل الجزيرة بخلوا بأنفسهم في سبيل حطام الدنيا إمّا

لأنهم لا يملكون هذا الحطام بالفعل، وإمّا نكايةً بسفّاح الغزاة، فما كان من القرصان إلاّ أن أمر بجرّهم إلى موقد جهنّم أفواجاً ليطعم بهم النّار.

بعد يومين تذكّر عجوز النحس (كما أطلق على كاهن الأمّة الفانية) فأمر بإحضاره على الفور. بَتَر إبهامه الذي أشار به إلى نحره عندما سأله عن معنى كلمة «أغراس»، ثم سمل عينيه، وجَدَعَ أنفه، وقطع أذنيه قبل أن يلقي بجسده إلى جوف ناره الموقدة. وقد أجمع كل من حضر ذلك الطقس الوثني أن الشيخ أخرج لجلاّده لسانه ساخراً من أفعاله الوحشية فاستشاط القرصان غضباً وأمر بإخراجه من النار وقطع لسانه. سارع الزبانية بإخراج الشبح من النار وقطعوا لسانه ثم أعادوه إلى الجحيم من جديد. ولكن الشبح أخرج لجلاّده لساناً أطول عضلةً من المرّة السابقة فأمر القرصان بإخراجه من الأتون مرّة أخرى..

اجتثّ الزبانية اللسان من أصله هذه المرّة، ولكن اللسان تمادى أكثر مما مضى فازداد طولاً ما أن أطعموه لسان النار.

هذا اللسان هو ما لم يستطع كاره مصطفى أن ينساه طوال الأيام الخمسة والخمسين التي تلت تلك المذبحة. واليوم عندما جاءوه بنبأ زحف الجيش التونسي على الجزيرة لا يعرف لماذا استعاد، أوّل ما استعاد، مشهد لسان ذلك العجوز الشقيّ الذي يزداد طولاً بالاستئصال حتّى كاد يفقده صوابه وهو الذي لم يؤمن يوماً بالمعجزات برغم إيمانه العميق بالنبوءات.

أمر الأعوان بإعداد العدّة للفرار في ذلك اليوم، ولكن الأعوان ما لبثوا أن عادوا بنبأ يقول أن المراكب المرابطة على الشطوط استولى عليها العدوّ، والجزيرة محاصرة بسفن العاهل التونسي!

لم يصدّق كاره مصطفى النبأ.

لم يصدّق أن يقبض عليه الأعداء كالفأرة في اليابسة على بُعْد أشبارٍ من حميمه البحر. كان يعرف أنه سينجو بجلده لو بلغ البحر. سينجو حتماً حتّى بدون سفينة. سينجو سباحةً أو بأعجوبة مثيلة للسباحة. ذلك أن البحر هو يابسته. البحر هو برّه الذي لم يخذله يوماً. ولكن المشكلة ليست في النجاة بالنفس، بل في كيفية إنقاذ الأسلاب. المشكلة في النجاة بالغنيمة. المشكلة دائماً في كيفية إنقاذ الغنائم!

أمر بإحضار الكنوز. ثم بحث طويلاً عن مكانٍ يصلح مخبأ للكنوز. حفر لها المطامير ودفنها بعيداً. دفنها لا لينالها، ولكن ليفقدها. لأن قدر الكنوز أن تُنال بدماء القرابين، ثمّ تُخفى بعيداً لتستعيدها الأرض. تستعيدها الأرض لنفقدها إلى الأبد.

بعد إخفاء الكنوز تذكّر كاره مصطفى الأثر. قرّر أن يخفي الأثر فتناول مسدّسه في ذلك اليوم وأفرغه في رؤوس جنوده الذين أشرفوا على إخفاء الكنوز. ثمّ. . قرّر بعد ذلك أن يبحث عن طريقة للفرار. لم يتخذ إجراءً واحداً للدفاع عن الجزيرة، ولم يصدر أمراً واحداً لإنقاذ جنوده، ولكنه تسلّل خفيةً حتّى بلغ الشاطىء. هناك فقط اكتشف أن الأوان قد فات، لأن جيش الوزير كان قد اكتسح الجزيرة كلّها، والمهلة التي وهبتها له الأقدار للنجاة أضاعها في البحث عن مخبأ للكنوز.

وجد القرصان القديم نفسه في طوق من مئات، بل آلاف، الجنود المدججين بالسلاح. استسلم القرصان للجند فجاءوا به إلى الوزير أسيراً. هناك كانت تنتظره مفاجأة أخرى: إلى جانب الوزير وجد ذلك الشبح الكريه الذي سمل عينيه، وقطع أذنيه، واستلّ لسانه مرّات قبل أن يلقي به في النار. وما أن رآه حتّى قرأ عليه صحيفة الإتّهام. انتهى من القراءة فأضاف يخاطب الوزير: «لا أطلب يا سيّدنا الوزير إلا أن تنزلوا به القصاص الذي استنزله بي!». التفت إليه الوزير قبل أن يأمر: «أسملوا عينيه، واقطعوا أذنيه، وأجدعوا أنفه، واستلّوا لسانه، ثم ارموا به في نار برج الأجيال المسمّى في رطانات الأمم الأولى «أغراس».

في مدخل البرج شهد كاره مصطفى المجزرة التي تحدّثت عنها نبوءة الكاهن. المكان كلّه تحوّل إلى مسلخ لجنوده، على الأرض سالت أنهار الدّم. في الموقد الرهيب الذي أشعل فتيله يوماً احترقت جثث المئات من جنده. في الركن الخفيّ المجاور للمذبح رأى شبح الكاهن يتطلّع إليه ببسمة خبيثة ويخرج له لسانه: لسان طويل جداً، بلونٍ أحمر قانٍ، مفلطح في طرفه الأماميّ، يتلوّى يمنةً ويسرةً، يرتفع إلى الأعلى ثمّ يهوي إلى الأسفل، كأنّه جرم حيّةٍ يتدلّى من فم ذلك الهيكل الخرافيّ.

# 22

حقول جنزور (غرب طرابلس). 16 يناير 1795م.

في هذا اليوم أقام مصطفى خوجة معسكره في غابات النخيل بجنزور وطفق ينتظر وصول الباشا الذي نزل ميناء زوارة بعد أن وصلها على متن سفينة حربيّة تونسية في اليوم نفسه، فيما احتدم جدل بين الأميرين بسبب هذا الانتظار هدّد وحدة الجيش الملفّق من القوّة التونسية وفرسان القبائل الليبيّة المختلفة التي انضمّت لهذه القوّة تلبيةً لنداء آل القرمانلي إلى جانب بقايا جيش سيدي يوسف الذي تصرّم عقب الهزيمة التي مني بها عند أسوار طرابلس. ففي حين رأى البك ضرورة مواصلة المسير دون توقّف لمباغتة العدوّ عند حصون المدينة، أصرّ سيدي يوسف على التوقّف بالجيش عند الأطراف لالتقاط الأنفاس وانتظار وصول الباشا. قال البك:

ـ أريد أن أرى ذلك اللّوطي برغل مصلوباً على باب زنّاتة اليوم قبل الغد!

تضاحك سيدي يوسف:

ـ الأماني لم تصلح يوماً وقوداً لحرب. لو سمعك الجند لأيقنوا بأنك لم تذق طعماً لحرب!

قال البك:

ـ بل دخلت معك في حرب ولم أخسرها!

ابتسم سيدي يوسف باستخفاف. تمتم:

ـ ولكنّك لم تكسبها أيضاً!

ـ لم أكسبها لأنّي ظننتُ دائماً أن خسارة بعض الحروب نصر!

استنكر سيدي يوسف:

ـ خسارة بعض الحروب نصر؟ أيّة حروب تعني يا ترى؟

أجاب البك بفتور:

ـ الحروب الأهليّة!

ـ لا تحاول أن تقنعني بأنّك لم ترد أن تكسب تلك الحرب إكراماً لي!

سكت البك لحظة. اكتأب قليلاً. قال:

ـ شرف لي مجرّد ألاّ أكسب حرباً كتلك!

اختلس نحوه سيدي يوسف نظرة ماكرة. قال:

ـ تحاول أن تبدي حِلماً لم أعرفه فيك يوماً، والدليل لهفتك في الجلوس على العرش!

تعجّب البك:

ـ لهفتي في الجلوس على العرش؟

أجاب سيدي يوسف ببرود:

ـ لهفتك في المبيت عند أسوار طرابلس ما هي إلاّ لهفة للوصول إلى العرش!

استنكر البك:

ـ لماذا لا تقول أن لهفتي للوصول إلى طرابلس هي لهفة لتأدية الواجب، بدل القول بأنها رغبة في انتزاع العرش؟

ـ أقول هذا لأني أعلم الناس بسريرتك!

رمقه البك بانفعال. تمتم:

ـ أنت أجهل الناس بسريرتي!

مضى سيدي يوسف يبتسم بخبث. قال:

ـ وبرغم علمي بسريرتك إلاّ أنّي لم أتردّد في أن أتنازل لك عن هذا العرش!

التفت إليه البك بدهشة:

ـ أنت الذي تنازل لي عن العرش، أم ناموس المُلك هو الذي تنازل لي عن العرش؟

ضحك سيدي يوسف:

ـ أنت تدري أن الباشا لم يكن ليتنازل لك عن العرش بلا موافقة منّي!

ـ تلك خطيئة الباشا، لا مشيئة الناموس.

كتم سيدي يوسف ضحكة. تسكّع خطوات في دغل النخيل. تطلّع إلى شمس الظهيرة. قال:

ـ لا يليق أن نتجادل حول العرش قبل الفوز بالعرش!

وافقه البك:

ـ صدقت. يجب ألاّ ننسى أيضاً أن نزاعنا حول العرش هو الذي أفقدنا العرش منذ سنوات!

ـ والآن أريدك أن تحسم أمرك: نمضي أم نبيت؟

تمشّى البك أيضاً. توقّف فجأة. قال:

ـ لا أطيق أن أبيت على بُعد رمية حجر من طرابلس!

سكت سيدي يوسف. أعلن:

ـ لا أوافق!

أضاف بعد لحظة:

ـ لا بدّ من انتظار الباشا.

تقدّم البك من شقيقه خطوات. وقف في مواجهته. قال بيقين:

ـ أنت تنسى أنّي ملك المملكة الطرابلسية يا يوسف!

أطلق سيدي يوسف ضحكة سخرية. قال بوعيد:

ـ وأنت تنسى أنّك ملك بلا مُلك، لأن شعبك الوحيد الذي تستطيع أن تدّعي امتلاكه محصور في قبضة اللّوطي علي برغل. أمّا الجيش الذي تريد أن تستردّ به رعيّتك فلا سلطان لك عليه!

استنكر البك:

ـ لا سلطان لي على الجيش؟

كشّر سيدي يوسف في وجهه:

ـ لا سلطان لك على الجيش لأن ثلثه جيش الباي حمّودة بقيادة وزيره مصطفى خوجه، أما الثلثان الباقيان فهو فرسان القبائل الذين لم يأتمروا يوماً إلاّ بأمري!

أقبل عليهما مصطفى خوجة. قال وهو يقف في مواجهتهما:

ـ لا يبدو لي أنكما توصلتما إلى اتّفاق!

التفت إليه سيدي يوسف:

- مع البك لم أتّفق يوماً، ولا يبدو أنّي سأتّفق معه في أيّ يوم.

تدخّل الوزير:

- لو سمعكما الجنود لانفضّوا من حولكما! هل نسيتما العهد بدفن خلافاتكما؟

التفت إلى البك قائلاً:

- يجب أن نعترف بأن حضور الباشا بيننا ضمان لنجاح الحملة.

قال البك:

- يجب أن نعترف أيضاً أن المبيت على بعْد شبرين من البُغْيَة ليس من الحكمة في شيء!

انتصب بين ثلاثتهم صمت. قال الوزير:

- إذا أخفقت الحُجج فلا مفرّ من اللجوء إلى ديار القرعة!

تبادل البك مع سيدي يوسف نظرة خاطفة. في مقلة سيدي يوسف تألّقت بسمة لئيمة. قال البك:

- القرعة قاضٍ لم ينصفني يوماً!

هأهأ سيدي يوسف بضحكة. قال الوزير:

- لإقرار العدالة لا مفرّ من الاحتكام إلى ساحة القضاء حتّى لو كان هذا القضاء ظالماً!

دبّ بين جذوع النخيل بحثاً عن أعواد الحطب. عاد بعد قليل ليقول لسيدي يوسف:

ـ تستطيع أن تحتجب!

ذهب سيدي يوسف ليتغيّب في الأحراش دون أن تفارق بسمة اللؤم شفتيه، في حين وضع الوزير عودين على كفّه في مواجهة البك. أشار إلى العود الأطول قائلاً:

ـ هذا لك!

ثم أشار إلى العود الأقصر ساقاً قائلاً:

ـ هذا عليك!

في وجه الوزير تبدّت سيماء اللهفة إلى اللّهو فرآه البك في هذه اللحظة طفلاً حتّى أنه استشعر نحوه شفقة غامضة؛ شفقة ممزوجة بتأنيب الضمير لأنّ عناده الطفولي كان السبب في حبك فصول هذه الملهاة.

أقبل سيدي يوسف ببسمته الشقيّة فتلقّاه الوزير بالعودين على راحة يده. حدّق سيدي يوسف في العودين كأنه يقرأ فيهما نبوءة، ثمّ شيّع بصره إلى الوزير، ثم إلى البك. تبادل مع البك نظرة طويلة قبل أن يهوي بيده ليتناول العود الأقصر قامة!

ساد صمت قصير. تبادل الوزير مع البك نظرة عابرة قبل أن يلتفت ليأمر أحد الأعوان:

ـ انفخوا في الأبواق استعداداً للمبيت!

## 23

استيقظ إمام الزبانية في أحد الأيام فوجد أنّه قد فقد ساعده الأيمن كاره مصطفى وفَقَد مع السّاعد نصف جنده. ثم استيقظ في يومٍ آخر فاكتشف أنه فقد زوارة وصبراتة وجنزور والمنشيّة والساحل وحتّى تاجوراء. حدث ذلك الكابوس فجأة، وفقد كلّ ما فقد بدون قتال أيضاً. قبل «مذبحة البرج المشئوم» (كما أُطلق على هزيمة جربة) تلقّى وصيّة غامضة من وليّ نعمته القبودان باشا يقول له فيها: «لقد آمنت أن القرصان إذا وُهب سلطاناً في البرّ صار قاطع طريق. أنت خذلتني!».

احتار طويلاً في فكّ طلسم هذه الأحجية، ولكن زمزوم أخبره أن وضع القبودان باشا مهدّد بعد أن فقد ثقة الباب العالي.

ليلتها لم ينم. وسوسَ قائلاً أن القبودان باشا إذا فقد رضى السلطان فلا يعقل أن يكون هو السبب، لأن الولايات الأفريقية، بل وكلّ إيّالات الإمبراطورية، لم تعد تشغل بال الباب العالي منذ زمن بعيد. فإذا حدث وطافت بالذاكرة مرّةً فلن يكون ذلك إلاّ لأمرٍ يتعلّق بجلب الأموال لخزينة الأستانة الخاوية دوماً إمّا بسبب ترف البلاط، وإمّا بسبب نهب الباشوات وفساد الحاشية. وهو أكثر من يدرك أن الباب العالي لم يعد باباً عالياً منذ زمن بعيد جدّاً، كما أن الأستانة لم تعد أستانة، وإمبراطورية بني عثمان لم تعد إمبراطوريةً، فكيف لا تفقد الإيّالات هويّتها كإيّالات، وكيف لا تتنكّر الضواحي لسليقتها كضواحي، إذا كان المركز قد تزحزح عن المركز وتنكّر لطبيعته كمحور؟

لقد راهن على الوضع البائس للإمبراطورية، كما راهن عليه الكثيرون، فكسب الرهان كما كسبه الكثيرون. ولكنه ارتكب أخطاء لأنه استهان بالتفاصيل. أعمته نشوة النصر عن دور الدسائس في سياسة الأستانة، وخطورة المكائد في مزاج الباب العالي، فاسترخى. استسلم لأرجوحة الغلبة السهلة التي حقّقها بمشيئة الحظّ، ونسي أن ما يأتي به الحظّ يذهب به الحظّ. نسي أن الاعتماد على أولياء النعمة في بناء صروح السعادة خطيئة لا يغتفرها القدر، لأن مصير القبودان باشا رهين البهتان، لأن وشاية دنيئة، أو وشوشة تافهة في أذن صاحب الأستانة تكفي لا لزعزعته من منصبه فحسب، ولكن لخنقه بيد أحد عبيده، أو دسّ السّموم في طعامه بيد خادمته، فتكون النازلة لا على القبودان وحده، ولكن على رأس عائلته التي ينتمي إليها هو، وعلى رأس أعوانه وخلاّنه، وكلّ من مَتَّ إليه بصلة.

أمّا إذا قطع الحظّ شوطاً أبعد في تدليله فأفسد مكائد الأعداء ضدّ وليّ نعمته، فإنّه لا بدّ أن يخذله يوماً من طريق آخر لم يحسب له حساباً. كأن يبعث برسول خفيّ في أحد الأيام ليدسّ السمّ في طعام صاحب الأستانة نفسه فتقوم القيامة: يأتي إلى العرش وليّ أمر جديد يبدأ عهده بقطع رؤوس أعوان سلفه. فإن تدخّل حليفه الحظّ هنا أيضاً ودفع عن وليّ نعمته هذه النقمة، فإن هذا الحظّ لا بدّ أن يملّ هذه اللعبة في النهاية فيتخلّى عن وليّ النعمة بطرده من منصبه مقابل أن يهبه البقاء على قيد الحياة. يبقى وليّ النعمة على قيد الحياة بفعل الحظّ، ولكنه لا بدّ أن يدفع (مقابل هذه الهبة النفيسة) منصبه قرباناً!

فكيف غاب عنه هذا الإلهام؟ كيف غابت عنه فصول هذه اللعبة الخالدة التي عاشتها كل الأمكنة عبر كل الأزمنة؟

بعدها بيومين بلغه نبأ إقصاء القبودان من منصبه فأيقن أن الحظّ قد قرّر أن يقلب له ظهر المجنّ بالفعل!

## 24

كان الجيش قد هبط على حقول الضواحي فاكتسحها كأنه أفواج الجراد. ثمّ تدفّق عبر الساحل ليبتلع ما وراء تاجوراء: أكثر من ثلاثين ألف جندي من المشاة، وآلاف أخرى من الفرسان، وعدد من المدافع يكفي لتحويل المدينة إلى هباء في يوم، فأيّ معجزة استطاعت أن تحشد هذه القوّة العمياء؟ وكيف له أن يصمد في وجهها بجيش ملفّق من المرتزقة لا يتعدّى الألف جندي؟

بالأمس استطاع أن يشحن حمولة سفينتين من كنوز هذه الأرض التي لا تنفذ من الكنوز، برغم القحط والطاعون والفقر والحروب الأهلية، كأنّ قبائل الجنّ هي التي تمدّها بالخيرات خِفْيَةً بتحويل رمال صحاريها إلى تبرٍ إبريز حتّى أنه لم يقرع رِجْل أيّ رَجُل من أهلها بالفلقة إلاّ واعترف بامتلاك نصيباً من هذا الكنز. وهو إذا تحسّر يوماً على فقدان شيء في هذه الدنيا، فلن يتحسّر إلاّ على كنوز طرابلس ونساء تاجوراء حتّى أنّه لم يصدّق أن الحظّ قد تخلّى عنه نهائياً إلاّ في الساعة التي أبلغه فيها زمزوم بسقوط تاجوراء، فما كان منه إلاّ أن انهار على العرش يأساً ليئنّ بلا وعيّ: «هذا نذير سوء! حسان تاجوراء! ليتني

تزوّدتُ بنصيبي من حسان تاجوراء كما تزوّدت بنصيبي من كنوز طرابلس!».

ولكن تاجوراء سقطت في يد العدوّ بحسانها ولم يبقَ له إلاّ أن ينجو بما تبقّى من الكنوز. استدعى زمزوم وأمره بشحن السفينة الثالثة. ولكن زمزوم أفاد بعدم وجود سفينة ثالثة. لم يصدّق ما سمع في البداية فما كان من القرصان زمزوم إلاّ أن كرّر الجواب بوضوح. اكتشف أن حرصه على النجاة بالكنوز قد أنساه النجاة بنفسه. أمر ربّان السفينتين بالانطلاق نحو الإسكندرية، ونسي أن يستبقي إحدى السفن لتقلّه هو إلى الإسكندرية. إذْ ما جدوى نجاة الكنوز إذا لم ينجُ صاحب الكنوز؟

صاح في وجه زمزوم:

ـ هل تريدني أن أعبر البحر سباحةً يا شقيّ؟

لحظتها تذكّر القرصان:

ـ في الميناء سفينة تجارية ترفع العلم الفرنسي يا مولاي!

حدّق فيه الإمام بحدقتين جاحظتين قبل أن يأمر:

ـ اعملوا على الاستيلاء عليها في الحال!

تردّد زمزوم:

ـ ولكنها ترفع العلم الفرنسي يا مولاي، كما أن ربّانها فرنسي الجنسية أيضاً!

زأر في وجه القرصان:

ـ وماذا تعني الأعلام في زمن الحرب يا غبيّ؟

أضاف زمزوم:

- لقد أقبلت من الأستانة لإنزال بعض الأكابر والتجّار في طريقها إلى مرسيليا.

- لا يهمّ اليوم من أين تجيء السفن، ولا إلى أين تذهب، ولا أيّ راية ترفع. كل سفينة في زمن الحرب غنيمة!

تمتم زمزوم:

- ولكن ماذا نفعل يا مولاي فيما إذا رفض الربّان الفرنسي؟

زمجر الإمام:

- اقتله!

تردّد زمزوم قبل أن يسأل:

- ماذا نفعل بالركّاب يا مولاي؟

- هل نسيت شرع البحر يا زمزوم: لمحو الأثر لا بدّ من القضاء على الكلّ؟!

خرج زمزوم فحمد إمام الزبانية الله لا على مطيّة النجاة التي حملتها له رياح الأقدار، ولكن لأن جيش الجراد لم يستولِ على الساحل. فرّك يديه وقرع جرساً. دخل الحاجب فأمر باستدعاء العلج الجورجي «دزي». دخل «دزي» فتطلّع إليه طويلاً قبل أن يقول:

- بماذا تكفّر الآن عن خطيئتك بقصف جنودي بدل جنود العدوّ؟

احتقن وجه العلج بالشحوب فأضاف إمام الزبانية:

- هل ظننتني عليّ القرمانلي الذي أمرك يوماً بقصف سفنه بدل قصف مواقع العدوّ خوفاً على قلبه من الانكسار كما قيل لي؟

طأطأ العلج، وعندما رفع رأسه فوجىء بالإمام يشهر في وجهه فوهة مسدّس. كانت مصوّبة إلى جبينه بالتحديد: سوداء، خفيّة، خاوية. حدّق فيها «دزي» طويلاً فزعزعه فيها الخواء. لقد تفقّد فوهات المدافع العمر كلّه، ولكنه لم يكتشف فيها هذا الخواء الموجع الذي رآه الآن في فوهة صاحب القلعة. تأمّلها بفضول. ثم ابتسم بسمة رآها إمام الزبانية غريبة. بسمة طفولية، وربّما بسمة بلهاء، قبل أن يضغط على الزناد لتنفجر الفوهة.

انفجرت الفوهة فهوى الجسد أرضاً. ولكن صاحب القلعة لم يكتشف إلاّ في تلك اللحظة أن البسمة لم تكن بسمة طفولة، ولا بلاهة، ولكنّها كانت بسمة.. احتقار!

## 25

فكّر في حقيقة الوليّ المسربل بالبياض منذ كارثة جربة بلا جدوى. أمر بالبحث عنه في كلّ مكان ما أن تلقّى نبأ المذبحة، ولكن عبثاً. أيقن أن العابر الغامض لم يكن إلاّ رسول الغيوب التي أرادت به شرّاً. جلس في جوف العرش يائساً. أمر بإحضار أبناء القبائل الذين بعث بهم زعماء الدواخل كرهائن. قبل مثول الرهائن بين يديه جاء زمزوم. قال أن الاستيلاء على السفينة الفرنسية قد تحقّق بعد التخلّص من ركّابها جميعاً بإغراقهم في مياه البحر. ولكن الإمام سأل عن مصير الربّان الفرنسي فطأطأ القرصان قبل أن يجيب:

ـ الربّان لم يُعثر له على أثر!

فسأل صاحب القلعة مغمض العينين:

ـ ما معنى ألاّ يُعثر له على أثر؟

لم يجد القرصان مفرّاً من الخوض في تفاصيل فرار الربّان:

ـ الربّان فرّ يا مولانا بسبب استهتار الجند!

لم يعلّق الإمام فأضاف زمزوم:

ـ لقد ثرثر البلهاء بالمصير الذي ينتظره ظنّاً منهم أن الوغد يجهل رطانات الأناضول، ولكنه سمعهم وفهم نواياهم ففرّ بالقفز في المياه!

ـ هل تريد أن تقول أن اللئيم فرّ سباحةً؟

ـ يقيناً يا مولانا!

ـ هذه خطيئة لا تغتفر!

سكت لحظة قبل أن يأمر:

ـ جهّزوا السفينة بما يلزم، ولا تنسوا أن تأتوني بأبناء النصارى الذين قاموا على أمري طوال مقامي في هذا القصر!

تبادل مع قرصانه نظرة ذات معنى. أضاف:

ـ أريد أن أعبّر لهم عن امتناني على حسن الضيافة!

في مقلة القرصان تألّق إيماء خفيّ قبل أن يركع وينصرف.

ما أن غاب زمزوم حتّى استقبل صاحب الألقاب وفد الرهائن.

كانوا شباباً تتراوح أعمارهم بين الخمسة عشر والعشرين عاماً، يرسفون في أغلالٍ حديدية فظيعة، وجوههم ممهورة بأختام الموت، أبدانهم هياكل ملفّقة من عظام تؤهلهم للفوز بلقب «أشباح»!

تطلّع السفّاح إلى ضحاياه طويلاً قبل أن يأمر الزبانية ببدء الشعائر: هجم عليهم الأبالسة وخنقوهم بالأغلال الحديدية نفسها التي قُيّدوا بها، فيما كان الجلاّد يتلذّذ بمشهد المذبحة دامع العينين.

بعد الانتهاء من أبناء القبائل جاء دور أبناء النصارى. أدخل الأحراس أبناء الجالية النصرانية التي خدمت في القصر طويلاً. دخلوا في طابور طويل يتقدّمهم زمزوم: رجال ونساء وحتّى أطفال. تنحّى زمزوم جانباً فاصطفّ طابور الأمم النصرانية في مواجهة صاحب الألقاب. وراء طابور الأروام اصطفّ طابور الزبانية المدججين بمختلف الأسلحة: البنادق والغدّارات والخناجر والسيوف.

ساد صمت قبل أن يتكلّم صاحب السلطان:

ـ جمعتكم اليوم لأعبّر لكم عن عميق امتناني جزاء كلّ ما فعلتموه من أجلي طوال العامين الماضيين. ولكن.. لحظة الوداع لا بدّ أن تأتي، والواجب يقضي أن نحتمل الفراق كما استمتعنا باللقاء، لأن الوداع هو المكوس الذي يجب أن ندفعه مقابل متعة اللقاء!

هرش لحيته المربّعة الأضلاع. تفحصهم بعينيه الدامعتين فرداً فرداً. في بداية الصف، من الجهة اليمنى، وقف علج مارد استخدمه كثيراً في مغامراته الغرامية. لقد ألقى في أحضانه ببنات الأكابر، وقاد حملات على تاجوراء فاختطف له من هناك أجمل الحسان اللائي لم يعرف لجمالهنّ مثيلاً لا في نساء الأناضول، ولا في بلدان النصارى، ولا بين نساء الجزائر.

بعد العلج وقفت امرأة نصرانيّة أيقظت فيه شيطان الشهوة ما أن وقع بصره عليها لا بسبب فتنتها فحسب، ولكن لبراعتها في استخدام جسدها. اعتادت الجنيّة أن تتسلل إلى فراشه في آخر كل ليلة لتبعث فيه الحياة حتى وهو عظم رميم بمواهبها الجنونيّة. وبلغت بها الجرأة في إحدى الليالي أن شنّت على مخدعه غارة برغم وجود امرأة أخرى في المخدع فنالته رغم أنفه ورغم أنف المرأة الأخرى!

بعد المرأة وقف غلام. تطلّع إليه طويلاً ففاض قلبه لهذا الصبي بأصدق آيات الامتنان، لأنه لا ينسى أن هذا الغلام كثيراً ما وهبه تلك اللذّات التي عجزت حتّى أجمل الحسان عن أن يهبنها له!

طاف الصفّ طويلاً. يبتسم تارةً ويكتئب أخرى. يغمض عينيه ويفتحهما ليسفح الدموع، إلى أن قال في النهاية:

ـ سأغادر هذا القصر بعد قليل إلى المجهول، فرأيت أن تغادروا أنتم أيضاً إلى المجهول، لأن شريعة الملوك هي التي قضت بأن يلقى خادم الملك المصير نفسه الذي ألحقته الأقدار بصاحب المُلْك!

سكت لحظة. هرش لحيته المربّعة. أضاف:

ـ سأسافر بعد قليل، فرأيت أن تلتحقوا بركبي، لأن السفر ما هو إلاّ موت، وما الموت إلا رحلة سفر!

أومأ للأحراس دامع العينين فاستلّ الزبانية أسلحتهم (سيوف وخناجر وبنادق وغدّارات) ليبدأ فصل آخر من فصول تلك المذبحة الرهيبة التي خيّمت على طرابلس طويلاً.

## 26

فرّ إمام الزبانية ليلاً، في حدود الساعة الثالثة من صباح السابع عشر من يناير للعام 1795م بعد أن قضى على ما تبقّى من الأعيان والأشياخ والأعوان كان آخرهم ساعده الأيمن الملقّب باسم زمزوم. وما أن علم الجنود في اليوم التالي باختفاء وليّ أمرهم حتّى تفرّق شملهم: استسلم البعض، والتجأ البعض الآخر إلى القنصليات الأجنبيّة، في حين غصّت أضرحة الأولياء بالبقيّة الباقية من هؤلاء الزبانية الذين أذاقوا أهل المدينة الويل طوال عامين كاملين.

في القلعة فوجىء آل القرمانلي بالتخريب الذي لحق بالقصر حتّى أنهم لم يجدوا كرسياً واحداً يجلسون عليه فاضطرّوا للاستنجاد بالقناصل الأجانب. من القصر اختفى حتّى كرسيّ العرش ممّا شجّع علي باشا بأن يعلّق ساخراً:

ـ من حسن الحظّ أن يذهب الغاصب بالعرش المغتصب. اليوم فقط تستطيعون يا أبنائي أن تبتنوا لأنفسكم عرشاً جديداً!

كان الباشا يتسكّع في ردهات القصر مغمغماً لنفسه كلاماً مبهماً، يتفقّد الأركان والجدران والأجنحة الخاوية متوكئاً على عكّازه ويئنّ أنيناً مكتوماً.

تابع سيدي يوسف الأب باسماً، ولكن شقيقه كان الإنسان الوحيد الذي اكتأب لأنه قرأ في غياب كرسيّ العرش نبوءة سوء حتّى أن الكآبة لم تفارقه عندما اجتمعوا مع الوزير خوجة وتمّ الاتفاق على اتخاذ

طائفة من القرارات كان أوّلها إعلان تنازل عليّ باشا عن العرش لابنه أحمد بك.

طاف النذير شوارع المدينة مردّداً النداء بتولّي أحمد بك العرش، في حين أقبل على صحبان القلعة الجدد وفد من فلول الجيش التركي المهزوم يتوسّل الرحمة، فما كان من الوزير خوجة إلاّ أن طلب رأي الباشا. عبث الباشا بأحافير عكّازه العتيد قبل أن يغمغم:

ـ لم يكن لي يوماً رأي يا جناب الوزير!

تبادل الوزير مع الأخوين نظرة قبل أن يقول:

ـ لا نطلب رأي سعادة الباشا تقديراً لشخصه فحسب، ولكن إكباراً لحكمته أيضاً.

حدجه الباشا بريبة ثم عاد ينحني على عكّازه القديم. تمتم:

ـ لقد أردتُ أن أقول أن رأيي لم يُسمع حتى يوم كنت عاهلاً على هذه البلاد، فكيف يُسمع رأيي اليوم بعد أن تنازلت عن العرش؟

تنزّل صمت. انتهز الباشا الفرصة فأضاف:

ـ لو كان رأيي مسموعاً في هذه البلاد لجنّب الناس أنفسهم العار الذي لحق بطرابلس بلا حقّ!

أطلق آهة وجع قبل أن يتمم:

ـ لقد أصدرتُ الأمر بقصف نبيّ الزور ذاك بالقنابل، ولكن الجميع خذلوني في ذلك اليوم المشئوم!

قال الوزير:

ـ سمعت نصرانيّاً مرّة يردّد قولاً يقول: «كلّ شرّ ينتهي إلى خير فهو خير وإن تبدّى لنا شرّاً»!

ولكن العزاء لم يقنع الباشا:

ـ بأيّة قرابين صار الشرّ خيراً؟

ثم استدرك:

ـ أنا لا أتحدّث، يا جناب الوزير، عن نفسي، لأنّي الوحيد الذي لم يفقد في هذه البليّة إلاّ قيده!

تدخّل سيدي يوسف:

ـ دعونا الآن من الحديث عن البليّة، وأفيدونا عن الطريقة التي سننحر بها زبانية نبيّ الزور برغل!

استغرب البك:

ـ ننحرهم؟

سيدي يوسف: ننحرهم بالطبع. أم أنّك تريدنا أن نكافئهم؟

البك: لن ننحرهم ولن نكافئهم أيضاً!

سيدي يوسف: ماذا تريدنا أن نفعل بهم إذا لم ننحرهم ولم نكافئهم!

البك: سنعفو عنهم!

أطلق سيدي يوسف ضحكة عالية. تدخّل الوزير:

ـ أنا أرى أن العفو عنهم أجلب للفائدة من إنزال القصاص بهم!

احتجّ سيدي يوسف بالاحتكام إلى الكتاب:

ـ ولكم في القصاص حياة! أم أنكم نسيتم؟

حاججه الوزير:

ـ هل يرضيك أن تقول الأجيال آنّك ارتكبت مذبحة في أناسٍ توسّلوا الرحمة؟

اعترض سيدي يوسف:

ـ لم يتوسّلوا الرحمة إلاّ لأنهم هُزموا!

قال البك:

ـ الرحمة سرّ المُلْك!

تضاحك سيدي يوسف باستخفاف:

ـ بل الرحمة آفة المُلك! بالرحمة استخفّ الخلق بأوامر الباشا فنصروا عليه لقيطاً آثماً لفظته الآفاق!

ساد صمت. زفر الوزير يأساً. تبادل مع البك نظرة. قال:

ـ يبدو لي أن لا مفرّ من الاحتكام إلى التصويت!

اعترض سيدي يوسف:

ـ بل لا مفرّ من اللجوء إلى ساحة القرعة لا أصابع التصويت!

قال البك:

ـ لن أُحكّم القرعة في أمرٍ بعد اليوم!

زأر سيدي يوسف:

ـ من أنت حتّى تحرّم حكم القرعة؟

تطلّع إليه البك طويلاً قبل أن يعلن:

ـ أنت تنسى أني الملك!

قهقه سيدي يوسف عالياً. قال:

ـ وأنت تنسى أنّك لم تصبح ملكاً إلاّ بفضلي!

حدجه البك باستنكار:

ـ بفضلك؟

ـ بفضل جيشي الذي يرابط خارج الأسوار منتظراً إشارة منّي كي يقتحم المدينة لينال نصيبه من الغنيمة!

تبادل البك مع الوزير خوجة نظرة قرأ فيها الأخير طلباً للنجدة. أضاف سيدي يوسف:

ـ لا يجب أن نغفر لهذه المدينة تحالفها مع السفّاح!

غزت وجنتي البك سحابة شحوب. قال:

ـ أنت لا تريد أن تغفر لهذه المدينة تحالفها معي، لا تحالفها مع السفّاح!

هبَّ سيدي يوسف واقفاً:

ـ لولا وعدي لهؤلاء الفرسان باستباحة المدينة لما جلستَ الآن في بلاط القلعة!

البك: تستباح المدن المعادية، لا المدن الموالية!

سيدي يوسف: الموالية؟ ومتى كانت هذه المدينة موالية؟

البك: هذه المدينة كانت موالية لك أيضاً ولم تتخلَّ عنك إلاّ عندما خذلتها!

سيدي يوسف: خذلتها؟

البك: لم تخذلها فحسب، ولكنّك خنتها!

تدخّل الوزير خوجه:

ـ لا يجب يا رفاق أن ننسى أنّنا خضنا حرباً لتحرير الوطن، لا حرباً لانتزاع أسلاب!

صاح البك:

ـ لن أسمح بأن تُعامل طرابلس بمنطق الغزاة!

زأر سيدي يوسف في وجهه:

ـ وأنا لن أسمح بأن يُستهان بوعدٍ قطعته على نفسي!

البك: بأيّ حقّ تعد جنودك باستباحة المدينة؟

سيدي يوسف: بحقّ النصر الذي انتزعوه بسيوفهم!

البك: هل جنودك أبناء قبائل تنتمي إلى لحمة هذا الوطن، أم أنّهم مرتزقة أغراب؟

سيدي يوسف: لا يروق لكم أن تنسبوا أبناء القبائل إلى لحمة هذا الوطن إلاّ في أزمان البلاء، ولكنكم لا تلبثوا أن تنكروا انتماءهم للوطن ما أن يسود الرخاء!

البك: إذا أبحنا استباحة المدينة فقد سمحنا باستبدال محتلّ بمحتلّ!

سيدي يوسف: جنودي لا ينوون أن يحتلّوا، ولكنّهم يريدون أن ينالوا نصيبهم من غنيمة اغتصبها منهم تجّار هذه المدينة على مرّ السنين!

تدخّل الوزير مرّة أخرى:

ـ أظنّ أنّي توصلت لحلّ يرضي الجميع!

تطلّع إليه الأخوان بلهفة. أضاف:

ـ إذا كانت الغاية من إباحة المدينة هي النّهب وليس التخريب أو التقتيل فبوسعي إقناع الأعيان بدفع الفدية نقداً!

ساد سكون تبادل فيه الشقيقان النظرات. قال البك:

ـ أخشى أن الأعيان لن يجدوا ما يمكن أن يُدفع لا من خزائن التجّار، ولا من جيوب الأهالي، بعد أن جرّدهم اللوطي برغل حتّى من أثمان أكفانهم بفنون التعذيب!

قال سيدي يوسف:

ـ لا يُعدم وجود ما يدفع إذا لم يُعدم وجود ما يُنهب!

أعقب عبارته بضحكة خبيثة فتكلّم الوزير:

ـ سيدي يوسف لم يخطىء. في تونس مثل يقول: «إذا انقطع الذهب من الدنيا، ففتّش عنه في بطن طرابلس!»، وطلاّب الكنوز يؤكّدون أن هذه الرابية التي تقوم عليها القلعة الآن ما هي إلاّ أنقاض مدن زالت أبنيتها مع من زال من أهلها، ولكن كنوزها لم تَزُل بزوالها!

سخر البك:

ـ لا أخالك تريدنا، يا جناب الوزير، أن نفتّش تحت بنيان السراي عن كنوز الأمم الزائلة لكي نشتري حرّيتنا من جنود يوسف!

أطلق سيدي يوسف ضحكته الهازلة في حين تساءل الوزير خوجة:

ـ هل تثق بي؟

أجاب البك:

ـ أنا أثق بك، ولكن الأهم من ثقتي بك هو ثقة يوسف بك!

ـ لا أفهم!

ـ أعني أنّنا يجب أن نفوز بموافقة يوسف أوّلاً قبل أن نتدبّر أمر الفدية!

قال سيدي يوسف:

ـ هذا يعتمد على قيمة الفدية التي تنوون تحصيلها!

قال الوزير:

ـ بوسعنا تحصيل ما لا يتجاوز المائة ألف قطعة ذهبية!

فزّ البك واقفاً:

ـ مائة ألف قطعة ذهبية؟!

أطلق سيدي يوسف ضحكة مكتومة. التفت إليه الوزير بسؤال:

ـ أيقبل جنودك التنازل عن نواياهم بمبلغ مائة ألف قطعة ذهبية؟

أجاب سيدي يوسف:

ـ المبلغ يرضيني، ولكنّي لا أثق في قدرة البك على تحصيل كنز بهذا الحجم!

نهض الوزير أيضاً. أخذ البك من يده ومشى به عبر ردهات القصر المهجور. قال بعد أن قطع مسافة في الطريق المؤدّي إلى الديار الخاوية التي كانت يوماً أجنحةً للحريم:

ـ سوف نحصّل نصيباً من المبلغ من الأهالي وتجّار المدينة، وسوف نحصل على النصيب الآخر كسلفة من قناصل الدول الأجنبيّة. سأبدأ بالقنصل الفرنسي لأنه الحلقة الأضعف في محفل القناصل!

وعندما تساءل البك عن معنى عبارة: «الحلقة الأضعف»، أجاب الوزير:

ـ لأن القنصل الفرنسي صديق قديم، وأستطيع أن أعتمد عليه في إقناع بقيّة القناصل!

ثم ابتسم ليقول:

ـ لم نعجز في استرجاع عرش أسلافك بالدّم، فكيف يعجزنا أن نشتري حريّة مدينتك بالمال؟!

## 27

في السادس والعشرين من يناير عام 1795م غادر الوزير مصطفى خوجة طرابلس عائداً بجيشه إلى تونس. شيّعه البك بنفسه حتّى مشارف جنزور، ثمّ ودّعه هناك وأوكل لشقيقه يوسف مهمّة الإنابة عنه في تشييعه حتّى الحدود. عاد البك إلى القلعة ليحرّر خطاباً مطوّلاً موجّهاً إلى الأستانة باسم الأهالي شرح فيه تفاصيل الكارثة التي نزلت على طرابلس بسبب فظائع المدعو علي برغل. أمّا سيدي يوسف فارتضى الذهاب في ركاب الوزير خوجة دون أن تفارق بسمة الاستهزاء شفتيه. وقد استمع في تلك الرحلة إلى وصايا الوزير غائباً. فبعد أن أفلح في استرضاء جيشه بالفدية نجح أيضاً في إقناع البك بتجنيد شطر من أفراد

هذا الجيش، في حين استبقى الشطر الباقي على أهبة الاستعداد للاستجابة لأيّ نداء قد يستوجبه تطوّر الأوضاع. فعل ذلك إيماناً منه بأن شعار «لا تثق بأحد» الذي يروق للبك أن يتشدّق به بمناسبة وبلا مناسبة، لن يَبْطُل إلاّ باليقظة التي تستبدل ترديد الألفاظ البلهاء بالعمل في صمت. أجل. لقد أدرك منذ زمن الحرب مع حسن بك أن من يعمل وحده لا يتكلّم، أمّا من يتكلّم فلا يعمل. من يتكلّم لا يفعل. من يتكلّم لا يفلح أيضاً. ولو لم يحضن أحلامه كما تحضن الدجاجة بيضها لما أفلح في كسب تلك الحرب. وهو لن يكسب حربه اليوم مع أحمد بك ما لم يستخدم التعويذة نفسها. العمل بقدْرٍ من حذر، مع نصيب أكبر من صمت. بعد الاستيلاء على المدينة لاحظ إصرار البك على رفقته في كل تنقّلاته كأنه ظلّه: إذا أراد الخروج من القلعة أرسل في طلبه للخروج في معيّته. وإذا اقتضى ظرف خروجه من بوابة المدينة أصرّ على خروجهما من البوابة معاً حتّى أن أحد أعوانه همس له في أذنه مرّة قائلاً أن خطوة البك القادمة ستكون توجيه الدعوة له رسمياً لمرافقته إلى ذلك المكان الذي يقال أنه المكان الوحيد الذي يذهب إليه الملوك بدون عسس. وعندما استفهم عن هويّة هذا المكان مال اللّعين على أذنه ليهمس: «المرحاض!».

ضحك يومها حتّى استلقى على قفاه لا استجابةً للنكتة كما ظنّ المعاون الغبيّ، ولكن لأن البك أوحى له بنفسه ما يتعيّن عليه أن يفعله. وشرر هذا الوحي هدهده طويلاً، ولكنه لم يتولّد بوضوح إلاّ في هذه

اللحظة. نكتة المعاون قَدَحَتْ الزند برغم سخفها فتألّق الشرر. فالرسالة تقول أن البك يخشى أن يخلفه على العرش أثناء غيابه خارج المدينة، أو خارج القلعة، أو حتّى خارج البلاط حيث ينتصب العرش، حيث ينتصب كرسيّ العرش. وهو ما يعني أن البك لا يثق في نفسه بما يكفي ليعرف أن العرش ليس عرشاً بكرسيّ العرش، أو حتّى ببيان تولّي العرش (الذي أصرّ أن يطوف به النذير كل بيت منذ أوّل يوم لدخول المدينة)، ولا حتّى باعتراف الناس بصاحب العرش صاحباً للعرش، ولا حتّى بالفرمان السلطاني الملفوف في ثنايا قفطان العرش؛ ولكن ولاية العرش استحقاق العرش. واستحقاق العرش لغز رهين بسرّ صغير اسمه الثقة بالنفس. والثقة بالنفس خصلة لم تكن من طبيعة البك يوماً. الثقة بالنفس أحجية لا توهب بالوراثة كما يوهب العرش بالوراثة، ولذلك فإن البك لم يكن يوماً جديراً بالعرش. لأن صاحب العرش الذي يخشى أن يُنهب العرش من بين يديه نهباً إنسان لم يُخلق لينال العرش. إنسانٌ يخاف أن يُخلف على العرش بمجرّد تركه العرش وكرسيّ العرش. ولهذا فإن وجود البك على العرش الطرابلسيّ إهانة للعرش الطرابلسيّ وليس تشريفاً للعرش الطرابلسيّ. لأن البك لا يدري، ولن يدري، أن العرش معنى يجب أن يُحمل في القلب وليس بكرسيّ أخشاب مزوّقةً بماء الذهب نجلس عليه. العرش قيمة نتماهى معها حتّى تتخلّلنا لا غنيمة نستولي عليها أو هبة نكتسبها. ولهذا فإن البك، بمسلكه هذا، لا يدري أنه أصدر على نفسه حكماً إن لم يكن بالإعدام، فهو حكم بفقدان العرش!

بعد عودته من رحلة تشييع الوزير التونسي ذهب سيدي يوسف إلى سوق الحدّادين متنكراً في ثياب أحد الدراويش. هناك تفحّص هؤلاء السحرة طويلاً قبل أن يقع اختياره على حدّاد عجوز، أحدب، يضع رجلاً في القبر ويداً في الفرن. طلبه على انفراد واختلى به في إحدى أركان الدار. كشف للعجوز عن هويّته فكاد المسكين يقع مغشياً عليه من فرط الدهشة. طمأنه الأمير وتوعّده أيضاً. قال له أنه سينال مكافأة مجزية إذا أحسن عملاً، ولكنه سيفقد رأسه إذا أفشى سرّاً. انتظر العجوز فاغر الفم فقال له سيدي يوسف أنه لا يريد منه إلاّ أن يصنع له دمية. دمية على صورته. والمكافأة تتوقّف على مدى قدرته على إتقان العمل. أضاف بلهجة لا تخلو من نبرة تهديد:

ـ الصورة يجب أن تكون طبق الأصل مائة بالمائة. الأمر لا يحتمل أدنى خطأ، فاحترس!

تفحّصه العجوز بعينيه فضوليتين كأنه قرّر أن يبدأ عمله في الحال. حشرج:

ـ هل يريد مولانا الصنم نحتاً من عاج، أم ضرباً من معدن النحاس؟

فكّر الأمير لحظات. أجاب:

ـ المهمّ هو الشّبه وليس المعدن!

غمغم العجوز بكلام مبهم فدسّ الأمير يده في جيبه وأخرج حفنة من القطع الذهبية. وضعها في كف العجوز قائلاً:

ـ المال لا يهمّ، المهمّ الشبه والعجلة!

تمتم العجوز وهو يتفحّص القطع الذهبية:

ـ ولكن مولانا يعلم أن العجلة عدوّ لإتقان العمل!

زفر سيدي يوسف بضجر. سأل:

ـ كم من الوقت يستغرق العمل؟

اختلس إليه العجوز نظرة حذرة قبل أن يقول:

ـ في حدود الثلاثة أشهر!

لعنه الأمير بأعلى صوت، ثم زعق في وجهه:

ـ هل تريدني أن أرتاد هذه الخربة كل يوم طوال ثلاثة أشهر لكي تهتدي بوجهي في تثبيت السيماء على معدن أجوف؟

ابتسم العجوز لأوّل مرّة كاشفاً عن فم خاوٍ من الأسنان. قال:

ـ لصنع الوجه لا يحتاج مولاي لزيارة قبوي هذا أكثر من ثلاث مرّات.

ذكّره الأمير بالقصاص الذي ينتظره إذا زلّ به اللسان، ثمّ تمتم وهو يستعيد قناع الدرويش:

ـ القناع! القناع دائماً! القناع قَدر إلى الأبد. كنت أعرف أن خلاصي لن يأتي إلاّ على يد قناع!

## 28

السراي الحمراء. 10 يونيو. 1795م.

فرغ البك من ارتداء حلّته الملكية للتوّ ثم توجّه إلى دار الإفطار. تطلّع إلى البحر من النافذة فتبدّى اليمّ في سكونه مستسلماً كبحيرة زيت. سَرَحَ في ركابه حتّى اعترضه الأفق. ولا يعرف لماذا أوحى له امتداده بفرار العرش. ربّما لأن امتداده ليس امتداداً، ولكنه جنس من فرار مثله مثل العرش.

فهو الوحيد من آل القرمانلي الذي جلس على عرشٍ فرّ منه العرش. تولّى عرشاً خالياً من العرش. نال عرشاً بلا مملكة تبرّر وجود العرش. حدث ذلك في المرّة الأولى عندما نُصِّبَ ملكاً يحيا في المنفى. نُصِّبَ ملكاً على عرش لا وجود له!

ويبدو أن الأقدار أرادت أن تسخر منه لأنّه شقّ عصا الطاعة على مشيئتها يوم تقبّل باكويّة كان يعلم يقيناً أنّها لم تُخلق له ولم يُخلق لها. لقد عاد يومها إلى جناحه ليخفي هزيمته في حضن للاّ حسنيّة. قال لها أنه صار منذ اليوم دمية لأنه خان وسواسه. خان هاجسه. خان ضميره. بلى، بلى. خان ضميره، بل خان ربّه، لأنه ارتضى أن يحمل لقباً وهبه له ناموس الدنيا، ولكن منعه عنه ناموس الربّ. وبدل أن يرفض هبة الدنيا ويقبل قدر الربّ، فعل العكس، فجلّل قلبه بالإثم.

في المرّة الثانية قادته الأقدار إلى مملكته لتضعه في جوف العرش الموعود. ولكنه وجد مملكة ولم يجد في المملكة عرشاً. سخرت منه الأقدار فسحبت البساط من تحت قدميه ليجد هاوية بدل العرش.

أمّا في المرّة الثالثة فأذاقته الأقدار علقماً أشدّ مرارة: وضعت إلى جواره سيدي يوسف الذي شعر دائماً أنه هو (سيدي يوسف) صاحب العرش الحقيقي وليس هو (أحمد بك). وضعت إلى جواره سيدي يوسف لاستكمال فصول المهزلة. كأنّ الأقدار تريد أن تنقل له رسالة تقول أن سيدي يوسف هو صاحب العرش، وما أنت، يا أحمد بك، سوى ظلّه. لأن العروش جرثومة خبيئة في الطبيعة وليست هبات تُمنح. في دم سيدي يوسف تجري هذه الجرثومة لا في دمك يا أحمد بك. فإذا شئت أن تعاند فهاتِ البرهان. إذا شئت أن تنتزع الجدارة في الفوز بالعرش من بين يديه فأغدر به كما يليق بصاحب مُلْك أن يفعل إذا نافسه في العرش خلّ، أو أخ، أو أب، أو حتّى ابن. بلى، يجب أن تقتله شرّ قتلة إذا شككتَ في أمره!

يجب أن تقتل سيدي يوسف بطعنة غدر كما فعل هو مع حسن بك! فإذا أعجزك ذلك فادفع به إلى المنفى على الأقل! فليذهب إلى تونس، أو مصر، أو.. أو فزّان! فزّان هي أكثر أركان الدنيا استحقاقاً للفوز باسم المنفى! فإذا قررتَ أن تستعير لنفسك خصال الحِلْم التي لم تكن دوماً من شيم الملوك فما عليك إلاّ أن تبعث به بكاً على بنغازي، أو بكاً على درنة!

ولكنه اكتشف أنه لا يستطيع أن يبعث به بكاً حتّى على درنة. لا يستطيع أن يتّقي شرّه بشيء. كلّ ما استطاع أن يفعله دفاعاً عن نفسه، أو دفاعاً عن عرشه المزعوم، هو أن يحمله في تجواله، وفي كلّ

حركاته وسكناته. يحمله تحت إبطه كما يحمل العابر قربة مائه على ظهره. يحمله لا إكراماً له، ولكن خوفاً منه على كنزٍ لم يمتلكه يوماً. كان يسخر من نفسه ويرى في هذه الحيلة عملاً مضحكاً، ولكنه مضى في ممارسة هذه اللعبة لأنّه أخفق في الاهتداء إلى بديل. لم يرَ في عين سيدي يوسف وحده آي الاستهزاء، ولكنه رأى هذا الإيماء في عيون الكلّ: الأعوان، أعضاء الديوان، الجند، الأحراس، وحتّى في عيون الحريم. الكلّ يسخر من إصراره على حمل هذا العبء في كلّ تحرّكاته. عيون الكلّ تقول له أن الأشرف له أن يتخلّى لشقيقه عن العبء وينجو بجلده. الكلّ يحثّه على وضع حدّ لهذه المهزلة تجنّباً ليومٍ يضطرّ فيه إلى دعوة سيدي يوسف ليشاركه المخدع فراراً من بطش سيدي يوسف!

سمع طرقاً على الباب انتزعه من رحلته. دخل الحاجب يطلب الإذن لأمين السرّ. جلس إلى مائدة الإفطار بعد أن أَذِنَ بدخول الحاج محمود أمين سرّه الجديد الذي استخدمه منذ لقي حاج أحمد مصرعه على يدي زبانية اللوطي على برغل. دخل أمين السرّ. انحنى بإكبار. كان رجلاً في العقد الرابع من العمر. نحيل البُنية. نحاسيّ البشرة. مفتول الشاربين. طويل الوجه، في عينيه بريق صرامة. على خدّه الأيمن أثر لجرح قديم كأنّه ضربة سيف.

تقدّم من سيّده خطوتين. انحنى نحوه ليقول:

- سيدي يوسف بانتظار مولاي خارج الأسوار!

ارتشف البك من فنجان القهوة. التفت إلى أمين السرّ. استفهم:

ـ خارج سور القلعة، أم خارج أسوار المدينة؟

ـ خارج أسوار المدينة يا مولاي!

ـ هل أنت على يقين؟

ـ كلّ اليقين يا مولاي!

ـ هل رأيته بعينيك؟

ـ بلى يا مولاي. رأيته على جواده الأبلق برفقة العسس!

ـ كم عدد العسس الذين خرجوا برفقته؟

ـ عددهم يزيد عن العشرة يا مولاي.

سكت البك لحظة. رشف من قهوته جرعة. قال:

ـ ما معنى أن يزيد عددهم على العشرة؟ هل هم اثني عشر، أم عشرون، أم مائة؟

ـ كلاّ، كلاّ، يا مولاي! عددهم أقل من خمسة عشر وأكثر من عشرة، هذا ما أردت أن أقول.

ـ لقد قلت ألف مرّة أن تفيدوني بعدد العسس الذين يخرجون بمعيّته بالضّبط!

تناول آخر رشفة من قهوته ثم أمر:

ـ هذا يعني مضاعفة عدد الأحراس الذين سيرافقون الموكب ثلاث مرات على الأقل. أنت تفهم ما أعني!

تمتم حاج محمود:

ـ بالطبع يا مولاي!

انصرف أمين السرّ مشياً إلى الوراء في اللحظة التي دخلت فيها للاّ حسنيّة. سألت:

ـ الخروج إلى الخلاء مرّة أخرى؟

قال وهو يتأهب للخروج:

ـ اصطياد الأنعام البريّة هو تسلية الملوك الوحيدة. هل تعلمين لماذا؟

ابتسم لها قبل أن يضيف:

ـ لأنهم أكثر مخلوقات الدنيا إحساساً بالعزلة!

استنكرت للاّ حسنيّة:

ـ العزلة؟

ـ بلى. والدليل أنّي انتهيت من تناول إفطاري على هذه المنضدة وحيداً!

تأهبت المرأة للدفاع، ولكنه سبقها:

ـ أعلم! أعلم! ستتحجّجين بالذريّة، ستقولين أن الجواري والإماء سلالة شيطانية إذا لم تستنر بعقول اللاّلات في عملها أفسدت أكثر مما أصلحت. أفهم الآن لماذا عزل علي باشا نفسه بعيداً عن جناح المرحومة للاّ حلّومة!

استدار خارجاً دون أن يسمع مرافعتها. في الرواق هرع إليه فريق من العسس. طوّقوه طوال المسافة حتّى نزل إلى الساحة السفلى. هناك وجد في انتظاره كوكبة من الفرسان، وعدداً من الأعوان، وكذلك الفرقة الموسيقية.

تحرّك الموكب ما أن قفز على جواده. تقدّمت الموكب الفرقة الموسيقية ثمّ حملة الأعلام الملكيّة، ثم الشاويشية، ثم حملة النياشين، ثم حملة الأسلحة، ثم الأحراس، ثم الأعوان.

شيّعت المعزوفة الموسيقية الملكية الموكب حتى باب هوّارة. خارج السور بحث ببصره عن موكب سيدي يوسف، ولكن نخيل المنشية حجبته كما ظنّ.

سار الموكب حتّى بلغ حقول الضاحية. اخترق غابات النخيل منحرفاً في الطريق المؤدّي إلى الخلاء. هناك، في طرف الضاحية المزروع بصفوف شجيرات الزيتون، تراءت فرسان سيدي يوسف. زحف الموكب ببطء حتى اقترب من المكان، ولكن كوكبة الفرسان تبدّدت من المكان. تبدّدت الكوكبة ولكنّها تركت وراءها فارساً وحيداً. تركت سيدي يوسف في غابة الزيتون وحيداً وتفرّقت.

اقترب الموكب حتى أحاط بالفارس الوحيد. تقدّم منه أحد الأعوان. تمتم وهو ينحني أمام الجواد:

ـ مولاي!

ولكن سيدي يوسف لم يجب. ربت الرجل على بدن الجواد. تساءل وهو يمسك بالزمام:

ـ هل يسمح مولاي..

ولكنّه لم يكمل العبارة، لأنه اكتشف أمراً جللاً. اكتشف أمراً منكراً. اكتشف بليّةً. اكتشف أن سيدي يوسف الذي يمتطي الجواد لم

يكن سيدي يوسف، ولكنه شبيه سيدي يوسف، صنم ملفّق على صورة سيدي يوسف، فأدرك أن المكيدة قد انطلت على البلاط وانتهى الأمر. التفت نحو الموكب شاحباً، يصارع الفزع والدوار والموت. غمغم: «هذا ليس سيدي يوسف!» قبل أن يقع مغشياً عليه!

## 29

عاد الباشا من مقبرة العائلة المالكة بجامع الباشا فوجد في القلعة بلبلة. كان الجنود يتراكضون في كل مكان ويتنادون بأصوات عالية. عند أسوار المدينة سمع تبادل الإطلاقات النارية. في الشوارع المجاورة علا هرج السابلة. اكتأب واستشعر الدوار. لم يستشعر الدوار فحسب، ولكن انتابته رجفة عنيفة. فزّ من جبينه العرق وأحس بضيق في التنفّس.

لم يهرع لنجدته أحد فتوقّف حتى استعاد الأنفاس. مشى بمحاذاة الجدار خطوات مستعيناً بالعكّاز. حوله تراكض الأحراس، ولكنّهم لم يلتفتوا إليه. استشعر سعادة لأنهم لم ينتبهوا إليه. لم يتجاهلوه اليوم فحسب، ولكنهم كفّوا عن الاهتمام به منذ تنازل عن العرش. رأى في عيونهم ومسلكهم شكوكاً في قواه العقلية، فوجد في هذا الجفاء راحةً، بل سعادة، بل شيئاً أعظم شأناً من راحة البال ومن ما يسمّيه الناس سعادة. وجد.. الحريّة!

لم يستبدّ به القلق في ذلك اليوم إلاّ ليقينه بأن ما يحدث يهدّد هذه الحريّة. فقد عاهد نفسه منذ تخلّى عن العرش أن يضحّي بكل شيء في دنياه في سبيل أن يحتفظ بالحرية. في سبيل أن يحيا الحرية.

في سبيل أن يموت حرّاً. بلى، بلى. في يقينه أن الإنسان الحرّ وحده لا يأبه بأن يموت غداً، أو اليوم، أو بعد ساعة، لأن الحرية جنس فريد من أجناس الموت. الحرية وحدها تستطيع أن تطيح ببعبع الموت. الحرية وحدها تجعل الموت ميلاداً!

وأسوأ ما في أحداث البلاط أنها تملك القدرة على انتزاعه من سلطان الحرية. لأن الحرية إحساس هشّ يفرّ لأتفه الأسباب، واستعادته تتطلّب بطولة قد تستمرّ أجيالاً.

تسلّل عبر الأروقة كاللصّ حتى بلغ عتبة باب الجناح. فتح الباب وتوارى خلف الباب. ذهب إلى غرفة النوم. أطل من النافذة المشرفة على البحر. هناك هاجمته الجعجعة. عاد أدراجه وفتح الدرج. تناول قطناً سدّ به أذنيه. عاد إلى النافذة.

في وجهه انتصب المدى. كان شديد الزرقة. ساكناً سكون الأموات، كأنه مرآة خرافية استلقت خصيصاً كي تعكس زرقة السماء العارية من السحب. و. .

سمع طرقاً على الباب. لم يستجب. لا يريد أن يسمع خبراً. لا يريد أن يسمع أصلاً. ليته يصاب بالصّمم لأنه لم يحدث أن سمع إلاّ ما يكره. لا يريد أن يحتفظ من حواسه كلها إلاّ ببصره. يستطيع ألاّ يشمّ أيضاً. يستطيع أن يفقد حاسّة اللمس أيضاً. ولكن البصر وحده من بين الحواس كنز. ربّما لهذا السبب استعار منه أهل اللغة كلمة «بصيرة»، كأنّ العين إذا عجزت أن تبصر تحوّلت بصيرة، أبصرت بالبصيرة؛ ربما

لهذا السبب أيضاً اشتركت العين مع القلب في كلمة أخرى هي «الرؤية». الرؤية إذا أعجزت العين تولّى القلب عنها الوزر في «الرؤيا». رسالة العين وحدها في هذه الدنيا أعجوبة!

هو أيضاً يرى بالعين فيستجيب القلب بالنبوءة. لأنّ الجمال وحده يستحقّ أن يُرى. لأن الجمال وحده حريّة. لأن الجمال إذا تبدّى في ساحة الحريّة انقلب ذلك اللغز الذي يروق لدراويش الطرق الصوفيّة أن يعبّروا عنه بعبارة: «ليس كمثله شيء!».

ازداد الطرق على الباب عنفاً، ولكنه لم يستجب. لم يسمع. غاب في رحاب خلوته مع حميمه البحر بعيداً بعيداً، فتزلزل المكان بعدها بلحظات. اقتحم الخدم الباب اقتحاماً فانزوى في الركن المجاور للنافذة كأنه طفل ضُبط متلبساً بجرمٍ مجهول، بإثمٍ مجهول. كان يرتجف في الزاوية كعصفور معطوب الجناحين عندما انتصب أمامه سيدي يوسف. هتف بأعلى صوت:

ـ أبشر يا أبتاه أبشر! فقد استطعت أن أحرّر العرش! استطعت أخيراً أن أستعيد لك العرش المغتصب!

أفزعه الصوت أكثر مما أفزعه المعنى الذي بثّه سيدي يوسف في الصوت فتزلزل وكاد يقع. أسنده أحد العبيد في حين أضاف سيدي يوسف:

ـ أراد أن يغدر بي يا أبي! دبّر مؤامرة لقتلي فطردته خارج الأسوار. لقد بعثت له بمكتوب قلت فيه: «إذا كنتم لا تريدون أن تنالوا

المصير الذي ناله شقيقكم حسن بك فتقبّلوا تعيينكم بكاً على درنة!».

هه، ما رأي مولاي؟ لقد أردت أن أبرهن له على رحمتي مقابل مكيدته الدنيئة بهذا الخطاب!

ترنّح الباشا بين يدي الخدم في حين واصل سيدي يوسف ثورته:

ـ والآن هيّا بنا يا أبي إلى العرش! سيعرف الناس أن الروح قد عادت إلى المملكة الطرابلسية عندما يرونك تجلس على العرش!

ثم وجّه خطابه الجنوني إلى الخدم:

ـ هيّا! احملوا الباشا! أعينوا الباشا للوصول إلى العرش!

حمل العبيد الباشا بين أيديهم تنفيذاً لهوس سيدي يوسف، في حين تقدّمهم الأمير بخطوات واسعة كأنها الهرجلة.

في الرواق انضمت إليهم قافلة من الأحراس والأعوان والجنود. أدرك البلاط فالتفت إلى الجمهرة. صاح:

ـ أجلسوا الباشا على العرش! قبّلوا قدميه! قدّموا لجلالته فروض الولاء والطاعة! أحمدوا الله على الخلاص!

لم يحتمل الباشا أكثر ممّا احتمل فأصيب بنوبة إغماء. علا في المكان هرج. أمر سيدي يوسف باستدعاء الطبيب، ولكن الباشا استيقظ من «غفوته» (كما اعتاد أن يسمّي مثل هذه النوبات) قبل أن يصل الطبيب. وجد نفسه يستلقي في جوف العرش بجرمه الضئيل. فوق رأسه وقف سيدي يوسف. حول الأمير التفّ الأعوان وكبار الضبّاط وتحامل على نفسه بعد لحظات فجلس. نظر حوله في ذهول. تفقّد

العرش قطعةً قطعة. اكتشف كم هَزُل وتضاءل في جوف العرش. أغمض عينيه زمناً. ثم.. ثم ابتسم. ابتسم ابتسامة عابرة حيّرت كل من وقف فوق رأسه في ذلك اليوم. ويبدو أن البسمة كانت لكبوته بلسماً لأنه ما لبث أن استعاد حيويّته المفقودة. نهض من الكرسي ببطء. نزل من العرش ليتشبّث بيد سيدي يوسف. تشبّث بيد الابن بكلتا يديه. احتوى يده في يديه قبل أن يجرّه نحوه. قبل أن يجرّه نحو العرش. قبل أن يجلسه في جوف العرش. أجلسه على العرش وركع أرضاً. ركع بإكبار ليعلن:

ـ مولانا ملك المملكة الطرابلسية!

هَوَى بعدها الضبّاط والأعوان والأحراس أرضاً ليردّدوا وراء مليكهم القديم بصوت جماعي:

ـ مولانا ملك المملكة الطرابلسيّة!

30

# خاتمة

غزّة. 2 فبراير. 1804م.

لم يعد الآن يتخفّى تحت طائفة الألقاب المنتحلة، ولكنه اكتفى بالعيش في بيت متواضع، في مدينة غزّة، تحت اسم عليّ بن زول. جرّدته الأقدار حتّى من لقب «باشا»، وصار الناس ينادونه باسمه مجرّداً. جرّدته الأقدار من لقب الباشوية المهيب كما جرّدته من ألقابه السحرية الأخرى، كما جرّدته من سلطانه على المدن التي امتلكها بسيرته الأسطورية الزائلة. لقد خرج يوماً طريداً من الأستانة بسبب نزاع على صفقة تجارية مع أحد أقرباء صاحب الباب العالي فنزل البحر. والبحر هو الذي قاده إلى الجزائر لتصير له غنيمةً بديلةً. ولكنه خرج منها طريداً أيضاً. لم يستسلم لقدره. بل احتال عليه ليسطو على أمّ الكنوز الدنيويّة. سطا على طرابلس، ولكنه جلا عنها مطروداً أيضاً فاستجار بمصر. استجار بالمماليك سنوات قبل أن يحاول سحب البساط من تحتهم. ذهب إلى الأستانة واشترى بالأموال التي استولى عليها من طرابلس فرماناً سلطانياً حقيقيّاً هذه المرّة يؤهّله للفوز بمصر غنيمةً. ولكن الأقدار سخرت منه مرّة أخرى. سخرت منه هذه المرّة

كما لم تسخر منه من قبل. فقد مزّق المماليك الأشقياء فرمان السلطان في وجهه وأمهلوه يوماً واحداً لمغادرة البلاد. طُرد من مصر أيضاً برغم أصالة الفرمان السلطاني. هُزم شرّ هزيمة برغم احتكامه إلى ساحة النزاهة في اللّعب. كأنّ الأقدار أرادت أن تلقّنه درساً أخيراً في رسالتها التي تقول في حرفها: «من اعتاد أن يُفلح بالغشّ ليس عليه أن يطمع في الفوز إذا احتكم إلى النزاهة في اللعب!».

خرج من مصر مطروداً وحطّ الرحال في غزّة.

في غزّة لم يبقَ له إلاّ أن يحيا الضجر. الضجر هو أقسى أجناس القصاص التي يروق للأقدار أن تستنزلها على رأس الذين جُبلوا على تبديد الحياة في انتهاب حطام الدنيا، لأن هذه الملّة التي اغتربت عن نفسها لا تجد ما تفعله بنفسها عندما تجد نفسها تقف وجهاً لوجه مع الخلوة.

اكتشف لأوّل مرّة أنه أعجز الناس عن الصلاة. أعجز الناس عن ممارسة تلك الصلاة التي يسمّيها الأولياء ودراويش الطرق الصوفية تأمّلاً. اكتشف أنه أعجز الناس حتّى عن مضغ الذكريات التي سمع مرة حكيماً يقول أنها تصلح لأن تكون لنا حياة ثانية فيما إذا أحْسَنّا استعادتها. وجد نفسه مخلوقاً يحيا كما تحيا البهيمة: يطعم البدن بالمأكولات الشهيّة فينتفخ البدن ويسمن كما تسمن الخنازير. يشتعل بالشهوة فيطفئها في أجساد الغلمان. تهاجمه السويداء فيجد أنه لا يستطيع أن يهوّن الكرب عن نفسه حتّى بالبكاء. اكتشف أنه لا يحسن

البكاء. اكتشف أنه لم يحدث أن بكى يوماً. اكتشف أن الإنسان ليس حيواناً يستطيع أن يضحك كما يردّد أهل الجهالة، ولكنه حيوان يستطيع أن يبكي. يستطيع أن يحزن. يستطيع أن يندم. يستطيع أن يتوب. يستطيع أن يتطهّر. يستطيع أن يحقّق ما يسمّيه رهبان النصارى ميلاداً ثانياً. هذا الميلاد الثاني هو ما استعصى عليه. هو ما استحال عليه. لأنه اكتشف أنه لا يستطيع أن يبكي. لا يستطيع أن يصلّي. لا يستطيع أن يتأمّل. لا يستطيع حتّى أن يتسكّع على شاطىء البحر ليستمتع بالبحر. اكتشف (يا للهول) أنه لم يعرف البحر يوماً برغم أنه قضى حياته كلها يحيا في قلب البحر. اكتشف أن البحر حجب عنه حقيقته لأنه لم يرَ في البحر بحراً. لأنه لم يرَ في البحر إلاّ غنيمة.

حاول أن يفهم البحر. حاول أن يخاطب البحر. حاول أن يجد لغة مشتركة مع البحر، ولكن بعد فوات الأوان. كان يتحامل على بدنه الكريه ويخرج لمناجاة البحر. ولكنه لم يجد في البحر إلاّ خلاء من ماء. صحراء من ماء. لم يجد في البحر بحراً أبداً. استنجد بالسماء مراراً. حاول أن يجد ما يجده الناس في السماء. ولكن السماء أنكرته أيضاً. لم يرَ في السماء نبوءةً. لم ير في السماء نجوماً. لم يرَ في السماء بدراً. بل لم يرَ في السماء حتّى الشمس. اكتشف أنه مصاب بالعماء دون أن يدري. اكتشف أنه أصمّ أيضاً. اكتشف أنه أبكم أيضاً وأيضاً. اكتشف بعد فوات الأوان أنه يحيا طوال الوقت بحواسٍ ميّتة. زعزعه رعب مجهول ففكّر لأوّل مرّة في الانتحار.

فكّر في الطريقة المثلى للخاتمة طويلاً إلى أن جاءه الخلاص في إحدى الأمسيات يدبّ على قدمين.

طرق باب بيته ضيف قال أنه عابر سبيل: رجل نحيل البُنية كأنه شبح، طويل القامة، ملفوف بالبياض من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه. كان ينتعل خفّين ناصعين أيضاً.

تربّع في مواجهته وتطلّع إليه بفضول. ابتسم له ابتسامة غامضة قبل أن يقول:

ـ مضى زمن طويل على آخر لقاء بيننا يا علي بن آدم!

حدجه باستنفار قبل أن يردّد بذهول:

ـ ماذا؟ هل تحدّثتَ عن آخر لقاء بيننا؟ هل.. هل نطقتَ باسم علي بن آدم؟

في مقلة الزائر رأى إيماءً كأنه شقاوة. انتظر الجواب على أسئلته بفارغ الصبر. ولكن عابر السبيل تجاهلها ليقول كلاماً آخر:

ـ ليس في هذه الدنيا بطولة يا بن آدم، لأن من لا يُهزم بأيدي الرجال يُهزم بيد الزمان!

فقد لحظتها صوابه:

ـ اللعنة! من أنت؟

ـ خطيئتك الثانية في يقينك بوجود سرّ يمكن في هذه الدنيا أن يُخفى!

ـ من أنت؟

ـ نجحتَ في إخفاء اسمين من ألقابك السحرية السبعة ظنّاً منك أن التميمة يمكن أن تصير حجاباً إلى الأبد، ونسيت أن ما وُجد لا بدّ أن يُعلم!

اختنق بغضبة من غضباته المجوسيّة التي كانت نقطة ضعفه زمن القرصنة، ولكنه كتمها فانتفخت في شدقيه انتفاخ بدن الضبّ.

أضاف الزائر:

ـ النسيان آفة الزبانية، والدليل أنّك لم تتساءل يوماً عن سرّ النكبات التي تنزّلت على رأسك منذ خرجت مطروداً من ديارالجزائر!

ـ عليك اللعنة!

ـ أنت لم تُطرد من ديار الجزائر إلاّ بعد أن أفلحتُ في فكّ أول طلسم في الأحجية!

ردّد وراء الغريب بذهول:

ـ أوّل طلسم في الأحجية؟

ـ بلى. استطعت أن أهتدي إلى الاسم السادس، الخفيّ، في حزمة الأسماء السبعة!

استنكر:

ـ عن أيّ اسم تتحدّث؟

ـ الاسم الذي تجهله أنت أيضاً: ابن آدم!

سكت الضيف لحظة. أضاف:

ـ قلتُ لا بدّ أن يكون الاسم السادس «ابن آدم» لأنه أنسب الأسماء لمخلوق مسبوك من نار جهنّم!

ـ نار جهنّم؟

واصل الغريب:

ـ ولكنّك خرجتَ من الباب لتدخل من النافذة كما يليق بكل سليل أبالسة!

أزبدَ ونهشه الغيظ، ولكنه سكت أملاً في إرواء الفضول. أضاف العابر:

ـ أعترفُ أنّي فكرتُ مراراً أن أجهز عليك بهذه المدية، ولكنّي لم أفعل ليقيني بأن أمثالك لا يموتون بأنصال السكاكين!

هتف بدهشة:

ـ فكرتَ أن تقتلني؟ من أنت عليك ألف لعنة ولعنة؟

ـ آثرتُ السير في السبيل الأصعب فقمتُ بزيارتك في طرابلس ملفوفاً في هذه الأسمال!

انتفخت أوداج المضيف حتّى كاد شدقاه أن ينفجرا. صاح:

ـ عرفتك! عرفتك! أنت وليّ الزور الذي زيّنَ لي الاستيلاء على جزيرة جربة!

لفظ زبداً من فمه ثم أضاف:

ـ لقد بحثت عنك كثيراً وها أنت تأتيني بقدميك. ولكن.. ولكن من أنت؟

عاد الزائر يتبسم. قال بسكينة أهل العزلة:

ـ تصفني بوليّ الزور وتنسى أنّك صاحب الزور الأوّل!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أن لهذه الكلمة الرهيبة التي نطقتها منذ قليل يرجع الفضل في الإطاحة بعرشك الخالد!

ـ عرشي الخالد؟

ـ أليس عرش الشيطان خالداً خلود الخليقة؟

لم يحتمل أكثر فازدادت أشداقه انتفاخاً، وعيناه جحوظاً، وخدّاه احمراراً. غمغم بكلام مبهم في حين تلاحقت أنفاسه وبدأ يلهث. قال عابر السبيل:

ـ استخدمت حيلة جربة لعرقلتك فحسب، لأنّي أدري أنّي لن أستطيع أن أقضي على سلطانك ما لم أفكّ طلسم الاسم السابع!

ـ الاسم السابع؟

ـ بحثت في الزوايا، واستشرت الحكماء، وقرأت في الصحراء الألواح الحجرية، وطلبت الوحي نوماً على أضرحة الأسلاف، وجادلت النحاة وأهل اللغة. وأصدقك القول أنّي لم أكن لأهتدي إلى البُغْية لولا هذه السيرة. فهل تدري أين وجدت الحلّ؟

لم ينتظر جواب المضيف المحتضر فأضاف:

ـ في بطون الكتب! في بطون الكتب تنام الحقيقة دائماً!

أطلق صاحب الألقاب آهة وجع، في حين تلاحقت أنفاسه فبدأ يختنق كالمريض بداء الرّبو. ولكن العابر لم يرحمه. مضى يروي سيرته كأنه يستمتع بروايتها لنفسه:

- في بطن أحد هذه الكتب وجدت أن حروف اللاّم والنون والرّاء التي نعتبرها حروفاً ثلاثة ما هي إلاّ بمثابة حرف واحد في لسان القدماء الذين يطلقون عليها اسم: «الحروف الذّلق». فما كان منّي إلاّ أن استرجعت لقبك الأوّل، لقب علي بن زول، واستبدلتُ فيه اللاّم بالنون ليصبح علي بن زون. فهل تدري ماذا وجدت في كتاب آخر؟

ضحك الزائر لأوّل مرّة في وقتٍ لاحق فيه المضيف أنفاسه بعسر شديد. قال العابر:

- الزون، يا علي بن زول، هو الزور!

تنفّس الزائر بارتياح في حين عاند المضيف أنفاس النزع الأخير.

أضاف العابر:

- ليس ابن منظور وحده الذي يؤكّد عدم وجود فرق بين كلمة «زون» وكلمة «زور»، ولكن الإمام الثعالبي أيضاً يا علي، يا ابن.. الزور!

قهقه العابر بأعلى صوت فجعجع المكان كلّه برجّة عنيفة أفزعت الخدم فهرعوا إلى المكان ليروا كيف يلفظ سيّدهم أنفاسه الأخيرة!

**الريف السويسري (مايو 2007)**

## مؤلفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990 م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

53 ـ صحف إبراهيم (متون 2005م).

54 ـ المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأمَّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، (2006م).

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكانٍ نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

## مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

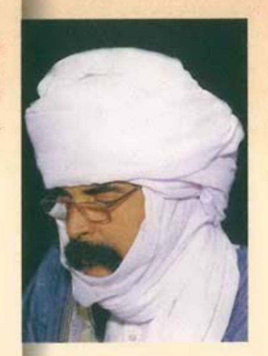
64 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

65 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

66 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

CANE: WHERE IS YOUR BROTHER ABLE?





# قابيلُ .. أينَ أخوكَ هابيلُ ؟

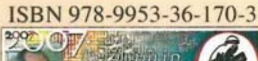
« إبراهيم الكوني مبدع استوعب مختلف أساليب الأدب العالميّ للقرنين التاسع عشر والعشرين إلى حدّ أنّه يستحقّ الفوز عن جدارة بجائزة نوبل للآداب . »

**صحيفة فرايتاغ الألمانيّة**

« يمثّل إبراهيم الكوني ظاهرة متفرّدة في الإبداع العربيّ المعاصر من ناحية الخصوبة المتدفّقة والفتوحات النوعيّة الجديدة [ .. ] فقد استطاع أن يمتح من معين الثقافة الموسوعيّة الكبرى في الأنثروبولوجيا والفلسفة والأدب ، وأن يخطّط على مهل لمشروعه الإبداعيّ الطموح في إعادة بناء الذاكرة ، وتشكيل وجدان قومه ، واكتشاف كنوزهم المطمورة في الوعي والمخيال الجماعيّ في الآن ذاته بما جعله صوتًا فريدًا في الإبداع العربيّ . »

**صلاح فضل / الأهرام المصريّة**

ISBN 978-9953-36-170-3





المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com

